من آثار علماء الجزائر

مقالات ودراسات

للأستاذ رابح بونار

رحمه الله

نشرت في المجلات الجزائرية:

آمال – الثقافة – الأصالة

جمعها:

مسعود الغسيري

مقالات الأستاذ رابح بونار رحمه الله

في مجلة (آمال) - الجزائر

1- **الأمير عبد القادر حياته وأدبه (1807-1883م)**، العدد: 8، جويلية 1970م، ص: 11-27 (17 صفحة)

في مجلة (الثقافة) - الجزائر

2- **عبد الرحمن الثعالبي**، السنة الثانية، العدد: 7، محرم 1392 هـ/ مارس 1972م، ص: 46-56 (11 صفحة)

في مجلة (الأصالة) - الجزائر

3- **أبو بكر محمد بن داوود كاتب يغمراسن بن زيان بتلمسان**، السنة الأولى، العدد: 3، جمادى الثانية 1391 هـ/ أوت 1971م، ص: 21-27 (7 صفحات)

4- **أزهار الأحجار، لأحمد بن يوسف التيفاشي**، السنة الأولى، العدد: 5، شوال 1391 هـ/ نوفمبر 1971م، ص: 128-130 (3 صفحات)

5- **القاضي سعيد العقباني التلمساني**، السنة الأولى، العدد: 6، ذو الحجة 1391 هـ/ جانفي 1972م، ص: 65-72 (8 صفحات)

6- **علي بن أبي الرجال التاهرتي القيرواني**، السنة الأولى، العدد: 6، ذو الحجة 1391 هـ/ جانفي 1972م، ص: 121-124 (4 صفحات)

7- **مدينة الجزائر تاريخها وحياتها الثقافية**، السنة الثانية، العدد: 8، ربيع الثاني، جمادى الأولى 1392 هـ، ماي، جوان 1972م، ص: 77-90 (14 صفحة)

8- **أبو راس المعسكري وتاريخ مدينة الجزائر**، السنة الثانية، العدد: 8، ربيع الثاني، جمادى الأولى 1392 هـ، ماي، جوان 1972م، ص: 129-138 (10 صفحات)

9- **إبراهيم بن أحمد الفجيجي وقصيدته المطردة "روضة السلوان"**، السنة الثانية، العدد: 11، شوال، ذو القعدة 1392 هـ/ نوفمبر، ديسمبر 1972م، ص: 139-144 (6 صفحات)

10- **بجاية من خلال بعض الرحالة المسلمين**، السنة الرابعة، العدد: 19، صفر، ربيع الأول 1394 هـ/ مارس، أبريل 1974م، ص: 61-69 (9 صفحات)

11- **مخطوط يُنشر لأول مرة: تاريخ بني حماد للسان الدين بن الخطيب (ت 776 هـ)**، السنة الرابعة، العدد: 19، صفر، ربيع الأول 1394 هـ/ مارس، أبريل 1974م، ص: 89-95 (7 صفحات)

12- **عبد الحق الإشبيلي البجائي محدث القرن السادس الهجري**، السنة الرابعة، العدد: 19، صفر، ربيع الأول 1394 هـ/ مارس، أبريل 1974م، ص: 259-272 (4 صفحات)

13- **عبقرية المشداليين العلمية في بجاية على عهدها الإسلامي الزاهر**، السنة الرابعة، العدد: 19، صفر، ربيع الأول 1394 هـ/ مارس، أبريل 1974م، ص: 303-316 (14 صفحة)

14- **نظام الحكم في إمارة الأمير عبد القادر**، السنة الرابعة، العدد: 23، محرم، صفر 1393 هـ/ جانفي، فيفري 1973م، ص: 42-50 (9 صفحات)

في مجلة (المجلة) - مصر

15- **الشيخ جمعة "قصة"**، السنة الرابعة عشرة، العدد: 164، أغسطس (آب) 1970م، ص: 106-109 (4 صفحات)

الأمير عبد القادر
حياته وأدبه 1807 - 1883 م (1)

للاستاذ رابح بونار

تمهيد : لقد كانت الحياة الادبية بالجزائر فى آخر العصر التركى متدهورة متخلفة اذا ما قيست بالحياة الادبية بالمشرق ولكنها مع ذلك كانت افضل من عهد الاحتلال الفرنسى الاول ما بين سنتى (١٨٣٠ - ١٩٠٠م) .

وأما قبل الاحتلال بنحو نصف قرن فقد كانت الحركة الثقافية مزدهرة بعض الازهار غير أنها كانت مقتصرة على العلوم الدينية وما اليها وكان الطابع البارز فيها هو التقليد والمحافظة على التراث القديم من فقه وتوحيد وتصوف وعلوم لغوية .

أعلام هذه الفترة :

وقد اشتهر فى هذه الفترة طائفة من العلماء والادباء منهم **عبد القادر الراشدى** القسنطينى المتوفى سنة ١٧٨٨م

1) ولد الامير فى القيطنة سنة 1807 م وتوفى بدمشق وقد وهم الدكتور احسان فى اثباته لتاريخ وفاة الامير سنة 1882 فى مقدمته لكتاب المواقف

وكان صاحب تأليف فى الفقه وعلم الكلام وكان يدعو الى التقليد وينفر من اعمال العقل فى المباحث الكلامية وفى ذلك يقول :

خبرا عنى المؤول أنى كافر بالذى قضته العقول
ما قضته العقول ليس من الدين انما الدين ما حوته النقول

محمد بن على الطلحى المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ وكان فقيها
محمد بن المسبح القسنطينى المتوفى سنة ١٢٤٢ هـ وكان مشهورا بالخطابة .
محمد بن الصالح الزواوى المتوفى سنة ١٢٤٢ هـ
وحمودة المقايسى الجزائرى المتوفى سنة ١٢٤٥ هـ وكانا فقهيهين مشهورين .

معاصروا الامير من العلماء والادباء :

كان يعاصر الامير عبد القادر جماعة من الشيوخ بالعاصمة وغيرها أشهرهم :

حميدة العمالى مفتى العاصمة المتوفى سنة ١٢٩٣ هـ وكان مدرسا بالجامع الاعظم وقد تخرج على يده عدد من رجال العلم

حسن ابريهمات ، وكان ذا تحصيل جيد فى علوم اللغة والتاريخ الاسلامى وتولى ادارة احدى المدارس الحكومية فأحسن ادارتها ونفع طلابها ، والف بمشاركة عبد القادر المجاوى كتابا نفيسا فى الاقتصاد هو كتاب « المرصاد فى علم الاقتصاد » .

الشيخ عبد القادر المجاوى : وكان مدرسا باحدى مدارس العاصمة الحكومية وعالما محصلا ، ومؤلفا مجيدا .

الشيخ على بن الحفاف مفتى العاصمة : وكان من طلبة الشيخ ابراهيم الرياحى وقد عزم على الهجرة من الجزائر فنهاه عن ذلك شيخه وقال له ان بقاء العالم للناس خير له من انتقاله لنفسه وتوفى سنة ١٣٠٧ هـ .

الشيخ محمد بن عبد الرحمن الديسى : وكان فقيها بارعا وشاعرا مشهورا ، درس بزاوية الهامل ، والف كتبا عديدة وترك أبحاثا سديدة ، وتوفى سنة ١٣٢٥ هـ .

الشيخ سليمان باشا البارونى : الذى تخـرج على يـد الشيخ محمد اطفيش وكان عالما مؤرخا ٠

وعاصر الامير بالمشرق بعض الاعلام فى مختلف الفنون ومنهم

رفاعة بك الطهطاوى الذى رافق البعثة الطلابية من مصر الى باريس وكان ألمعيا تعلم الفرنسية أثناء اشرافه على الطلاب وكان علاوة على ذلك أديبا كاتبا وشاعرا وعاد الى مصر واختير رئيسا للمترجمين بمدرسة أبى زعبل وشـارك فى تحـرير « الوقائع » المصرية وتوفى سنة ١٢٩٠ هـ ٠

عبد الله باشا فكرى وكان كاتبا وشاعرا وأحـد اركان النهضة الحديثة بمصر ويمتاز بأسلوبه الادبى الجزل ، ولد سنة ١٢٥٠ هـ وتوفى سنة ١٣٧٠ هـ ٠

على مبارك باشا وكان متخصصا فى الرياضيات وتوفى سنة ٢٣١١ هـ ٠

جمال الدين الافغانى الذى قدم الى مصر أواخـر القـرن التاسع واحدث بها ثورة فكرية ودعا الى حركة اصلاحـية جذرية كانت لها آثار كبيرة فى تلاميذه وفى العالم الاسلامى كـلـه ٠

الشيخ محمد عبده وكان اكبر مفكر عربى ، فى القـرن التاسع عشر وقد درس على جمال الدين الافغانى وتضلع فى المباحث الفقهية والادبية والفلسفية واوضح الاسس الفكرية للحركة الاصلاحية فكان بذلك قطبا للنهضة الحديثة وتوفى سنة ١٩٠٥م

البارودى المتوفى سنة ١٣٢٢ هـ وكان اكبر باعث للحياة فى الشعر الحديث ٠ وكان يعاصر الامير بتونس : الاديب الشاعر محمود قبادو ، وكان هذا متضلعا من علوم اللغة والادب وشاعرا كبيرا قوى الاسلوب غزير المعانى ٠

ان هؤلاء العلماء والادباء كانوا يعاصرون الامير عـبد القادر ولعله كان يسمع عن كثير منهم ويقرأ لهم وكان مستواهم الادبى أعلى مما كان عليه أدباء الجزائر فى هذا العهد وكان انتاجهم أدخل فى البلاغة العربية ٠

أما فى الجزائر فان البيئة العلمية والادبية فيها كانت ضعيفة هزيلة وكانت الدراسات الادبية متخلفة كثيرا عن المشرق ، ولذلك فان انتاجهم فى المجال الادبى على قلته كان يتعثر بين الاسلوب العامى والاسلوب الادبى ، وكانت معانيهم مكررة ، وموضوعاتهم تقليدية عادية ما عدا موضوع الحماسة فان الامير نجد له فيها قصائد مقبولة .

٢ ـ حياة الامير :

ولد الامير عبد القادر بقرية القيطنة بنواحى معسكر ونشأ نشأة علمية منذ صغره فأبوه محى الدين كان يعنى به ويجد فى تربيته وتهذيبه ، وقد علمه القراءة والكتابة ثم أرسله الى وهران فأخذ عن شيوخها علوم الفقه والاصول والحديث واللغة وحفظ كثيرا من احاديث البخارى ثم رجع الى بلده ، وارتحل والده الى الحجاز فرافقه وزار معه العراق ومصر والشام وأخذ بدمشق عن محدثها عبد الرحمن الكزبرى وعاد مع والده الى الجزائر وتقول دائرة المعارف للبستانى (١) أنه كان مكبا فى هذه الاثناء على دراسة فلسفة اليونان من علوم العربية والجغرافية والتاريخ والفلك وكان يراقب الفرنسيين لانفاذ البلاد من ايديهم ... ولا يبعد أن يكون ذلك صحيحا ولكن الفلسفة على ما يظهر كان يدرسها ضمن التصوف من خلال كتب محى الدين بن عربى وكتب ابن سينا وغيرهما ، ولم تمض سنوات حتى كان الاحتلال الفرنسى لمدينة الجزائر ثم وهران ١٨٣٠ ـ ١٨٣١ م وفى هذه الاثناء قصد مع والده لجهاد المحتلين وسجل انتصارات باهرة .

وفى سنة ١٨٣٢ بويع بالامارة وخاض معارك عنيفة مع جيوش الاحتلال الفرنسى دامت من سنة ١٨٣٣م الى سنة ١٨٤٧م وقد سجل فيها انتصارات عظيمة كانت سجل فخار للفروسية الجزائرية .

ورغم هذه المشاغل الحربية المزعجة فان الامير كان يعكف احيانا على شحذ قريحته لقرض الشعر أو لكتابة الرسائل السياسية والادبية ، وبعد اعتقاله بفرنسا وكان قد نضج

---

1) البستانى : دائرة المعارف مج II ـ مصر سنة 1920 ص 616

تفكيره وجادت ملكته شرع فى تاليف كتب نفيسة كالمقراض الحاد وذكرى العاقل فى تنبيه الغافل ، والمواقف فى التصوف وهكذا جمع الامير بين قرض الشعر واجادة النثر ٠

٣ ـ شعره : ان شعر الامير نجده متفرقا فى تحفة الزائر ومجموعا فى ديوانه الذى نشره الدكتور احسان حقى ، وهذه القصائد رغم ضعف كثير منها تظهر عليها روح شعرية مقبولة فى موضوع الحماسة والفخر والتصوف والغزل ، وما انشاه فى غير هذه الموضوعات يبدو عليه التكلف والاسفاف والاغلاط النحوية وضعف الخيال وفتور العاطفة ٠

شعره الصوفى : كان الامير يميل الى التصوف منذ صغره ولا شك ان أباه محى الدين الذى كان صوفيا كبيرا من أتباع القادرية كان ذا تأثير عليه فى تربيته الدينية وكان اكبر موجه له فى حياته الروحية الصوفية وكان العصر عصر تصوف انتشرت فيه طرق كثيرة ورسخ فى الاذهان ان اتخاذ شيخ مرب عارف ضرورى ولهذا كله كان الامير متصوفا منذ صغره ولكننا عندما رجعنا الى ديوانه لم نجد له قصائد فى التصوف فى مرحلته الاولى بالجزائر وانما تجد له قصائد تعود الى ما بعد الاعتقال والاستقرار بالشام ، وقد يكون ذلك عائدا الى أنه لم ينظم فى فترته الاولى لعدم نضجه فى الادب الصوفى وبعد نضجه فى الفترة الثانية أخذ يقرض فيه قصائد ٠

والامير فى شعره الصوفى قد يكون متأثرا بمحى الدين بن عربى وان الفارض والنابلسى وغيرهم وهو فى شعره هذا يعنى بتصوير ما يحس به ويسجل الواردات التى ترد على خاطره ومن الحق ان نقول ان الامير فى شعره الصوفى يتجلى عن روح شعرية ، ويطفح بعواطف صادقة واخيلة ملونة فى أسلوب سهل متوسط ، وقد استغل الامير رمزية المتصوفة فزان بها شعره ، ومن أشهر قصائده فى هذا الموضوع قصيدته الرائية (١) وفيها مائة وأحد عشر بيتا صور فيها بروح قصصية فتوحاته الربانية منع شيخه محمد الفاسى الذى التقى به فى مكة واخذ عنه الطريقة وفى مطلعها يقول :

---

١) انظر ص 125 من هذا العدد

امسعود جاء السعد والخـير واليسر
وولت جيوش النحس ليس لها ذكر

ثم تحدث عن أيام حيرته وانتظاره للقاء شيخه :

أتاني مربي العارفين بنفسه
ولا عجب فالشأن اضحى له أمر
وقال فاني منذ أعداد حجة
لمنتظر لقياك يأيها البدر

وأطال في مدحه ووصف شمائله واسبغ عليه خاصية الهداية وسمة الرحمة لجميع الخلائق .

حريص على هدى الخلائق جاهد
رحيم بهم بر خبير له القدر
فلا شيخ الا من يخلص هالكا
غريقا ينادي قد احاط به المكر

وكل من يزور الكعبة له أن يزور هذا المربي ليشرب من عذبه الفرات ، ومن خمره الالهية التي ليست كخمرة الدنيا :

فلا غول فيها ولا عنها نزفة
وليس لها برد وليس لها حر

والامير هنا يذكرنا بخمرة ابن الفارض التي يقول فيها :

شربنا على ذكر الحبيب مدامته
سكرنا بها من قبل ان يخلق الكرم

ثم يقول الامير ان هذه الخمرة لو درى الاملاك قيمتها وأدركوا سرها لتركوا ملكهم وزاحمونا عليها وحينما يسكر العارفون بشربها نجدهم تائهين عن هذا العالم المحسوس :

ولا غبن في الدنيا ولا من رزية
سوى رجل عن نيلها حظه نزر
وتاهوا فلم يدروا من التيه من هم
وشمس الضحى من تحت أقدامهم عفر

ويصف انتظارهم للتجليات الالهية فى أوقات عارضة فيشبههم بمن يشيم البروق حين يشتد الظلام وظلامهم هو ظلام الحيرة والقلق :

فيطربهم برق تألق بالحمى
ويرقصهم رعد بسلح له أزر

ويقول انى تخليت عن الدنيا لملوك الارض واضرابهم من عشاق المادة ورضيت بهذه الغنيمة الكبرى غنيمة الفناء فى حب الله وانتظار تجلياته :

فقل لملوك الارض انتم وشأنكم
فقسمتكم ضيزى وقسمتنا كثر

ثم يختم قصيدته الطويلة بالصلاة على النبى (ص) فبذلك ينتهى الامير من جولته الروحية الطريفة ·

غزله : ان غزل الامير لم يكن من الضرب المادى الذى نجد أدبنا القديم فياضا به ، وانما كان من نوع الغزل الروحى يتحدث فيه عن صبابته الى زوجته ام البنين او غيرها وتغزله بها صادق جياش بالعواطف النبيلة ، فكان اذا غاب عنها شكا واذا اذكرها تحسر واذا أجنه الليل وهى بعيدة عنه صاح من أعماقه بشعر عليه لفحات الحب ، وظلال اللوعة والحرقة :

ألا قل للتى سلبت فؤادى وأبقتنى أهيم بكل واد
تركت الصب ملتهبا حشاه حليف شجى يذوب بكل ناد
ومالى فى اللذائذ من نصيب تودع منه مسلوب الفؤد

وحينما يشتد هيامه وتستأسره اشواقه يعتريه قلق ويحفزه تمرد فيعاتب نفسه قائلا :

الام فؤادى بالحبيب هتور ؟ ونار الجوى بين الضلوع تثور
وحزنى مع الساعات يربومجددا وليلى طويل والمنام نفور
وحتىمتىأرعى النجوم مسامرا لها دموع العين ثم تفور

واذا تتبعنا غزل الامير وجدناه يستهدف منه بث شكواه وتصوير لواعجه المحرقة ازاء بعض نسائه ، وهذا النمط من الغزل هو المحمود لدى من يميلون الى الجانب الروحى فى

المرأة ولعل الذى طبع الامير على ذلك هو دراساته الادبية المتصوفة الذى يمثل هذا الاتجاه فى موضوع الغزل .

ونجد للامير مقطوعة جيدة فى الغزل انشأها بالآستانة سنة ١٢٧٢ هـ وفيها يصف أشواقه الى زوجه فى بروسة وهى تتسم بعاطفة صادقة ملتهبة ، وشكوى صارخة لبعده عنها ، وحرمانه من رؤيتها وفيها تودد الفارس وذلة العاشق ، وانة المحروم فى أسلوب سهل خفيف ونبرات روحية حزينة :

أقول لمحبوب تخلف من بعدى
عليلا بأوجاع الفراق وبالبعد

أما أنت حقا لو رأيت صبابتى
لهان عليك الامر من شدة الوجد

وقلت أرى المسكين عذبه الهوى
وأنحله حبقا الى منتهى الحد

وساءك ما قد نلت من شدة الجوى
فقلت وما للشوق يرميك بالجهد

وانى وحق الله دائم لوعة
ونار الجوى بين الجوانح فى وقد

غريق أسير السقم منكلم الحشى
حريق بنار الهجر والوجد والصد

ويتعجب الامير من سطوة الحب وانهزام شجاعته القوية أمامها :

ومن عجب صبرى لكل كريهة ... وحملى أثقالا تجل عن الحد
ولست أهاب البيض كلا ولاالقنا ... بيوم تصير الهام للبيض كالغمد
وقد هالنى بل أفاض مدامعى ... وافنى فؤادى بل تعدى عن الحد
فراق الذى أهواه كهلا ويافعا ... وقلبى خلى من سعاد ومن دعد

فخـره : يعتبر الفخر ضربا من المديح يخص الشاعر به نفسه او قبيلته التى يندرج فيها ، ويرتبط بها (١) وهو من أدل فنون الادب على فطرة الانسان ومن أبلغ الاساليب للكشف عن مكنونها وتوضيح خصائصها .

---

1) ابن رشيق : العمدة ـ القاهرة 1950 م ص 143

وقد طرق الامير هذا الموضوع فى كثير من قصائده واجاد فى بعضه بعض الاجادة ، وقد يمتزج فخرة بالحماسة فى ميدان الحرب فيتجلى عن فروسية قوية ، وشجاعة نادرة فى مدافعة جيوش الفرنسيين الاحتلالية ، وهو فى فخره يستمد من قريحته ويستقى من موهبته على انه مع ذلك كان يحاكى عنترة بن شداد فى قصائده الحماسية فيفتخر بمآتيه الحربية ويتودد بذلك الى زوجه أم البنين كما كان يتودد عنترة الى عبلة فيقول :

اذا ما لقيت الخيل انى لاول
وان جال أصحابى فانى لها تالى
ومن عادات السادات بالجيش تحتمى
وبى يحتمى جيشى وتحرس ابطالى
سلى الليل عنى كم سللت أديمه
على ضامر الجنبين معتدل عالى
وعنى سلى جيش الفرنسيس تعلمى
بأن مناياهم بسيفى وعسالى

ضروب الفخر عنده :

ان انواع الفخر عند الامير متعددة ومناحيه الفكرية فيه مختلفة فهو يفخر مرة بشجاعته فى الحرب ، ويطرى صبره على مصادمة الاعداء على كثرة جنودهم وقلة جنوده فيقول :

لنا فى كل مكبرمة مجال ومن فوق السماك لنا رجال
ركبنا للمكارم كل هول وخضنا ابحرا ولها زجال

ويفخر مرة أخرى بنسبه الشريف الذى كان يعتز به كثيرا فيقول :

أبونا رسول الله خير الورى طرا
فمن فى الورى يبغى يطاولنا قدرا
ولانا (١) غدا دينا وفرضا محتما
على كل ذى لب به يأمن الغدرا
وحسبى بهذا الفخر من كل منصب
وعن رتب تسمو وبيضاء أو صفرا(٢)

1) ولانا : يريد به ولاؤنا
2) ديوان الامير تصحيح الدكتور ممدوح حقى ص 14

وقد يفخر الامير باخلاقه الفاضلة وبعقله المتحرر الوثاب معتبرا ذلك كله فضيلة خصه الله بها ورفع ذكره على انداده فيقول :

لئن كان هذا الرسم يعطيك ظاهرى
فليس يريك الرسم صورتنا العظمى(٣)
فثم وراء الرسم شخص محجب
له همة تعلو باخمصها النجما
وما المرء بالوجه الصبيح افتخاره
ولكنه بالعقل والخلق الاسمى
واذا جمعت للمرء هذى وهذه
فذلك الذى لا يبتغى بعدها نعمى

ومن أحسن قصائده التى تصور فخره الحماسى قوله فى مقصورته وقد وصف فيها معركة خنق النطاح بينه وبين الفرنسيس فى ماى سنة ١٨٣٢ م ـ ذى الحجة سنة ١٢٤٧ هـ

توسد بمهد الامن قد مرت النوى
وزال لغوب السير من مشهد الثوى(٤)
وعز جيادا جاد بالنفس كرها
وقد أشرفت مما دعاها الى النوى (٥)
وكم جرت طلقا بنا فى غياهب
وخاضت بحار الآل(٦) من شدة الجوى(٧)
وكم من مفازات يضل بها القطا
قطعت بها والذئب من هولها عوى

ثم يفتخر بالتدين والمناقب الحميدة والنسب الشريف والعلم الواسع والشجاعة وغيرها فيقول :

ونحن لنا دين ودنيا تجمعا
ولا فخر الا ما لنا يرفع اللوا
مناقب مختارية قادرية
تسامت وعباسية مجدها احتوى

---

3) المصدر السابق ص 13
4) محمد بن الامير : تحفة الزائر ص 149 ـ واللغوب فى البيت هو التعب والثوى : الهلاك 5) النوى البعد والسفر 6) الآل : السراب
7) الجوى : شدة الحب

فان شئت علما تلقـــنى خير عالـم
وفى الروع أخبارى غدت توهن القوى

ثم يذكر خنق النطاح ويصف بطولته وبطـولة جنـوده الخارقة فيها فيقول :

ألم تر فى خنق النطـــاح نطاحـنا
غداة التقيـــناكم شجـــاع لها لـوى
وكم هامـــة ذاك النـــهار قددتـها
بحد حـــسامى والقناطعـنه شـــوى

وهكذا باقى ابيات القصيدة النفيسة . ونجد للامـير مقطوعات أخرى لطيفة فى موضوعات أخرى مختلفة كالمفاخرة بين الحاضرة والبادية ومراسلته لبعض اخوانه وغيرهما .

٤ ــ نثــره :

كان النثر الفنى فى هذا العصر منحـــطا فى أسلوبه وموضوعاته ، فكان السجع هو زينته وجماله وكانت موضوعاته منحصرة فى النثر الديوانى والنثر الادبى والرسائل الاخوانية وما اليها وقد نجد من الكتاب من كان متحررا من قيد السجع فى كتاباته الادبية أحيانا ومن هؤلاء الامير عبد القادر فقد كان يميل فى رسائله الى الترسل مع تبسيط العبارة حتى يكاد يصل أحيانا الى الاسلوب العامى ، ومن رسائله المتوسطة قوله فى رسالة بعث بها الى المارشال بيجو : « السـلام على من اتــبع الهــدى ، واجتــنب الردى ، أمــا بــعد فــقد بلغنى انكم جئتم من فرنسا الى الجزائر لقـتالنا بما يـنوف على ثمانـــين ألــف جنــدى (١) زيـــادة على عساكـركـم السابقة فيها فاعلموا أنى بعون الله تعالى وقوته لا أخشى كثرتكم ولا اعتبر قوتكم لعلمى أنكم لا تضروننى بشىء الا أن يضرنى الله به ، ولا يلحقنى منكم الا ما قدره الله على وقضاه وانا منذ أقامنى الله فى هذا الامـر ، وجعلنى ضـدا لكم ما قاتلتكم الا بعسكر يكون عدده ثلثا من عساكركم ومدة ملكى كما لا يخفى ثمان سنين ومدة ملككم تتعدى مئات السنين » .

---

(١) ديوان الامير ص 8

واذا انتقلنا الى أسلوب الامير فى مؤلفاته المشهورة كالمواقف ورسالة ذكرى العاقل والمقراض الحاد ، فاننا نجده قد يلتزم السجع غالبا مما فعل فى كتابه المواقف ، ولعل محاكاته لمحى الدين بن عربى وهو يسجع فى كتبه الصوفية هو الذى حمله على السجع ومن نماذج نثره فى المواقف قوله : هذه نفثات روحية والقاءات سبوحية بعلوم وهبية ، واسرار غيبية من وراء طور العقول وظواهر النقول خارجة عن أنواع الاكتساب والنظر فى كتاب ، قيدتها لاخوانى الذين يؤمنون بآياتنا • ومن نثره فى الموقف الاول قوله : لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة هذه الاية الكريمة تلقيتها تلقيا غيبيا روحانيا فان الله تعالى قد عودنى أنه مهما أراد ان يأمرنى أو ينهانى أو يبشرنى أو يحذرنى ، او يعلمنى علما او يفتينى فى أمر استفتيه فيه ، الا ويأخذنى منى مع بقاء الرسم ، ثم يلقى الى ما أراد باشارة آية كريمة من القرآن الكريم ثم يردنى الى فارجع بالآية قرير العين ، ملآن اليدين ••

واما نثره فى رسالته المقراض الحاد او ذكرى العاقل فهو نثر علمى أدبى لا يعنى فيه بسجع ولا غيره ، ولما كانت رسالة ذكرى العاقل ذات اهمية فكرية رأيت من الانسب تلخيصها وتحليلها •

ان رسالة ذكرى العاقل وتنبيه الغافل وهى فى مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة هى اسهام جليل من الامير عبد القادر فى الابحاث الفلسفية على عهده وقد أصدرها الامير فى عهد كانت فيه مباحث معاصريه من أعلام الفكر لا تخرج عن دائرة الابحاث الدينية والادبية وغيرها •

وقد قدم هذه الرسالة الى المجمع العلمى الفرنسى بعد أن انتهى من تأليفها فى ١٤ رمضان سنة ١٢٧١ هـ وقال فى مقدمتها : أما بعد فقد بلغنى ان العلماء فرنسا كتبوا اسمى فى دفتر العلماء ونظمونى فى سلك العظماء ، فاهتززت لذلك فرحا ، ثم أغتممت ترحا ، فرحت من حيث ستر الله على حتى نظر عباده بحسن الظن الى ، واغتممت من كون الله استسمنوا ذا ورم ، ونفخوا فى غير ضرم ثم أشار على بعض المحبين منهم بارسال بعض الرسائل اليهم فكتبت هذه العجالة للتشبه

بالعلماء الاعلام ، ورميت سهمى بين السهام وسميت هـذه الرسالة « ذكرى العاقل وتنبيه الغافل » .

فهذا هو السبب الذى حمل الامير على كتابة هذه الرسالة ولكن ما هى الاسباب التى دفعت الامـير الى اختيار هـذا الموضوع دون غيره من الموضوعات ، لعل اكبر سبب حمل الامير على اختيار هذا المجموع هو ميل الامـير الى مباحث الفلسفة التى درسها من خلال قراءته لكتب متصوفة العصر الموحدى وما بعده ، وقد زاد هذا الميل فيه احتكاكه ببعض العلماء الفرنسيين مدة اعتقاله بأمبواز ، واطلاعه على تقدمهم الفكرى والفلسفى وقد زاده ذلك اتساع فكر وتفتح ذهن . يقول فى رسالته « ذكرى العاقل » ثم اسفحل ملك فرنسا بعد القياصرة الاولين وكثرت عندهم العلوم الفلسفـية والمعارف وتنافسوا فى اكتساب الفضائل السامية فلم يبق لليونان والرومان ذكر فى هذا الزمان لا سيما فى عقد الستين بعد المائتين والالف (١٢٦٠ هـ) فقد جمعوا علوم الامم من العرب والعجم ، وتمم الله عليهم النعمة بسلطنة الملك الشهير العادل نابليون الثالث .

ويقول فى نص آخر : وقد اعتنى علماء فرنسا ومن حذا حذوهم باستعمال العقل العلـمى وتصريـفه فاستخرجـوا الصنائع العجيبة ، والفوائد الغريبة ، التى فاقوا بها المتقدمين واعجزوا المتأخرين فلو استعملوا مع هذا ـ العقل النظرى فى معرفة الله ومعرفة صفاته وحكمته فى خلق السماوات والارض وما يلزم للاله من الكمال .. لكانوا حـازوا المرتـبة الـتى لا تدرك ، والمزية التى لا تشرك ، ولكنهم أهملوا استعمال هذه القوة النظرية حتى انهم لا يسمع منهم لها ذكر ، ولا يعثر عليها فى كتبهم ناظر ..

ان رسالة الامير هذه هى قبسة فكر متخلف يحاول أن ينازل بها فكرا ناضجا بما امتصه من ابحاث الامام الغزالى وابن سينا وابن عربى وغيرهم وقد صاغها باسلوب واضح وبترتيب متناسق فكانت درة فى الادب النثرى بالجزائر فى القرن التاسع عشر الميلادى ترفع من انتاجنا الفكرى وتسبغ عليه هالة من الجلال ، وتستحق منا كل عناية واهتمام .

ـ ٥ تحليل رسالة ذكرى العاقل : (١)

ومن الطريف فى هذا البحث ان نتابع الامير فى جولته الفكرية من خلال ما كتبه فى هذه الرسالة لنصل بذلك الى بعض خصائصه الفكرية وقد حاولت ان أحصر ابحاث الرسالة فوجدتها تدور حول النقط التالية :

١) الدعوة الى أعمال العقل :

ذهب الامير فى مقدمة رسالته الى أن التقليد مذموم وان محاربته لازمة ، ودعا بقوة الى أعمال العقل وتحريره لان العقل هو القبس الالهى الذى يعين الانسان على السمو بشرف انسانيته الى المقامات السامية ، ويبعده عن قبول الخرافات وضروب الجمود التى تشله عن التحليق والتحرر .

٢) فائدة المنطق فى اكتساب العلوم :

وأثبت فى رسالته ايضا أن المنطق ضرورى للانسان فى الحياة وعده أهم مقياس تحتكم اليه العقول السليمة ، وأصح طريقة فى اكتساب العلوم بعد تصحيح المقدمات التى تنتج عنها النتيجة المطلوبة .

٣) فضل العلم والتعليم :

ثم يؤكد لنا الامير فضيلة العلم والتعليم فيثبت أن ميزة الانسان انما تتحقق بفضيلة العلم وان كمالها لا يتم الا بالمعرفة وان هذه الفضيلة هى الغاية التى يجد الباحثون فى سبيلها دون غيرها من الغايات المادية المفضولة .

٤) التوفيق بين الروح والمادة :

وتعرض الامير لمشكلة الانسجام بين الروح والمادة فنظر اليها نظرة اسلامية معتدلة تستلهم التوفيق بين الجانبين وقرر أن الانسجام النفسى وما ينتج عنه من سلوك أو اخلاق فى الحياة العلمية وفيما ينتظر الانسان من جزاء يوم الدينونة انما يتم بالتوفيق بين مطالب الروح ومطالب الجسد .

---

1) انظر مقتطفات من ذكرى العاقل وتنبيه الغافل ص 105 من هذا العدد

٥) العقل والفضيلة :

وبحث الامير فى العقل الانسانى فاثبت أن شرف الانسان لا يتم الا بالعقل ولكن هذا العقل فى حاجة الى عناية وتنمية وهذا ما يدعو بالضرورة الى العناية بتربية الناشىء وملاحظة نموه حتى ينضج عقله .

وأثبت أن فضيلة الانسان متوقفة على العقل والعدل والشجاعة وقوة العفة ، وفى هذا التقسيم أثربارز للاخلاق الافلاطونية التى تبناها الباحثون المسلمون .

٦) غاية الروح :

وذكر الامير فى مبحث غاية الروح الانسانية أن غاية الروح من جوارها للجسد هى كسب العلوم النافعة وممارسة الاعمال الصالحة، وأما الاستغراق فى المطالب النفسية الجسدية فهو تسفل مادى ممقوت ، أو محاكاة لحياة بدائية لا تجمل بمن كرم بالعقل وشرف بالتفكير .

٧) وسائل المعرفة :

ويرى الامير أن وسائل المعرفة هى الحواس وهى وسائل فعالة وذات أهمية للانسان فى حياته ومن أجل النعم الالهية عليه (وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تعقلون) ولكنها لا تستغنى عن ارشاد العقل وتوجيهه وهدايته وتقويمه

والعقل عنده كما عند الباحثين المسلمين قبله قسمان نظرى وعملى ، فبالنظرى يدرس الانسان مظاهر الوجود ويتوصل الى النتائج المنطقية المطلوبة وبالعقل العلمى يستنبط الصنائع ويسخر الطبيعة لخدمته وقد عجب الامير من تفوق المفكرين الفرنسيين فى استخدام العقول العلمية الابتكارية .

٨) العقل له حدود :

ويقول الامير فى الباب الثانى من رسالته : ان العقل لا يتوصل الى ادرك كل ما فى الوجود بل له تخوم يقف عندها ولا يتوصل الى استكناه ما وراءها الا بالاستعانة برسالات الرسل والانبياء واما الاستقلال بالعقل فى مباحث عالم الغيب أو وراء الطبيعة فهو غرور واندفاع أهوج .

٩) النبوة وحاجة البشر اليها :

ان النبوة حاجة ضرورية للبشر وان الاحكام التى يثبتها الانبياء لعالم الغيب هى نور للانسان وهداية لفكرة وان ما يشرعونه للانسانية فى الحياة الفردية او الاجتماعية هو ما تتطلبه العقول السليمة وان السعادة الحقة لا تحصل بالنظر وحده بل بالنظر والعمل معا ، وان ما تستبعده بعض العقول من الاحكام الشرعية انما تستبعده لقصورها وضعفها ولكنها اذا ارشدت الى الصواب اطمأنت وصدقت ٠

١٠) فضل الكتابة وتدريس العلوم :

بحث الامير فى الباب الثالث من رسالته فى فضل الكتابة وتدريس العلوم فى المجتمع البشرى فأثبت ان رقى الانسان وتقدمه انما كان نتيجة للكتابة والتدوين المتوالى ولولا ما تركه الاوائل لما كان تقدم الانسان الا ببطء شديد ٠

والامة التى كانت ذا عناية بالتدوين كانت اسبق من غيرها فى مجال الحضارة والتقدم الانسانى ، واما الاقوام البدائيون ممن كانوا يعيشون فى أمية وتخلف فان حياتهم كانت منحطة ولذلك لا يذكرون ان ذكروا الا فى مؤخرة الشعوب ولا يعتد بانتاجهم الفكرى ازاء غيره من انتاج المتحضرين ٠

١١) تحديد موضوع الديانات :

وحاول الامير فى آخر رسالته ان يلقى نظرة حول موضوع الديانات الالهية فقال : ان موضوع الديانات هو المباحث الخلقية والاجتماعية قبل كل شىء والديانة ان تعرضت لبعض القوانين الطبيعية او الفلكية او غيرهما فانما تذكرها عرضا ومن وجهة نظر خلقية كاتخاذها مظهرا لعظمة الاله او الفات النظر بها الى بديع صنعها وعظمة تكوينها لتزيد نفوس المؤمنين ايمانا بجلال مبدعها ٠

ثم قال الامير اذا وضع هذا فينبغى لرجال الدين فى كل مكان ان يفسحوا مجال البحث لعلماء الطبيعة والفلك ليواصلوا ابحاثهم اقرارا ويزودونا بنتائج بحثهم التى ان لم يؤيدها

الدين فهو لا يعارضها لان موضوعه غير موضوعها ولان وجهة بحثه لبعض مظاهر الطبيعة غير وجهة بحثها واذا وقف احد رجال الدين فى وجه العلماء الباحثين — ويعنى بهم المسحيين الذين قرأ عن معارضاتهم لابحاث العلماء — بدعوى أن ما وصل اليه هذا العالم او ذاك مناف للدين ولم يرد فى التوراة أو الانجيل او القرآن فهو جاهل لموضوع دينه ، وغير عارف لما تستهدفه أسسه من هداية البشر فى موضوع العقيدة والاخلاق وهو بالتالى من اكبر الجناة على الدين وفى ذلك اضرار وأى اضرار به وبمبادئه الحقه وابراز له فى صورة عقيدة غير مرنة لا تصلح لكل زمان ومكان •

وبهذه النظرة العميقة الى موضوع الدين وموضوع العلم ينهى الامير رسالته اللطيفة القيمة •

وعلى الرغم من أن اكثر مباحث هذه الرسالة مطروق فان أكبر فضل يستحقه الامير هو جمال التنسيق ، وحسن ترتيب هذه المباحث المتشعبة ، والنظرات الواعية المتحررة التى تنتظمها من أولها الى آخرها ، وكفاه ذلك فخرا وألمعية •

وقد عاش الامير بعد تأليف هذه الرسالة مدة بدمشق معتكفا على دراسة العلوم الدينية والمباحث الصوفية ومساجلات الادباء الى أن توفى سنة ١٨٨٣ هـ •

رحمه الله رحمة واسعة ؟

عبد الرحمن الثعالبي

رابح بونار

لقد ازدانت مدينة الجزائر في القرن التاسع الهجري بنبوغ أحد أبنائها الذين حفظ التاريخ ذكرهم ، ورفع مجدهم وهو عبد الرحمن الثعالبي دفين الجزائر ، ولم ينبغ فيها قبلــه أو في عصره من يساويه في درجته العلمية ، وفي انتاجه الغزير ، الذي تركه في مختلف الموضوعات التي طرقها ، وقد عني مؤلفو التراجم بالحديث عن الثعالبي ، وعن كتبه وذكروا عــددا وافرا منها يتصل بالتفسير والحديث ، والفقه والوعــظ ، ولكنهم لم يذكروا له كتابا في التراجم هــو كتــاب الفقهــاء المالكيين ، وقد هدانا البحث في مخطــوط المكتــبة الوطنيــة بالجزائر الى العثور على هذا الكتاب الطريف ضمن قســم آخر منه في الوعظ والتذكير ، وهو ما سنخصه بتحليل موجز في الكلمة بعد أن نذكر نبذة عن ترجمة مؤلفه امام الثعالبي ، وعن عصره ، ليكون الموضوع واضح المعالم ، مترابط الاطراف ، مكتمل الصورة .

العنوان الاصلي للمقال (عبد الرحمن الثعالبي) دفين الجزائر المتوفى سنة ٨٧٥ هـ وكتابه (طبقات فقهاء المالكيين) .

* وأطلقنا اسم « طبقات الفقهــاء المالكيين » للامام الثعــالبي على كتاب له في التراجم والوعظ ، اعتمادا على ما ذكره فانيان في فهرسه ، وقد يكون للكتاب اسم آخر لم نهتد بعد الى معرفته ، خصوصا والكتاب مبتور الاول ، وهذا ما نحاول استدراكه عند تحقيق الكتاب وتقديمه للطبع . ان شاء الله .

ان عصر عبد الرحمن الثعالبى بالقرن التاسع الهجرى قد حفل بطائفة كبيرة من أعلام الفقه والتصوف والادب فى تلمسان وبجاية وقسنطينة والجزائر وغيرها .

فنبغ فى تلمسان العلامة محمد بن مرزوق الحفيد المتوفى سنة ٨٤٢ هـ وصاحب التأليف المتعددة (١) والامام قاسم بن سعيد بن محمد العقابى المتوفى سنة ٨٣٧ هـ (٢) والمتكلم الصوفى المنطقى محمد بن يوسف السنوسى المتوفى سنة ٨٨٥ هـ (٣) والامام الفاضل أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الشهير بابن زاغو المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (٤) والامام ابراهيم بن قاسم بن سعيد العقبانى المتوفى سنة ٨٨٠ هـ (٥) والعلامة محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقبانى المتوفى سنة ٨٧١ هـ (٦) والامام الحافظ المؤرخ الاديب محمد بن عبد الجليل التنسى المتوفى سنة ٨٩٩ هـ (٧) والعالم الحافظ الاصولى أحمد بن زكرى المتوفى سنة ٨٩٩ هـ (٨) والامام العلامة محمد بن عبد الكريم المغيلى المتوفى سنة ٩٠٩ هـ (٩) والعالم الصوفى الكبير الحسن بن مخلوف ابركان المتوفى سنة ٨٥٧ هـ (١٠) والعالم الرياضى الحباك أحمد بن سعيد المتوفى سنة ٨٧٠ هـ (١١) ونبغ فى مدينة وهران :

الشيخ الصوفى الكبير محمد بن عمر الهوارى المتوفى سنة ٨٤٣ هـ(١٢) والشيخ الصوفى ابراهيم بن محمد التازى المتوفى سنة ٨٦٦ هـ (١٣)

ونبغ فى مدينة بجاية جماعة كبيرة من الاعلام منهم : ابو الفضل محمد بن محمد المشذالى المتوفى سنة ٨٦٥ هـ (١٤) والامام محمد بن أبى القاسم بن محمد بن عبد الصمد المشذالى المتوفى سنة ٨٦٦ هـ (١٥) والشيخ سليمان بن يوسف الحسناوى البجائى المتوفى سنة ٨٨٧ هـ (١٦) والامام ابو مهدى عيسى بن أحمد الغبرينى البجائى قاضى الجماعة بتونس المتوفى سنة ٨١٥ هـ (١٧) ، والامام أحمد بن أحمد الغبرينى أبو القاسم المتوفى

سنة ٧٧٠ هـ (١٨)

ونبع فى مدينة قسنطينة :

الاديب الشاعر شهاب الدين أحمد القسنطينى المتوفى سنة ٨٩٨ هـ (١٩) .

والامام محمد بن مبارك القسنطينى المتوفى سنة ٨٦٨ هـ (٢٠)
والاديب الشاعر أحمد الخلوف صاحب المدائح النبوية المتوفى سنة ٨٩٩ هـ (٢١) .

ونبغ فى مدينة الجزائر الاديب الكاتب الشاعر محمد بن عبد الحليم التجيبى المتوفى سنة ٨٥٣ هـ (٢٢)

والاديب المتكلم الشاعر أحمد بن عبد الله الجزائرى صاحب اللامية المتوفى سنة ٨٨٤ هـ ٢٣ والامام العلامة الفقيه المحدث الواعظ عبد الرحمن الثعالبى المتوفى سنة ٨٧٥ هـ (٢٤)

ترجمة الامام الثعالبى

الامام الثعالبى هو عبد الرحمن بن عمر بن مخلوف الجزائرى ويكنى بأبى زيد ، وينتسب الى قبيلة الثعالبة التى انتشرت بطونها فى القرن الثامن والتاسع بمتيجة ويسر .

وقبيلته الثعالبة يرتفع نسبها الى قبيلة المعاقل العربية الهلالية ، وأما المترجم فهناك من يرفع نسبه الى جعفر بن أبى طالب .

وقد ولد الامام الثعالبى بناحية وادى يسر شرقى مدينة الجزائر على بعد نحو ٧٠ كلم سنة ٧٨٦ هـ وفى رواية أخرى أنه ولد بها سنة ٧٨٥ هـ ، ودرس ببلده ، ثم رحل من هناك الى المشرق لطلب العلم سنة ٨٠٢ هـ

وعمره نحو ١٧ سنة ودخل بجاية ، وأخذ فيها عن شيوخها من تلامـــــذة الامامين : عبد الرحمن الوغليسى ، وأحمد بن ادريس ، كأمثال أبى الحسن على بن عثمان المانجلاتى ، وأبى الربيع سليمان بن الحسن ، وأبى الحسن على بن محمد البليلتى ، وعلى بن موسى وأبى العباس النقاوسى وغيرهم ، وحضـــر مجالسهم العلمية واستفاد منهم .

ثم ارتحل من هناك الى تونس سنة ٨٠٩ هـ وأخذ فيها عن تلاميذ ابن عرفة كالشيخ أبى مهدى عيسى الغبرينى ، وأبى عبد الله الابى ، وأبـــــى القاسم البرزلى وأبى يوسف يعقوب الزغبى وغيرهم

وكانت عمدته فى دراسته بتونس على هؤلاء الشيوخ وخصوصا الابى منهـــــم .

ثم رحل الى المشرق وأخذ بمصر عن البلالى والبساطى وولى الدين العراقى شيخ المحدثين ، وانتفع بهذا الاخير كثيرا .

وعاد بعدها الى تونس ، وأخذ فيها عن الامام القلشانى خلف الغبرينى وعن الشيخ الفقيه البرزلى وكانت عودته الى تونس عودة عالم محصل ، وقد استطاع أن يبدى تفوقه على علماء جامع الزيتونة فى علم الحديث ، وقـــد حدثنا عن ذلك فيما كتبه فى آخر كتـــابه « طبقات الفقهـــاء المالكيين » ، أنه « لم يكن بتونس يومئذ من يفوقنى فى علـــم الحديث ، اذا تكلمت أنصتوا ، وقبلوا ما أرويه انصافا منهم ، واعترافا بالحق » (٢٥)

وقال أيضا متحدثا عما وقع لـــه بتونس فقال : كـــان بعض فضـــلاء المغاربة يقول لى لما قدمت من المشرق كنت آية فى علم الحديث ، وحضرت مجلس شيخنا الابى ، وأجازنى ثم قدم تونس شيخنا ابن مرزوق عام ٨١٩ هـ وأقام بها نحو سنة أخذت عنها فيها كثيرا ، وسمعت عليه الموطأ بقـــراءة

الفقيه أبى حفص عمر القلشانى ... وأجازنىوأذن لى هو والابى فى الاقراء وأخذت عن غيرهم .

عودة الثعالبى الى الجزائر : وعاد الثعالبى الى بلاده بعد غيبة طويلة حوالى سنة ٨٢٠ هـ أو بعدها بقليل ، وبعد مرور نحو ٢٠ سنة فى الدراسة وطلب العلم وكان فى عمره نحو ٣٥ سنة .

ولم يطب المقام للشيخ فى بلاده يسر ، فانتقل الى مدينة الجزائر ، واستقربها للتدريس والتعليم بالجامع الاعظم ، وتولى خطابة الجمعة فيه .

وأسند اليه منصب القضاء فامتنع منه أولا ثم اضطر الى قبوله أخيرا[1] ، وقام بهذا المنصب خير قيام ، وحقق العدالة وأرضى الشريعة .

وواصل الامام الثعالبى نشاطه الدينى الى أن توفاه الله يوم الجمعة فى ٢٣ رمضان سنة ٨٧٥ هـ ودفن بضريحه المعروف باسمه بمدينة الجزائر .

مؤلفاته : نبغ الثعالبى فى العلوم الدينية والدراسات الاسلامية التى كان لها أمتياز فى عصره وهى علوم الحديث والتفسير والوعظ والتصوف والفقه والتراجم .

وترك مؤلفات كثيرة فيها تدل على غزارة علمه ، وسعة اطلاعه ، وتنبىء عن شغفه الكثير بالتدوين والتأليف ، ومن أشهر هذه المؤلفات التى ذكرها أصحاب التراجم له :

١ ــ تفسير القرآن الكريم ((الجواهر الحسان)) وقد اختصر فيه تفسير ابن عطية الاندلسى مع زوائد وفوائد أضافها اليه .

٢ ــ روضة الانوار ونزهة الاخبار فى الفقه وغيره وقد ألفه فى سنوات ولخصه من ٦٠ كتابا ، ويقال عنه أنه خزانة كتب لمن حصله .

٣ ــ وكتاب الانوار فى معجزات النبى المختار

٤ ــ والانوار المضيئة الجامع بين الشريعة والحقيقة فى التصوف .

٥ ــ ورياض الصالحين فى الوعـــظ .

٦ ــ وكتاب التقاط الدرر

٧ ــ والدر الفائق فى الاذكار والدعوات .

٨ ــ والعلوم الفاخرة ، فى أحوال الاخرة .

٩ ــ وشرح ابن الحاجب الفرعى فى الفقه فى جزئين جمع فيه مختار كلام ابن راشد القفصى ، وابن هارون وخليل اسحاق ، وغرر ابن عرفـــة مـــع جواهر المدونـــة .

١٠ ــ المختار من الجوامع فى محاذاة الدرر اللوامع

١١ ــ والذهب الابريز فى غرائب القرآن العزيز .

١٢ ــ وجامع الفـــوائد .

١٣ ــ وجامع الامهات فى أحكام العبادات .

١٤ ــ وتحفه الاخوان ، فى اعراب بعض آى القرآن

١٥ ــ والارشاد الى معالم العباد .

١٦ ــ وارشاد السالك فى جزء صغير

١٧ ــ والاربعون حديثا مختارة

١٨ ــ وكتاب النصـــائح .

١٩ ــ والمـــــرائـــى .

٢٠ ــ والفهـــــرس .

٢١ ــ وكتاب طبقات الفقهاء المالكيين .

وكتاب الفهرس كما يقول الكتانى ــ سماه غنيمة الواجد وبغية الطالب الماجد (٢٦) وذكر فيه مصنفات الحديث التى اتصلت به ، وبعض اسانيدها وأسماء مؤلفاته ، وسند روايته فيه عن الحافظ العراقى والغريانى وابـــن مرزوق الحفيد وابن القرشية وغيرهم

وهذا الكتاب لم نجده بهذا الاسم فى كتب التراجم وانما وجدناه كذلك فى فهرس المخطوطات لفانيان ضمن قسم آخر فى الوعظ والتذكير .

وقد أشتبه علينا بكتاب الفهرس للمترجم له ، وخيل الينا أن كتاب الطبقات قد يكون هو كتاب الفهرس نفسه ، ولكننا عندما قابلنا أسلوبه بأسلوب الفهرس ، وجدنا بينهما خلافا فى الترتيب والمنهج ، فأدركنا عندئذ أن كتاب الطبقات هو كتاب آخر وسنتابع هذا التحقيق أثناء تصحيح الكتاب والتعليق عليه .

تحليل كتاب طبقات الفقهاء المالكيين : ان كتاب طبقات الفقهاء المالكيين للثعالبى هو كتاب نفيس فى موضوعه لا يستغنى عنه كل دارس للحركة العلمية فى العصر الوسيط بالمغرب العربى عامة .

وهذا الكتاب يحمل رقم ٨٥١ من فهرس المخطوطات العربية ، وأوراقه ٢٠٦ ، وسطوره ٢٤ سطرا ومقياسه ١٤٩ / ٢٠١

وهو يشمل قسمين : الاول فى التراجم وهو مبتور الاول ، وينتهى بالورقة ٤٦ ، والقسم الثانى وهو يختص بالوعظ والتذكير ، ويبتدىء من الورقة ٤٧ وينتهى بالورقة ٢٠٥

والقسم الاول المبتور لاندرى عدد الورقات التى بثرت منه ، وقد تكون كثيرة لان الباقى منه يبتدىء بترجمة الحارث بن مسكين ، وسحنون ، وهما من علماء القرن الثالث الهجرى ، وقد سبقهما كثير من فقهاء المالكية بافريقية « تونس » ومصر والمدينة والاندلس ، ولذلك فلابد أن يكون المبتور من هذه التراجم كثيرا .

وأما الباقى منها فقد تناول بالترجمة علماء القرن الثالث والرابع والخامس وبعض علماء السادس وأغفل تراجم علماء القرون : السابع

والثامن والتاسع ، ما عدا الامام ابن عرفة من علماء هذا القرن الاخير فانه قد خصه بترجمة متوسطة لانه كان شيخ شيوخه .

ثم ختم هذا القسم بذكر رحلته فى طلب العلم وقد انطلق فيها من بلده « يسر » سنة ٨٠٢ هـ ومر ببجاية ، وأقام لها مدة سنوات أخذ فيها عن علمائها ، ثم ارتحل منها الى تونس ، وأقام بها مدة للدراسة والتحصيل ، ثم سار منها الى مصر ودرس بها مدة سنوات .

وعاد منها الى المغرب بعد أن أتم دراسته وأكمل تحصيله ، ومر بتونس ، وأخذ عن شيوخها وأفادهم ، وتحصل على اجازات علمية من شيوخها الاعلام ، ومن شيخ تلمسان العلامة ابن مرزوق الحفيد الذى مر بها ، وأقام بها نحو سنة . والرحلة تطلعنا على الحركة العلمية فى أول القرن التاسع الهجرى ، وعى نشاط العلماء فى طلب العلم ، والتنافس فى لقاء الشيوخ ، والاخذ عنهم ، والحصول على اجازاتهم العلمية .

القسم الثانى من الكتاب :

والقسم الثانى منه خاص بالوعظ والتذكير ، وهو يبتدىء من الورقة ٤٧ وينتهى بالورقة ٢٠٥ كما ذكرنا ، وهو كتاب عادى مثل كتبه الاخرى فى الوعظ .

وقد فرغ الثعالبى من تأليفه كتابه هذا فى أواخر المحرم سنة ٨٤٧ هـ ، وعمره يومئذ نحو ٦٠ سنة أو احدى وستون سنة .

ويمتاز الثعالبى فى هذا الكتاب وغيره باشاراته التاريخية الهامة التى تعين القارىء والباحث على الاستفادة من كتابه ، وعلى تمكينه من معرفة السنة التى كتب فيها ، وعمر الكاتب اثناء تأليفه لكتابه ، وقد علل الثعالبى ذلك بقوله :

ينبغى لمن ألف أن يعـرف بزمانه . وبمن لقيه من أشياخه ليكـون
من يقف على تأليفه على بصيرة من أمره ، ويسلم من الجهل به ، وقد قـل
الاعتناء بهذا المعنى فى هذا الزمان ، وكم فاضل انتشرت عنه فضائل ، جهل
حالة بعد موته لعدم الاعتناء بهذا الشأن ... »

ونذكر هنا كنموذج لتراجم الثعالبى فى كتابه الطبقات ترجمـة ابـن
رشد الجد التى تقع فى الورقة ٣٢ من المخطوط .

أبن رشـد :

هو محمد بن أحمد بن رشد ، يكنى أبا الوليد ، قرطبى زعيم فقهاء وقته
بأقطار الاندلس والمغرب ، ومقدمهم المعترف له بصحة النظـر ، وجـودة
التأليف ، ودقة الفقه ، وكان اليه المفزع فى المشكلات . له تآليف فى فنون ، من
العلم مختلفة . كان كثير الحياء ، قليل الكلام ، ذا سمت حسن ، نزيها عظيم
المنزلة ، معتمدا فى العظائم ، ولى قضاء الجماعة بقرطبة سنة ٥١١ هـ ، ثم
استعفى منه سنة ٥١٥ هـ اثر الهيج الكائن بها من العامة فأعفـى وراد
جلالة ومنزلة ، واليه كانت الرحلة حياته من أقطار الاندلس ، وتفقه بأبى جعفر
بن رزق، وعليه أعتمد، وبنظرائه من فقهاء بلده . أخذ عند القاضى أبو الفضل
عياض رحمه الله قال فى الغنية له جالسته كثيرا وساءلته واستفدت منه .
توفى أبو الوليد رحمه الله ليلة الاحد ودفن عشية أحد عشر لذى القعدة سنة
٥٢٠ هـ وشهده جمع عظيم من الناس ، وكان الثناء عليه حسنا جميـلا .
قلت وفضل ابن رشد معلوم تشهد له تصانيفه كما قيل تعرف عقول الرجال
فى تصاريفهم وتصانيفهم ومولده فى شوال سنة ٤٤٥ هـ .

وختاما فان « لجنة البحث ، ودراسة المخطوطات » بالمكتبة الوطنية ،
وتحت اشراف وزارة الاعلام والثقافة ، قد عزمت بحول الله وعونه — على
تحقيق هذا الكتاب النفيس وتمكين القراء منه ستفيدوا منه الاطلاع على فـن
من فنون الادب وهو فن السير والتراجم .

كما هدفت اللجنة بتحقيقها للكتاب الى أن ساهم فى اثـــراء المكتبـــة الجزائرى بهذا الاثر الفكرى الجليل الذى تنوى ــ بجد ــ أن تتبعه بتحقيق مخطوطات أخرى نفيسة لتساعد بذلك على ابراز شخصيتنا الفكرية الاصيلة التى تجلت عبقريتها فى مختلف العصور ، وفى مختلف الموضوعات العلميـــة والادبيـــة .

---

(١) راجع أحمد بابا التنبكتى : نيل الابتهاج ص ٢٩٣ ــ وابن مريم : البستان ص ٢٠١ .

(٢) نيل الابتهاج ص ٢٢٣ .

(٣) نيل الابتهاج ص ٣٢٥ .

(٤) المرجع السابق ص ٧٨ .

(٥) المرجع السابق ص ٥٧ .

(٦) نيل الابتهاج ص ٣١٨ .

(٧) المرجع السابق ص ٣٢٩ .

(٨) نيل الابتهاج ص ٨٤ .

(٩) المرجع السابق ص ٣٣٠ .

(١٠) المرجع السابق ص ١٠٩ .

(١١) المرجع السابق ص ٨١ .

(١٢) المرجع السابق ص ٣٠٣ .

(١٣) المرجع السابق ص ٣٠٣ ــ تعريف الخلف للحفناوى ج ٢ ص ٧ .

(١٤) نيل الابتهاج ص ٣١٥ .

(١٥) المرجع السابق ص ٣١٤ .

(١٦) المرجع السابق ص ١٢١ .

(١٧) ابن مخلوف : شجرة النور الزكية ج ٢ ص ٢٤٨ .

(١٨) نيل الابتهاج ص ٧٣ .

(١٩) كحالة عمر رضا : معجم المؤلفين ج ٢ ص ٥١ .

(٢٠) نيل الابتهاج ص ٣١٨ .

(٢١) معجم المؤلفين لرضا كحالة ج ٢ ص ١١٨ .

(٢٢) نيل الابتهاج ص ٣٠٩ .

(٢٣) نيل الابتهاج ص ٨٢ — ٨٣ .

(٢٤) نيل الابتهاج ص ١٧٣ — معجم المؤلفين ج ٥ ص ١٩٢ — فهرس الفهارس للكتانى ج ٧ ص ١٣٣ — كشف الظنون لحاجى خليفة ص ١١٦٣ هدية العرفين للبغدادى ج ١ ص ٥٣٢ — ٥٣٣ .

(٢٥) كتاب طبقات الفقهاء المالكيين الورقة ٤٤ — نيل الابتهاج ص ١٧٣ .

(٢٦) فهرس الفهارس ج ٢ ص ١٣١ — ١٣٢ .

أبوبكر محمد بن داوود

كاتب يغمراسن بن زيان

بتلمسان

رابح بونار

تمهيـــد : اننا نلاحظ عند دراستنا لتاريخ نشأة الدولة الزيانيـة على يـد مؤسسها يغمـراسن بن زيان سنة 633 هـ ولتاريخ الدول الاخرى التى انفصلت مثلهـا عن الامبراطورية المـوحدية كالدولة المرينيـة بفاس سنة 668 هـ والدولة الحفصيـة بتـونس سنة 626 هـ والـدولة النصـرية بالانـدلس سنة 626 هـ ، انهـا دول خلفـت الامبراطورية الموحدية فى أنظمتها الادارية وفى تراتيبها الحربية ونشاطها الاقتصادى، وحاولت أن تسبقها فى مجـال العنـاية بالحـركة العلميـة وتشجيـع أعـلامها فى كل فن ، وقد سعت بعض هذه الدول لتخلفها فى اتساع رقعتهـا وضخامة ملكها .

ولما قامت الدولة الزيانية انبرى يغمراســن مؤسسها على قرب عهده بالحياة البدوية الساذجة الى اقامة دولته الفتية على أسس حضارية يتطلبها عصره ، فاهتم بتنظيم ادارته على غرار ما كانت عليه الادارة الموحدية بتلمسان ، وأنشأ قـــوة عسكرية متألفة من قبيلة بنى عبد الواد وغيرهم ليتقى بها الاخطار التى كانت تحدق به من قبـل بنى مرين بفاس غربا ، وبالحفصيين بتونس شرقا وليدافع بها القبائل الاعرابية والبربرية المناوئـة له داخل رقعة دولته .

ثم ابتكر سياسة مرنة ترتكز على الولاء لأواخر خلفاء الموحدين بمراكش ولامراء بنى نصـــر بالاندلس ليدعم بذلك مركز حكمه ، وعلى العداء لبنى مرين الذين كانوا يحاولون القضاء عـــلى دولته ليوسعوا بذلك رقعة دولتهم ويخلفـــوا الموحدين فى أمبراطوريتهم .

وكان يتظاهر بالولاء للحفصيين ـ تقية منه ـ ما كانوا أقوياء وعند ما ضعفوا أخذ هو وخلفاؤه يوسعون رقعة دولتهم على حسابهم فى قسنطينة وبجاية ، وهكذا تتجلى لنا سياسة يغمراسن فى

مساعيه الجادة لتدعيم أركان دولته مرنة حكيمة قد تكللت بالنجاح ، وتتوجت بالانتصار ، رغم ما كان يتهددها من أخطار في الداخل والخارج

تشجيعه للحركة العلمية :

ولم يقتصر نشاط يغمراسن على العناية بالناحية السياسية والحربية والادارية وحدها بل انصب نشاطه أيضا على العناية بتشجيع الحركة العلمية والادبية وعلى تزيين بلاطه بالعلماء والادباء منافسا بذلك غيره من أمراء عصره ·

فدعا اليه أبا اسحاق التنسي وكان من أكابر العلماء بعصره وألح عليه حتى غادر موطنه ووفد عليه بتلمسان وانتصب للتدريس بجامعها الاعظم ثم أغدق عليه يغمراسن كل انعام · (1)

ووفد عليه أبو بكر محمد بن خطاب من الاندلس لما بلغه عنه من تشجيع للعلم وأهله فرحب به ، «وأحله المحل الرفيع من دولته» (2) وأكرم أبا عبد الله محمد بن محمد بن مرزوق من علماء تلمسان واجله وأوصى أن يدفن بازائه من الجامع الاعظم بتلمسان (3) ، كما أكرم غير هؤلاء من علماء تلمسان أو الوافدين عليها ·

وقد كانت العناية بتشجيع الحركة العلمية ظاهرة عامة للدول التى خلفت الامبراطورية الموحدية ، وكان التنافس بينها على هذا التشجيع قائما أشده وقد استأثر الحفصيون بالنصيب الاوفر منه فى القرن السابع الهجرى ، وحاول المستنصر من خلفائهم أن يستأثر بأبى بكر بن خطاب لما وفد على تلمسان وكاتبه فى ذلك وبعث اليه بهدية مغرية فرد الهدية وآثر الاقامة تحت كنف الدولة الزيانية ·

ان الازدهار العلمى الذى نشاهد آثاره فى القرن السابع الهجرى بالمغرب عامة تعود بعض أسبابه الى هذا التنافس الذى كان يقع بين الملوك حول استقدام العلماء الى بلاطهم واغداق ضروب الانعام عليهم ، والى تدهور الوضع السياسى والاجتماعى بالاندلس الذى حفز كثيرا من رجال الفكر على الهجرة الى اقطار المغرب طلبا للامن والحياة الرضية ·

وقد كانت هجرة أبى بكر بن خطاب الى تلمسان مبعث حياة أدبية ملحوظة كما كانت هجرة ابن الابار وابن عميرة وحازم القرطاجنى منطلق ازدهار أدبى لامع فى تونس ، ويهمنا هنا أن نذكر نبذة من ترجمة أبى بكر بن خطاب وما تركه من آثار فكرية فى الجو الادبى بتلمسان ·

لمحة عن حياته ونشأته :

أبو بكر بن خطاب هو محمد بن عبيد الله (4) بن داوود بن خطاب المرسى ، ولا نعلم عن نشأته الا انه ينسب الى مرسية ، وانه كان على حد تعبير ابن الخطيب «شكس الاخلاق متقاطبا زاهيا بنفسه» (5) ·

شيوخه :

وذكر ابن الخطيب جملة من الشيوخ أخذ عنهم أبو بكر وانتفع بعلمهم فروى عن القاضيين أبى عيسى بن أبى السداد ، وابى بكر بن محرز وأبى بكر محمد القرشى وغيرهم (6) ويضيف يحيى بن خلدون والعبدرى الى هؤلاء الشيوخ جماعة أخرى منهم «أبو بكر بن جهور ، وابو بكر الغافقى ، وابو الحسين بن عبد الرحمن الرفاء ، وابو عيسى محمد بن محمد بن أبى السداد ، وأبو المطرف بن عميرة وغيرهم» (7) ·

---

(1) الحافظ التنسى : محمد بن عبد الجليل : الدر والعقيان مخطوط مج 1 ص 139
ابن مريم : البستانى ط الجزائر سنة 1908 م ص 67

(2) ابن الخطيب : الاحاطة فى اخبار غرناطة مج 2 ص 275
ابن خلدون يحيى : بغية الرواد ط الجزائر سنة 1903 ج 1 ص 48

(3) المصدر السابق ج 1 ص 48

(4) وفى بغية الرواد ج 1 ص 48 ورد اسمه عبد الله بدون تصغير ووافقه عليه ابن مريم فى البستان ص 227

(5) الاحاطة ج 2 ص 275 — (6) المصدر السابق ج 2 ص 276

(7) العبدرى : الرحلة المغربية تحقيق احمد بن جدو ص 16 — بغية الرواد ج 2 ص 48

ارتحـــاله الى تلمســـان :

التجأ أبو بكر بن خطاب الى تلمسان فى صحبة ابن وضاح والجالية الاندلسية التى آثرت الوفادة عليها وأشار الى ذلك ابن خلدون فقال : «ووفـد عليه (أى يغمراسن) لاول دولته ابن وضاح اثـر دولة الموحدين ، أجاز البحر مع جالية المسلمين من شرق الاندلس فآثره وقرب مجلسه وأكرم نزله وأحله من الخلة والشورى بمكان اصطفاه لـه، ووفد فى جملته أبو بكر بن خطاب المبايع لاخيه بمرسية» (8) . ويبدو أن ورود أبى بكر بن خطاب على تلمسان انما كان على اثر الفتنة التى وقعت بمرسية وأشار اليها ابن الخطيب بقولـه : «انه رجع الى مرسية وقد ساءت أحوالها فأقام بها مدة ثم انفصل عنها واستقر بالعدوة بعد مكابدة» (9) وابن خلدون يذكر انه بايع أخاه بمرسية (10) ، ولم تساعده القلاقل التى كانت تهانيها مرسيـة على المقام بها فارتحل عنها الى المغرب وتقلب فى أنحائه وكان ارتحاله فى تاريخ غير معروف ، وقد يكون قبل سنة 661 هـ بقليل ، ويؤيد ذلك ما جاء فى احدى رسائله التى كتبها عن أميره يغمراسن بعد التحاقه به لتهنئة المستنصر بانتصاره عـلى ابن عمه أبى القاسم بن أبى زيد بقسنطينة وجاء فيها : «وصل الى العبد كتاب مولاه ... يعرفـه بأنه توجه الى قسنطينة فى هذه الايام الفارطـة قاصدا معالجة دائها بما أعد الله له من دوائها(11)

وفـــاتـــه :

اذا كان تاريخ ميلاد أبى بكر غير معروف فان تاريخ وفاته يكتنفه غموض وقد اختلف مترجموه فى ذلك فذهب يحيى بن خلدون : «الى أنه توفى يوم عاشوراء سنة 636 هـ (12) ووافقه ابن مريـم فى بستانه (13) على هذه الرواية وهى لا شـك تصحيف واضح من النساخ ، وذهب ابن الخطيب فى احاطته (14) الى أنه توفى بتلمسان يوم عاشوراء بعد الثمانين وستمائة وهو قريب من الصـواب رغم ما فيه من عموم وعدم تحديد ، على أن الاصوب أن نقول فى تاريخ وفاته أنه توفى بعد سنة 681هـ لانه كان حيا فى هذه السنة وقد كتب فيهـــا رسائل ، ومن ذلك ما كتبه عن أميره أبى سعيد ابن يغمراسن وقد تولى الامارة سنة 681 هـ بعـد موت أبيه جوابا عن تعزية الامير النصرى بالاندلس وجاء فيها : «عن الامير عثمان بن الامير أبى يحيى يغمراسن بن زيان ، سلام كريم عليكم ورحمة الله تعالى ... وبعد حمد الله مقدر الآجال ، المحمود على جميع الاحوال ...» (15) وكذلك رسالتـه التى عزى بها أميره أبا سعيد عثمان عن أبيـــه يغمراسن وجاء فيها «مولاى السلطان أبو سعيد أدام الله مدة حياته ، وعرفه من التأييد ما يتكفل لامره بالتأييد» (16) وهكذا يتضح لنا أنه توفى بعد سنة 681 هـ جزما وبقى تحديد سنة وفاتـه بالضبط وهو متعسر ، ولكن يمكن أن نحصر هذه السنة بما بعد سنة 681 هـ وما قبل سنة 688 هـ وفى هذه السنة الاخيرة مر العبدرى بتلمســـان ووجد أبا بكر قد توفى وسأل عنه تلميـذه ابن خميس وروى عنه بعض شعره .

منـزلته فى الشعــــر :

بلغ أبو بكر بن خطاب منزلة سامية فى الشعر كما يذكر مترجموه ولكن ضآلة ما عثرنا عليه مـــن مقطوعاته الشعرية لا يساعدنا على تحليله ولاالحكم عليه وانما نكتفى بما ذكره مترجموه عنه «وهم قد أجمعوا على الاعجاب بشعره ونثره ، فابن الخطيب يقول عنه نقلا عن صلة بن الزبير «أن ابا بكر بن خطاب كان كاتبا بارعا ، وشاعرا مجيدا مشاركا فى أصول الفقه وعلم الكلام وغيرهما» .

---

(8) ابن خلدون عبد الرحمن : كتاب العبر ط لبنان سنة 1909 مج 7 ص 163 ــ(9)ابن الخطيب : الاحاطة ج 2 ص 275
(10) كتاب العبر مج 7 ص 163 ــ (11) فصل الخطاب من رسائل ابى بكر بن خطاب مخطوط ص 2 ــ (12) بغية الرواد ج 1ص48
(13) البستان ص 227 ــ (14) الاحاطة ج 2 ص 278
(15) فصل الخطاب ص 13 ــ (16) المصدر السابق ص 14

ويحى بن خلدون يقول عنه انه «كان من أبرع الكتاب خطا وأدبا وشعرا ، ومن أعرف الفقهاء بأصول الفقه» (17) ووصفه الحافظ التنيسى «بأنه خاتمة أهل الآداب ، المبرز فى عصره على سائر الكتاب» (18) وأما العبدرى فانه كان معجبا كثيرا بشعره وقد روى له بعض مقطوعات وعلق عليها ومن ذلك ما قاله فى هذه المقطوعة :

1) اشكرن لربك وانتظرن
فى أثر عسر لامر يسرا
2)واصبر لكربك وادخرن
فى ستر ضر الفقر أجرا
3)فالدهر يعثر بالورىن
والصبر بالاحرار أحرى
4)والوفر أكثر معشران
والفقر بالاحرار يغرى

ان نظام هذه الابيات يدل على باع من الادب مديد ، وطبع فاضل ومقول مجيد ، وناظمها رحمه الله متمكن الجلالة ، معراف الاصالة (19) وقال فيه عبد الرحمن بن خلدون: انه كان شاعرا محسنا(20

وروى له ابن الخطيب مقطوعات متعددة منها مقطوعة فى الحكم مطلعها :

«أقنع بما أوتيته تنل الغنى ن
واذا دهتك مصيبة فتصبر»

وثانية فى الابتهالات مطلعها :

رب أنت الحليم فاغفر ذنوبى ن
ليس يعفو عن الذنوب سواك

منزلته فى الترسل والكتابة :

ونبغ أبو بكر بن خطاب فى الترسل والكتابة الفنية وبها اشتهر أكثر من اشتهاره بالشعر ، وقد بلغ فيها درجة كبيرة فاق بها معاصريه فى المغرب والاندلس ، وقد ذكرنا من قبل ما حلاه به مترجموه من براعته فىفنىالكتابة والشعر،ومنآثاره ايثاره بمنصب رئاسة ديوان الرسائل السلطانية بغرناطة".

ولما انتقل الى تلمسان تقلد هذا المنصب فى بلاد يغمراسن وأنشأ رسائل عديدة كانت نموذجا يحتذى ، وكان يوجه هذه الرسائل عن يغمراسن أو ولده أبى سعيد الى الموحدين بمراكش والى الحفصيين بتونس والى ملوك بنى الاحمر بالاندلس فى مناسبات مختلفة يقول عبد الرحمن بن خلدون فى ترسله «انه كان مترسلا بليغا وكاتبا مجيدا . . فستكتبه (أى يغمراسن) وصدر عنه من الرسائل فى خطاب خلفاء الموحدين بمراكش وتونس فى عهود بيعاتهم ما تنوقل وحوفظ» (21)

وذكر أن حافظ التنيسى أن يغمراسن «جعله صاحب القلم الاعلى» فى تلمسان (22) على أننا رغم بحثنا الكثير عن آثاره الكتابية فاننا لم نجد منها الا بضعة رسائل مخطوطة من مجموع جمعه أديب يدعى الحاج عبد القادر ودعاه فصل الخطاب من رسائل أبى بكر بن خطاب» وقد ذكر فيه تسعة أبواب ، ويبدوا أن أكثر رسائله ضاع فظهر لذلك تقسيم الكتاب غير مرتب ولا منسق تنسيقا منطقيا وهذه الرسائلالباقية من المجموع قد صدرت عن أبى بكر وهو بتلمسان،ورولىه ابن الخطيب رسالة اخوانية أنشأها فىالاندلس(23)وخاطب بها صديقين له بمرسية ، وقد بعث بها من مدينة اشبيلية .

وقبل أن نذكر أسلوب هذه الرسائل وخصائصها نذكر كلمة عن أسلوب الرسائل الديوانية وغيرها فى الاندلس والمغرب .

أسلوب الرسائل الديوانية فى هذا العصر :

لقد أثبت مؤرخو الادب فى هذا العهد أن كتابة الرسائل قد تأثرت بطريقة القاضى الفاضل المتوفى سنة 596هـ وهىتمتاز بالتزام السجع واطالة الفقرات وبالاستعارة والطباق ومراعاة النظير ، والغلو فى التورية والجناس واثار المعانى الخيالية (24) وجاء بعده محى الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة 692 هـ وقد سلك طريقته واعتمد أسلوبه .

---

(17) بغية الرواد ج 1 ص 48 ـــ (18) الدر والعقيان ج 1 مخطوط ص 276 ـــ (19) الرحلة المغربية ص 16
(20) كتاب العبر مج 7 ص 163 ـــ (21) المصدر السابق مج 7 ص 163 ـــ(22) الدر والعقيان ج 1 ص 139
(23) الاحاطة مج 2 ص 277 ـــ (24) الاسكندرى احمد : الوسيط فى الادب العربى وتاريخه ص 295 ـــ (24) الرحلة المغربية 23

وشاعت هذه الطريقة في المشرق والمغرب وكان كتاب المغرب والاندلس يتأثرون بكل التيارات التي تحدث في المشرق يحاكونها ويحتذونها ، وهذا ما لاحظه ابن بسام في القرن الخامس الهجري ولاحظه آخرون بعده وانتقدوه ·

وصار السجع في الرسائل الادبية والاخوانية ونحوها بعد ذلك حلية مرغوبا فيها بل قد طغى السجع على غيرها من فنون الادب كالمؤلفات الادبية والرحلات وكتب التاريخ ·

والعبدري هو معاصر لابي بكر بن خطاب يقول في وصف بجاية في رحلته : «ثم وصلنا الى مدينة بجاية ، مبدأ الاتفاق والنهاية ، وهي مدينة كبيرة حصينه منيعة شهيرة برية بحرية،سنية سريه،وثيقة البنيان ، عجيبة الاتقان» ، وكذلك ابن جبير فانه يميل الى السجع في رحلته ، ومثله الرحالة أبو البقاء خالد البلوي الذي زار تلمسان في أوائل القرن الثامن الهجري وقال فيها · «فرايت مدينة قل مثلها ، وجل عراها وبانها وأثلها ، بطاح وأدواح ، وربى ملاح ، وضياء وانشراح ٠٠٠»

ومن المؤرخين نجد يحي بن خلدون يميل الى السجع في بعض فصول كتابه : فيقول أبي حمو موسى بن يوسف «ولما كان مولانا الخليفة الامام السلطان الهمام ، الجواد الضرغام ، كبير الملوك وناظم السلوك ، وناهج سبيل الفخر المسلوك» (25) ويقول أيضا في ذكر السلطانين أبي سعيد وأبي ثابت «قمرا الخلافة وفرقدا الشرف والاناقة ومقرا الامان المنتجع والاخا ، هذا قطب الاسلام والدين ، وهذا يوم الكفاح أسد العرين» (26) ·

وأما كتاب الرسائل في عصر الموحدي فأشهر من يمثلهم ابن عطية وقد كتب رسالة ديوانية عن عبد المؤمن الى أهل تلمسان جاء فيها : أما بعد فالحمد لله وسعت رحمته كل شيء على العموم والاطلاق ، وجمعت عصمته أهل الاجتماع على طاعته والاتفاق ، ونمت نعمته تماما على أبلغ وجوه الانتظام والاتساق (27) ويقول من رسالة أخرى مخاطبا ابن هود الثائر : «وتقدمت بشارتنا به جملة ، حين لم تعط الحال بشرحه مهلة» (28) ·

وقد لاحظ ابن خلدون في القرن الثامن أن ظاهرة السجع قد غلبت على الكتاب فقال : «واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية وقصروا الاستعمال في المنثور كله على هذا الفن الذي ارتضوه وخلطوا الاساليب فيه وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصا أهل المشرق ٠٠٠ والمحمود في المخاطبات السلطانية الترسل وهو اطلاق الكلام وارساله من غير تسجيع الا في الاقل النادر حيث ترسله الملكة ارسالا من غير تكلف له ثم اعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال٠٠ (29)

ترسل أبي بكر بن خطاب :

ولم يكن أبو بكر بن خطاب ليخرج عن هذا الاسلوب الشائع في عصره في الرسائل وهو السجع والعناية بالمحسنات البديعة فكان ذا عناية بالسجع واطالة الفقرات كما في قوله من رسالة أخوانية «ونزلنا في الاخبية خارج البلد بموضع يعرف بالقنب قد تفجر عيونا ، جمع ماؤه وهواؤه عن المحاسن فنونا، وعرض علينا النزول في الديار داخل المدينة ، فرأينا المقام بالقنب أحد الاسباب المساعدة على حفظ الصحة المعينة (30) » وكقوله من رسالة أخرى «الفقيه الاجل أبو طالب أبقاه الله للمجد يحمي شرائعه ، وينمي بضائعه ، ويبني مصانعه، ولا زال الاعتناء الرباني يسعد مقاصده ويجمع جمع السلامة أوابد أمله

---

(25) تاج المغرب مخطوط ، الخزانة العامة بالرباط ص 4 —
(26) بغية الرواد ج 1 ص 4 — (27) المصدر السابق ج 1 ص149
(28) كنون عبد الله : النبوغ المغربي ج 2 ص 96 — (29) المصدر السابق ج 2 ص 100 — (30) مقدمة ابن خلدون ص424 425

وشواده ، (31) » وفى هذه الفقرة سجع مختلف بين قصير وطويل كما فيها تورية بجمع السلامة التى يريد بها الجمع اللغوى والجمع الاصطلاحى فى النحو ، ويهتم بالاقتباس من القرآن وغيره كما فى قوله : واستفهم لسان السيف لمن الملك اليوم (32) وكقوله من رسالة تعزية لابى سعيد بن يمغراسن «فقد أدال الله من جزعه صبرا ، وجعل مع عسره يسرا (33) » أو كقوله من رسالة تعزية وتهنئة وجهها عن أميره يمغراسن الى المستنصر بتونس «فلم يكن الا قدر ما يلمح البصر ، أو تنداح دائرة فى الماء يرمى فيه بالحجر (34) » ·

وهو يهتم أيضا بالتورية كثيرا فيورى بألفاظ نحوية وفقهية ونحوها كقوله من رسالة الى فقيه «والشكر لما حزتم من مآثر الفضل ينقسم بانقسام الزمان كالفعل غير أنه لا ينفى ولا يجزم (35) » وقوله فى رسالة فى الصدقات أو خطبة النكاح «ورسم فيه أثر فعله الذى لا يتصف بالجبر والاكتساب (36) » ويهتم بأنواع الاستعارات وضروب الاخيلة كقوله : «وكتائبه المتعودة لشن الغارة ضراغم آجامها الرماح الخواطر ، وبراثنها السيوف البواتر (37) »وقوله : «وصل النبأ الذى طاشت له الاحلام ، وتعثرت فى الطروس الاقلام (38) » وقوله : «قد طفت جثث قتلاهم فى بحر الزقاق أمثال الزقاق » وقوله : وصل كتابكم الخطير ينصع بيانا ، ويخلو من مصافاتكم صورا حسانا (39) وقوله : «ما أهدى الجذل الى الصدور ومحا أثر الحزن منها بيد الصرور (40) » وقوله فى تنزيه صفات الله عن النقص وغوص الافهام الكاملة لادراكها كأن طيور الاقلام خلال أوراق غصون سطور الكلام تلقط منها عناقيرها حبا (41) وفى العبارة ضعف تركيب لكثرة الاضافات فيها ·

وهكذا نصل الى جملة نتائج وهى أن الاسلوب الفنى للرسائل الديوانية قد نقله أبو بكر بن خطاب الى تلمسان وقد بثه بين طلبتها وشاع عنه هذا الاسلوب فى منتصف القرن السابع وما بعده وكان هو أكبر ممثل له فى تلمسان والمغرب وكان يقابله شيخه أحمد بن عميرة ومواطنه ابن الابار بتونس ·

اثرأبى بكر بنخطاب فى الحركة الادبية بتلمسان:

اننا لا نجد مراجع كافية تحدثنا عن مدى تأثير أبى بكر بن خطاب فى الحياة الادبية بتلمسان ، ولكن بعض الاشارات التى وردت عرضا فى بعض المراجع قد تكشف لنا عن هذا التأثير أو بعضه ومن ذلك ما ورد فى رحلة العبدرى (42) من أن ابن خميس كان راوية عن أبى بكر بن خطاب وتلميذا له ، وكان ابن خميس هو أكبر شاعر وكاتب أنجبته تلمسان فى هذا القرن وقد تأثر به فى اتجاهه الادبى وأسلوبه ونجد رسالته الصوفية تنتحى منحى رسائل شيخه فى التزام السجع ، وفى اطالة الفقرات ، وقد يكون قلده فى رسائله الديوانية التى لم نعثر على أى رسالة منها بعد أن شغل منصب كاتب الرسائل بديوان أبى سعيد خلفا عنه بعد وفاته ، ولا يبعد أن يكون أبو زكرياءيحى بن عصام (43) وكان أديبا شاعرا ملازما لابن خميس قد أخذ عنه وتأثر به ·

وكما لا يبعد أن يكون أبو عبد الله محمد بن المعلم وكان من كتاب يغمراسن (44) قد أخذ عنه وتأثر به ، كما تأثر به الجو الادبى فى تلمسان عامة ·

وقد حدثنا ابن خلدون عن أثر رسائله فى المغرب كله فقال : وصدر عنه من الرسائل فى خطاب خلفاء الموحدين بمراكش وتونس فى عهود بيعاتهم ما تنوقل وحفظ (45) وفى هذه العبارة الموجزة ما يفيد أن رسائل أبى بكر صارت تراثا أدبيا يدرس ويحفظ ونماذج مثالية يحاكيها الكتاب ويقيسون منها فى رسائلهم الديوانية وغيرها ·

---

(31) ابن الخطيب : الاحاطة 2 : 277 — (32) فصل الخطاب ص7 —(33) المصدر السابق ص 7 — (34) المصدر الساق 14
(35) المصدر السابق ص 6 وفيه اقتباس من بيت ابن الرومى (36) فصل الخطاب ص 8 — (37) المصدر السابق ص 15
(38) المصدر السابق ص 15— (39) المصدر السابق ص 6 (40) المصدر السابق ص 12 — (41) المصدر السابق ص 13
(42) المصدر السابق ص 16 — (43) الرحلة للعبدرى ص 15 (44) المصدر السابق ص 19 — (45) بغية الرواد ج 1 ص 111

تحليل مضمون بعض رسائله :

ونبدأ من ذلك برسالة عزا بها الامير أبا سعيد عثمان فى أبيه يغمراسن وفيها يقول فى مقدمتها «مولاى السلطان أبو سعيد أدام الله حياته وعرفه من التأييد ، ما يتكفل لامره بالتأييد ، ويقضى بتقديم ملكه واثباته، عبده وخديمه، ومولى الشكر لاحسانه الجزيل ومديمه، محمد بن خطاب سلام الله ، وبعد حمد الله الذى لا يموت والصلاة على سيدنا محمد رسوله الذى أتاه من المعجزات ما يفوق الحصر ويفوت ....»

ثم يدعو له ويخبره أنه كتب اليه من تلمسان حول «وفاة مولاه السلطان أبى يحى والدكم قدس الله ثراه ، وجعل الجنة مثواه ، ما جرى به القدر وشاب لاجله صفو الحياة بالكدر» .

ويعظم المصاب ويوضح أثره على النفوس فيقول : «فيا له رزءا فادحا ، وثكلا جرى بنا فى ميدان الاسى جامحا ، ونغص العيش ، وعلم الحليم الوقور الطيش ...» ثم يستلم لمشيئة الله التى لا تدفع ، ويرضى بأحكامه فى الارواح «التى هى عوارى تسترجع لوقتها وتسترد ، وذلك ما لا يغيب عن علم مولانا السلطان .»

ثم يستطرد الى تهنئته بالسلطان الذى أدال الله به «من جزعه صبرا وجعل مع عسره يسرا ، وهو ما يسر من الاتفاق على بيعتكم السعيدة ، وحلولكم فى مرتبة الملك المشيدة ، وهنيئا لها فاليكم كان ميلها ، وبصبح ولايتكم انجلى عنها ليلها ..» وأخيرا يختم بالدعاء له بدوام السرور والاعتذار عن تقصيره فى ايفائه حق السلطان ويسجل تاريخ الرسالة التى كتبت فى 5 ذى الحجة من عام 681 هـ

رسالة ثانية له :

ومن هذه الرسائل رسالته فى الجواب عن تعزية الملك النصرى من بنى الاحمر بالاندلس لابى سعيد حول وفاة أبيه يغمراسن فيقول له فى مطلعها : ان الصداقة التى تربط بين الملكين متينة «لا تحيل صفاءها الايام» ويسبغ عليه من الالقاب ماجرت به العادة السلطانية فى ذلك العصر ويشيد بامارته ذات المآثر الجليلة على لسان سلطانه أبى سعيد ثم يحمد الله ويصلى على النبى ص راضيا بما قدر الله من مصاب يصيب العام والخاص مثبتا ان الصبر هو بمنزلة الرأس من الجسد كما جاء فى الحديث ، ويخبره أنه كتب اليه من تلمسان حرسها الله «وفضل الله تصفو مشارعه وتصفو مذارعه ، وصنع الله الاجمل تتلاحق طلائعه ... وأخاؤكم الكريم عقده وثيق ، ووجهه سافر أنيق والوفاء بأذمته المؤكدة لا يسلك غير طريقه طريق، ولايتخذ عن فريقه فريق، والتعظيم لجنابكم الرفيع موصول أبدا ، موفى قولا ومعتقدا وانه بذلكم لحقيق ...»

وبعد أن يؤكد علائق المودة بينهما واللزوم على عهودهما السابقة يخبره انه وعى كتابه الذى عزاه فيه عن أبيه ويشكره عليه ويشيد بحبه لصفيه الراحل ولئن فقدوه فقد بقى لهم من ولده «أخ معاضد فى كافة الاحوال مساعد، يقاسمكم فى المر والحلو ...»

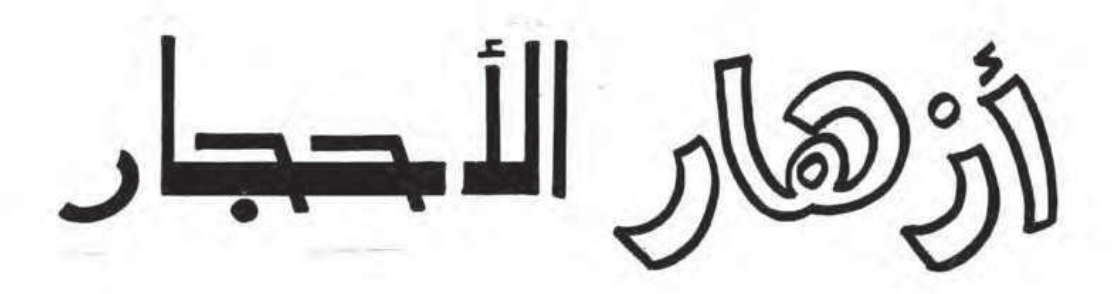
وأخيرا يعذرهم عن تأخر كتبهم اليه لانه «قد تقرر بيننا وبينكم من خلوص السر والجهر ما لا يحتاج معه الى تكلف العذر ، فاننا ننظر الى كل ما يصدر عنكم بعين الرضا ، ونقيس مستقبل حالكم فى الوفاء على ماتيقننا منه فيما مضى بحول الله» .

وهكذا تنتهى هذه الرسالة التى توضح لنا مدى العلائق السياسية الوطيدة لتى كانت تصل بين مملكتى غرناطة وتلمسان فى القرن السابع الهجرى وقد تأكدت هذه العلائق لاسباب سياسية واجتماعية واقتصادية فى القرنين التاليين : الثامن والتاسع وكانت تتسم دائما بالصفاء والتعاون ولم يشبها طيلة هذه القرون الثلاثة ما يكدر صفوها أو يضعف من فعاليتها .

وأخيرا نذكر خلاصة لهذه الالمامة التى بدأناها بنبذة عن حياة يمغراسن ونشاطه السياسى وتشجيعه للحركة العلمية ، ثم ذكرنا الماعة عن حياة كاتب يمغراسن أبى بكر بن خطاب فى الاندلس وتلمسان ، وحاولنا أن نذكر اقتباسا عن عبقريته الشعرية والنثرية وأن نلمح بايجاز عن مدى تأثيره على الحياة الادبية ، ثم عرضنا بإجاز الى تحليل بعض خصائصه النثرية والى تحليل رسالتين له وهكذا نكون قد القينا ضوءا خافتا على شخصية علمية كبيرة كان لها تأثير على حياتنا الثقافية بتلمسان فى بعض عهودها الزاهرة ومن الوفاء لها أن نذكرها بالاكبار ، وان نشيد ببعض ما تركت لنا من آثار فكرية تستحق منا العناية بالدرس والتحليل .

التعريف بتراثنا المخطوط

إعداد : رابح بونار



لأحمد بن يوسف التيفاشي

التيفاشي هو أحمد بن يوسف بن ابي بكر بن حمدون بن حجاج القيسي شرف الدين ينتسب اوائله الى بلدة تيفاش الكائنة بشمال مدينة قسنطينة من القطر الجزائري وقد ولد بقفصة من القطر التونسي سنة 580 هـ وقرأ بمسقط رأسه على أفراد أسرته وكانت مشهورة بالعلم والادب وكان منهم عم أبيه الذي مدح عبدالمؤمن بن علي خليفة الموحدين حين فتح افريقية سنة 555 هـ بقصيدة يقول في مطلعها :

ما هز عطفيه بين البيض والاسل
مثل الخليفة عبدالمؤمن بن علي

وقد أورد المترجم ضمن مؤلفاته لاقاربة كثيرا من قصائدهم ومقطوعاتهم الشعرية .

وكان والده يوسف قاضيا بمسكيانة وانتقل احمد في صغره الى تونس . وقرأ بجامع الزيتونة واشتغل بالادب والعلوم الرياضية ، وبرع في ذلك كله ثم سافر الى الديار المصرية ودرس بها ، وأخذ بها عن موفق الدين عبد اللطيف البغدادي الطائر الصيت ، ثم ارتحل الى دمشق وقرأ بها على تاج الدين الكندي ، وعاد بعدها الى بلده مملوء الوطاب علما . فولاه ابو زكرياء الإكبر أول ملوك بني حفص خطة القضاء ببلده قفصة ، وبعد حين ترك الوظيفة وقصد الى المشرق واصابته في هذه السفرة كارثة مفجعة أورد خبرها في أحد تصانيفه المخطوطة ، وخلاصتها أنه ماتت زوجته وركب هو وأولاده الثلاثة البحر ومعهم مال طائل . فعطبت السفينة في البحر وماتت البنون الثلاثة والمال جميعه نجا هو على لوح مسلوبا من أهله وماله .

والتحق التيفاشي بالمشرق وتجول بأنحائه فدخل العراق وبلاد فارس ، ثم عاد الى مصر واستقر نهائيا بالقاهرة عاصمتها حوالي سنة 630 هـ واختلط بالطبقة المستنيرة من الرؤساء والاعيان والادباء ومنهم الصاحب محي الدين محمد بن ندى القرشي وقدم اليه بعض كتبه ، وابو الحسن علي بن سعيد الغرناطي المؤرخ اديب الاندلس المشهور قال المقري : « وجد بخط ابن سعيد في آخر جزء من كتاب المغرب ما نصه : اجزت الشيخ القاضي الاجل ابا الفضل احمد بن الشيخ القاضي ابي يعقوب يوسف التيفاشي ان يروى عني مصنفي هذا وهو « المغرب في محاسن المغرب » ويرويه من يشاء ثقة بفهمه واستنادا لعلمه كتبه مصنفه علي بن موسى بن سعيد في تاريخ الفراغ من هذا الشعر »

ومن اصدقائه بمصر جلال الدين مكرم بن منظور الافريقي والد مصنف لسان العرب ، وقد عرف هذا الاخير بالتيفاشي فقال « كنت في ايام الوالد رحمه الله أرى تردد الفضلاء عليه .. ورأيت شرف الدين أحمد بن يوسف التيفاشي في جملتهم وانا في سن الطفولة لا أدري ما يقولون .. غير أني اسمعه يذكر للوالد كتابا صنفه أفنى فيه عمره واستغرق دهره ، وانه لم يجمع ما جمعه فيه كتاب .. وتوفي الوالد – رحمه الله – في سنة 654 هـ وتوفي شرف الدين التيفاشي بعده بمدة ... »

علمه وادبه :

اشتهر احمد بن يوسف التيفاشي الجزائري بسمة العلم والرواية ووفرة الادب والاطلاع الواسع على الكتب قديمها وحديثها ويذكر ابن فرحون(2) انه كانت له عناية بعلوم الاوائل فقال : اشتغل بالادب وعلوم الاوائل (الفلسفة) وبرع في ذلك كله . »

وقال عن أدبه وتآليفه انه كان فاضلا بارعا له شعر حسن ، ونثر جيد ومصنفات عديدة وشعره لايخرج عن مستوى شعر عصره في اطاره الفني . فكان يعنى بالصناعة اللفظية كمعاصريه من الشعراء ، فيبالغ في التورية والجناس والتشبيه وغيرها ، ومن نماذج شعره موضوعات مختلفة قوله : .

ويوم سرقناه من الدهر خلسة
بل الدهر اهداه لنا متفضلا
اشبهه بين الظلامين غرة
لحسناء لاحت بين فرعين ارسلا

ومنه قوله في ظهور الفجروزوال الليل :

نبه نديمك ان الديك قد صخبا
والليل قوض من تخييمه الطنبا
والفجرفي كبد الليل السقيم حكى
سر المتيم عن أجفانه غلبا
كأنه بظلام الليل ممتزجا
سمراء تفتر ابدت منسما شنبا
كأنما الفجر زند قادح شررا
في فحمة الليل لاقى الفجروالتهبا
كأن أول فجر فارس حملت
راياته البيض في اثر الدجى فكبا
كأن ثاني فجر غرة وضحت
تسيل وجه طرف أدهم ولبا

ومنه قوله في وصف الزلزال :

أما ترى الارض في زلزالها عجبا
تدعو الى طاعة الرحمن كل تقى
اضحت كوالدة خرقاء مرضعة
اولادها در ثدي حافل غدق
قد مهدتهم مهادا غير مضطرب
وافرشتهم فراشا غير ما قلق
حتى ابصرت بعض الذي كرهت
مما يشق من الاولاد من خلق
هزت بهم مهدهم تشاتنهنهم
ثم استشاطت وآل الطبع للخرق
فصكت المهد غضبى فهي لافظة
بعضا على بعضهم من شدة البرق

ومنه قوله في بقية نار :

كأنما نارنا وقد خمدت
و جمرها بالرماد مستور
دم جرى من فواخت ذبحت
من فوقه ريشهن منثور

ومن نماذجه النثرية الطيبة قوله من فصل عقده للحديث عن تطور الموسيقى في الاندلس وانتقال الحانها من عصر الفتح العربي الى زمانه بالقرن السادس الهجري فقال(3) كان غناء اهل الاندلس في القديم أما بطريقة النصارى واما بطريقة حداة العرب ، ولم يكن عندهم قانون يعتمدون عليه الى أن قامت الدولة الاموية وكانت مدة الحكم

---

(1) ورقات عن الحضارة العربية بافريقية للاستاذ حسن حسني عبدالوهاب القسم الثاني ط تونس سنة 1966 ص 448 . – الاعلان بالتوبيخ للسخاوي ص 162 . – الديباج المذهب لابن فرحون ط مصر ، 1351 هـ ص 75 . – حلبة الكميت للنواجي نقل عنه فصلا من التراب ص 20 . – كشف الظنون في مواضع مختلفة المجلة الآسيوية الفرنسية 1828 م ص 5 . – بروكلمان ج 1 ص 495 معجم سركيس ص 651 .

(2) الديباج المذهب ص 75 .

(3) ورقات للاستاذ حسن حسني عبدالوهاب القسم الثاني ص 453 .

الربضى ، فوفد عليه من المشرق ومن افريقية التونسية من يحسن صنعة التلاحين المدنية وأخذ الناس عنهم ، الى أن وفد الامام المقدم فى هذا الشأن « يعنى به على بن نافع الملقب بزرياب » غلام اسحاق الموصلى على الامير عبدالرحمن الاوسط فاعتكف مدة سنين مع جوار محسنات فهذب « الإستهلال والعمل » ومزج غناء النصارى بغناء المشرق ، واخترع طريقة « الاجدالا » بالاندلس ، وقد مال اليها طبع اهلها ، ورفضوا ما سواها ثم جاء بعده ابن جودى ، وابن الحمارة ، وغيرهما فزادوا الحانه تهذيبا ، واخترعوا ما قدروا عليه من الالحان المطربة ، وكان خاتمة هذه الصناعة ابو الحسن بن الحاسر المرسى ، فانه ادرك فيها علما وعملا ما لم يدركه احد وله فى الموسيقى كتاب كبير فى جملة أسفار ، وكل تلحين سمع بالاندلس والمغرب فى شعر متأخر فهو من صنعته ... »

ونثر المترجم فى هذا النص نثر فصيح سهل لم يتكلف فيه السجع الممل شأن غيره من المعاصرين .

مؤلفاته :

للتيفاشى مؤلفات كثيرة فى فنون شتى ، ومن هذه المؤلفات القيمة :

1 ـ كتابه « فصل الخطاب فى مدارك الحواس لاولى الالباب » وهو موسوعة كبيرة فى مختلف العلوم والتاريخ والآداب قدمها فى القاهرة الى الصاحب. محى الدين بن ندى الجزرى القرشى وقد جزأه الى اكثر من اربعين جزءا وجعل لكل جزء موضوعا خاصا كالشفاء لجزء مخصص بالطب .

ومتعة الاسماع فى علم السماع للموسيقى والرقص عند الشعوب المعروفة فى وقته ، وازهار الافكار فى جواهر الاحجار(4) لانواع الحجارة ومعادنها وقد حرره سنة 640 هـ وقال فى مقدمته « ومعظم الخواص المذكورة فى هذا الكتاب مما جربته بنفسى أوثقت بصحة النقل فيه عن غيرى من المعتبرين فاحلت عليه « مسند ذلك اليه » والتيفاشى بهذا الكتاب الضخم فى فنون مختلفة هو أول سابق الى وضع معلمة تاريخية قبل على بن سعيد الغرناطى (622هـ) والنويرى (732هـ) وابن فضل الله العمرى (748 هـ) وصلاح الدين الصفدى (764هـ) والقلشندى (821هـ) وغيرهم ولخص كتاب التيفاشى السابق وهو فصل الخطاب معاصره جمال الدين محمد منظور صاحب لسان العرب وسمى الجزء الاول منه نثار الازهار فى الليل والنهار وعثر عليه أحمد فارس الشدياق وطبعه بمفرده فى مطبعة الجوائب سنة 1298 .

ومن مؤلفات التيفاشى الاخرى :

2 ـ الدرة الفائقة فى محاسن الافارقة

2 ـ وسجع الهديل فى اخبار النيل

4 ـ والديباج الخسروانى فى شعر ابن هانى وهو شرح على ديوان ابن هانىء التونسى الاندلسى .

5 ـ ودرة اللآلىء فى عيون الاخبار، ومستحسن الاشعار

6 ـ ونزهة الالباب فيما لا يوجد فى كتاب فى المحاضرة والحكايات

7 ـ وقادمة الجناح فى معاشرة النساء الملاح .

هذه بعض مؤلفات هذا الاديب الجليل والعالم الكبير الذى ازدان به القرن السابع الهجرى بالجزائر وتونس ، وقد ترك بمؤلفاته ذخائر عظيمة جليلة .

كتاب
ازهار الاحجار

لما كان كتاب ازهار الاحجار للتيفاشى كتابا غريبا فى موضوعه بالنسبة للعصر الذى ألف فيه ، وقد استغله الاوروبيون بعد ذلك رأينا أن نذكر خلاصة وافية عنه للتعريف به فيما يلى : يقول المؤلف فى مطلع كتابه : (ص 1) هذا كتاب غريب الوضع عجيب الجمع ، عظيم النفع ، ضمنته ذكر الاحجار التى يكون اكثرها فى خزائن الملوك وذخائر الرؤساء مما لا يستغنى عن اقتنائه ملك كبير ، ولا رئيس خطير . لما يشتمل عليه من عظائم المنافع ، وعجائب الخواص ، ولم أشرك بها ذكر شىء من الاحجار المتداولة القديمة المنافع ، ولا ذكر شىء من الاحجار الشاذة لا سيما المعدومة او النادرة الوجود كان ذلك هما لا طائل فى ذكره ، وانما ينتفع بذكر الحاصل فى الوجود لا الداخل فى حيز المعدوم والمفقود .

وجملة عدد الاحجار المثبتة فيه خمسة وعشرون حجرا وهى الياقوت والزبرجد والماس والبادزهر ، والفيروزج والعقيق والجزع وغيرها ويقول فى شرح منهجه الذى سلكه فى دراسة الاحجار الكريمة وتحليل خصائصها : ان سبيلنا أن نتحدث عن كل حجر من الاحجار المعدودة بعد أن نلم بذكر ما له من أسماء فى لغة العرب ، ونذكر فى دراستها لكل حجر :

1 ـ علة تكونه فى معدنه

2 ـ ودراسة معدنه وتحليل خصائصه

3 ـ والتمييز بين انواع جيدة ورديئة وخصائص كل منهما حتى يستطيع الانسان أن يبين الخالص والمغشوش فيه

4 ـ وذكر خواص كل حجر ومنافعه الطبية وغيرها

5 ـ واخيرا يذكر قيمته الغالبة فى الاسواق ، ومدى اقبال الناس عليه .

وقد ادرك التيفاشى قيمة كتابه ، وابتكاره فى موضوعه فقال : ان كتابه يمتاز عن غيره من الكتب التى تشاركه فى الموضوع بجمع ما تفرق فيها من خصائص . اذ أن بعض هذه الكتب يعنى بدراسة علة تكون الاحجار . وبعضها يعنى بذكر منافع الاحجار . وأما كتابنا فانه جمع الخاصتين وزاد عليهما فكان هذا الكتاب « اعم » فائدة ، وأجدى عناية من سائر الكتب الموضوعة فى هذا الفن . كما يقول التيفاشى .

وهكذا كان كتاب التيفاشى بدراسة الجواهر الكريمة فريدا فى بابه ، وتحفة علمية للدراسات العلمية الطبيعية ، ينبغى أن نوليه ما يستحق من عناية واهتمام . وان ننشره عند الامكان ـ لان فى نشره احياء لتراثنا الفكرى الاصيل ، ودعما لمقومات شخصيتنا الجليلة .

---

(4) اعتنى الاوروبيون بهذا الجزء من قديم فترجمه الى اللاتينية ونشره الهولاندى سنة 1818 م وله ترجمة فى مكتبته لبسيج بالمانيا (الورقات ى 2 ص 456) .

(5) ازهار الاحجار مخطوط المكتبة الوطنية تحت رقم 1503



سعيد العقباني التلمساني

رابح بونار

تمهيد : لقد سجل القرن الثامن الهجرى بتلمسان وغيرها من مدن الجزائر ازدهارا كبيرا فى الدراسات الفقهية القانونية كما سجل نشاطا كبيرا فى مختلف العلوم كالتاريخ وعلوم اللغة والادب ومباحث الكلام والرياضيات وغيرها وقد كان لكتاب الدراسات القانونية والفقهية المقام الاول فى هذا العصر ، وكانت لهم الاسبقية والايثار على رجال الثقافة الذين يعاصرونهم واهم ما تنبغى ملاحظته هنا ان اعلام القانون فى هذا العصر لم يكونوا من النقلة الحفاظ لا غير ، وانما كانوا يميلون الى اعمال الراى الى الاجتهاد فى دائرة المذهب المالكى ومنهم المترجم سعيد العقبانى واذا رجعنا الى كتب التراجم وتصفحنا تراجم بعض الشخصيات الفقهية اللامعة وجدنا من بينهم ابنى الامام ابى موسى عيسى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ وابا زيد عبد الرحمن (١) المتوفى سنة ٧٤٣هـ ومحمد ابراهيم الآبلى (٢) المتوفى سنة ٧٥٧هـ وابا عبد الله محمد بن احمد العوينى الشريف التلمسانى (٣) المتوفى سنة ٧٧١هـ .

وأبا عبد الله محمد بن احمد بن مرزوق بن مرزوق التلمسانى الشهير بالخطيب (٤) المتوفى سنة ٧٨٦ هـ ونجد الى جانب هؤلاء الفقهاء الاعلام شخصيات اخرى لا تقل عنهم شأنا فى الابحاث الفقهية والدراسات القانونية الواعية منهم عمران بن موسى المشذالى البجائى (٥) الذى هاجرها الى تلمسان وانتصب فيها للتدريس الى أن توفى سنة ٧٤٥ هـ ومنصور ابى على الزواوى المتوفى بعد سنة ٧٧٠ هـ (٦) وغير هؤلاء ممن كانوا بتلمسان او ببجاية وقد نبغ مترجمنا سعيد العقبانى فى تلمسان فى هذا العصر وكان فى طليعة اعلامه ممن يفتخر بهم عصره ، وتزدان بهم حاضرته تلمسان ، وقد حفزنى باعث التعريف به وبنشاطه العلمى على ان اخصه بهذه الترجمة وبدراسة مقتضبة حول بعض انتاجه العلمى .

ترجمته : سعيد بن محمد العقبانى التلمسانى ولد سنة ٧٢٠هـ وتوفى سنة ٨١١هـ (٧) والعقبانى نسبة لعقبان وهى قرية من قرى الاندلس التى يعود اليها اصله وقد هاجرت اسرته الى تلمسان واستقرت بها . يقول فيه معاصره يحيى بن خلدون : (٨) انه اول نجباء بيته وهو ذو نبل ونباهة ودراية وتفنن فى العلوم ومهارة فى الحساب والهندسة وأما صاحب الديباج فانه يذكر لنا شيوخه ومؤلفاته فيقول فيه أنه أمام فاضل فقيه فى مذهب مالك متفنن فى العلوم .

شيوخه : اخذ عن ابنى الامام ابى زيد وابى موسى وتفقه عليهما واخذ الاصول عن الامام الابلى . ويذكر انه ولى القضاء ببجاية والعلماء يؤمئذ متوافرون كما ولى قضاء تلمسان وله فى القضاء مدة تزيد على ٤٠ سنة .

ويزيد صاحب نيل الابتهاج قائلا (٩) : ان اصله من الاندلس تجيبى النسب وهاجر الى تلمسان ومن شيوخه الحافظ السطى الذى اخذ عنه الفرائض وكان يقال له رئيس العقلاء ونقل عن ابن صعد انه كان فقيها علامة خاتمة قضاة العدل بتلمسان .

تآليفه : ذكر مترجموه له جملة مؤلفات فى موضوعات مختلفة :

١) ففى الفقه له شرح جليل على ابن الحاجب الاصلى .

٢) وفى الفرائض له شرح على الحوفى لم يؤلف عليه مثله

٣) وفى التفسير له تفسير سورة الفتح او الفاتحة أتى فيه بفوائد وزاد عليه صاحب نيل الابتهاج تفسير سورة الانعام (١٠)

٤) وفى الكلام له العقيدة البرهانية فى اصول الدين

٥) وفى اللغة له شرح بردة البوصيرى فىمدح النبى ص

٦) وفى الرياضيات له شرح التلخيص فى الجبر والمقابلة لابن البناء وشرح قصيدة ابن الياسمين فى الجبر والمقابلة ايضا .

٧) وفى المنطق له شرح جمل الخونجى .

تلاميذه : اخذ عنه طائفة من الاعلام كولده قاسم العقبانى ، والامام ابى الفضل ابن الامام، والامام الحجة ابن مرزوق الحفيد والولى العارف سيدى ابراهيم المصمودى والامام العارف ابى يحيى الشريف والشيخ ابى العباس بن زاغو ، واخذ عنه بالاجازة الامام المحقق النظار محمد بن عقاب الجذامى .

قضاؤه : اشتهر الامام سعيد العقبانى بمهارته القضائية وبتفوقه فى المباحث القضائية وكان اول نجباء بيته كما يقول يحيى بن خلدون وقد شغل القضاء مدة تزيد على ٤٠ سنة كما قدمنا . فتولى القضاء ببجاية ومراكش وسلا ووهران وتلمسان وحمدت سيرته وكان فى عهد يحيى بن خلدون حوالى (٧٦٠ ــ ٧٨٠) يتولى قضاء الجماعة بتلمسان وامامة الجامع الاعظم فيها . وقد أكسبه القضاء ومهارته فىالرياضيات قوة على الجدل والمناظرات وصل فيها الى درجة الشريف التلمسانى وكان كلاهما يستشرف الى درجة الاجتهاد المذهبى .

ونريد ان نذكر هنا صورة عن مناظر طريفة وقعت بين المترجم وبين الامام احمد القباب الفاسى (١١) وكان علامة جليلا وهى تعطينا صورة جلية عن النشاط الفقهى والتعمق فى مباحثه ومحاولة الاجتهاد فيما لا نص فيه للايمة السابقين وكان أعلام القانون فى هذه الفترة يستشرفون الى الاجتهاد المذهبى ومناقشة آراء الفقهاء السابقين كما نجد ذلك عند المترجم وعند الشريف التلمسانى وابن عرفة بتونس وابن لب والشاطبى بالاندلس وغيرهم وهذه المناظرة التى دارت بين هذين العلمين من اعلام المذهب المالكى بعد منتصف القرن الثامن الهجرى تبدو فيها محاولة الاجتهاد واضحة جلية، لان موضوع المساجلة لم يتعرض له الفقهاء قبل ذلك ولم تكن هناك أحكام سابقة تتضمن البت فيها هذا ما دعا الفقيهين سعيد العقبانى واحمد القباب ان يجتهدا فى استنباط الحكم الشرعى المناسب وأن يستعمل كلاهما مختلف الادلة النقلية والعقلية لابراز الحقيقة وافحام الخصم .

ومن الطريف ان نذكر أن موضوع هذه المناظرة يتصل بضرب من ضروب **التامين الاجتماعى** وصلت اليه بعض النقابات الحرفية فى هذا العهد الاسلامى كما ورد فى مسألة المناظرة ولا يبعد ان يكون هذا النمط شائعا فى جميع حواضر المغرب الاقصى والادنى وتونس ولعل فى هذا النموذج ما قد يطلعنا على تنظيم محكم للتجارة والصناعة التقليدية وينمى معلوماتنا عن النشاط التجارى وأنظمته الاجتماعية الدقيقة فى عصر ما بعد الموحدين .

وقد كان الباعث على احداث هذا النوع من التامين الاجتماعى للتجار هو ما كان ينصب عليهم احيانا من ضرائب تفرضها الدولة عليهم فكان هذا التنظيم موسيلة لتخفيف هذه الضرائب وتحمل اعبائها أما المنتجون من الحاكة وغيرهم فقد كانوا كما تبدو لنا حالتهم الاقتصادية من خلال المناظرة قليلى الارباح ، عديمى الثروة ، واثمان منتجاتهم كانت لا تزيد على لوازم نفقاتهم ومعاشهم بخلاف التجار فانهم كانوا احسن منهم حالا ، واكثر اموالا .

موضوع المناظرة : جاء فى الدرر المكنونة فى نوازل مازونة (١٢) : ان جماعة من التجـــار بمدينة سلا بالمغرب الاقصى اتفقوا على اخراج درهم عن كل بضاعة يشتريها واحد منهم لتوضع عند **أمير التجار** ، وعند الحاجة اليها فى دفـــع الضرائب يستعان بـــها ، واشتكى الحاكـــة البائعون من ذلك واستفتوا سعيـــد العقبانى وكان قاضيا بسلا فأجابهم بالجواز ثم استفتوا الفقيه أحمد القباب بالرباط فأجابهـــم بالمنـــع ووقعت مناظرة كتابية بينهما وعقبتها مناظرات أخرى جمعها القاضى العقبانى فى كتاب دعـــاه (الباب اللباب فى مناظرة القباب) ووجهة نظر العقبانى تتلخص فى أن هؤلاء التجار قد اتفقوا فيما بينهم عن تراض على ان يجمعوا هـــــذه الدراهم لوقت الحاجة وهى مملوكة لهم ملكيـــة مشتركة فى صندوق أشبه ما يكون بصنـــدوق تضامن لهؤلاء التجار فهى لذلك جائزة ومشروعة

اما القباب فانه رأى فى هذا الاتفاق تواطؤا على الحاكة البائعين ولذلك افتى بأن الدراهم المجموعة هى ملك لاولئك البائعين لا للتجار .

ولاعطاء صورة واضحة عن هذه المناظـــرة الطويلة وبسط حجج الفقهيين معا بايجـــاز نوردها فى صورة حوار فيما يلى :

سعيد العقبانى : ان هذا الدرهم المخرج من ثمن السلعة المشتراة هل يستوجب نقصـــا لاثمان الحاكة أم لا وهل يتعلق للبائعين بذلـــك حق ؟ مع علمهم بما اقدم عليه التـــجار اثنـــاء التعاقد ، وأن البائع منهم لا يبيـــع الا بعـــد أن يستوفى حقه من السلعـــة ، والمشتـــرى اذا اشتدت رغبته فقد يشترى بأكثر من الثمن الذى يدفعه فى حال فتور رغبته ، وعلى العكس من ذلك اذا كان البائع أحرص على البيع فقـــد يتساهل فىالثمن ، فما الذى يشوب بيعا وقع مستوفيا شروطه وأركانه ولو كان ثمن البضاعة غاليا أو رخيصا ؟

على اننا نفرض أن المشترى لو تقاعس عن الزيادة فى السلعة لزهده فيها فان شراءه مـــن البائع المضطر يكون صحيحا لانتفـــاء عيوبـــه المبطلة ؟ (١٣)

وايضا فان فقه المسألة يظهر فى ان البائعين لا حق لهم فى ذلك الدرهم المخرج ولا فى منـــــع التجار المشترين من توظيفه على انفسهم لان البيع وقع صريحا بثمن مسمى وعليه سلم البائع منهم بضاعته ورضى بذلك فلا حجة لـــه بعـــد ذلك !

القباب : لا يجوز للتجار ان يتواطؤوا على أن لا يزيدوا على ثمن معين لان فى ذلك ضـــررا لهؤلاء الحاكة ؟ وكل اضرار بالمسلم حرام . وقد قال الاما ممالك : لا **ينبغى للنفر** ان يجتمعـــوا فيقولوا لا نزيد فى الثمن على كذا .

العقبانى : انه لا دليـــل على أن التجـــار تواطؤوا على أن لا يزيدوا فى السلع وذلك غير مسلم وانما اتفقوا على اخراج درهم من كـــل سلعة يشتريها أحدهم (١٤)

القباب : لا يمكن التسليم بعدم التواطؤ بـــل ان كل تاجر يضع حسابا للدرهم المدفوع عنـــد شرائه فيحاول أن ينقصه من ثمن السلعة وفى هذه مضرة واضحة للبائع (١٥) .

العقبانى : اذا سلمنـــا بمضـــرة البائعـــين فليتواطأ هؤلاء البائعون ايضا ليدفعوا هـــــذا النقص عن انفسهم على أن لا يبيعوا الا بزيادة هذا الدرهم ما دام المشترون قد اتفقوا وكل من الطرفين حر مختار فى تعاقده واتفاقه .

القباب : لو سألنا اهل المعرفة فى هذه المسألة لقالوا أن التحامل يقع على الباعة دون التجار .

العقباني : لا نسلم ذلك فقد نجد التاجر الشديد الحرص من هؤلاء قد يتحامل على نفسه فى شراء سلعة ويقدم على شرائها بثمن غال باهض فأين التحامل فى هذا ؟

القباب : ان التجار يعملون دائما على الحطيطة من ثمن البضائع المشتراة .

العقباني : لاشك ان البائعين من الحاكة قد يعرضون سلعة بالسوق ويساومها غير التجار من المستهلكين ثم يتدخل التجار ويتزايدون فيها حتى يأخذوها بأكثر مما دفعه المشترى العادى فكيف يمكن الادعاء بعد ذلك من ان التاجر قد اخذها بأقل من ثمنها وانه لجأ الى الحطيطة .

ولنا صورة توضح لنا هذا الايراد وهى أن رب السلعة لو باع سلعته بـ ١٠ دراهم لمن لا وظيف عليه ولم يلتزم باخراج الدرهم من كل سلعة يشتريها ، ثم ان وكيلا له باع نظيرها بـ ٢٠ درهما من احد هؤلاء التجار الملتزمين لهذا الوظيف فهل فى امكان المعترض ان يقول ان الواجبعلى التاجر أنيزيد درهما على ٢٠درهما آخر مما يقدمه الى صندوق التضامن فان قال نعم فقد طلب ما لا يقبله عقل لان التاجر زاد على المشترى العادى نصف الثمن وان قال بأنه لا يزيد فقد نقض حجته من اساسها (١٦) .

القباب : ما قول المعترض فيما قاله مالك كما جاء فى كتاب ابن المواز لا بأس ان يقول الرجل للرجل كف عنى لا تزد على فى هذه السلعة ، وأما العامة اهل السوق فلا يجوز لهم ان يتفقوا جميعا على ذلك ، وفى عمل التجار ما يشبه هذا !

العقباني : لا اسلم ان التجار يمتنعون من الزيادة والواقع انهم رغم التزامهم باخراج هذا الدرهم يتزايدون فيما بينهم واذن فاين الامتناع من الزيادة المزعومة ؟

اما مسألة الموازية فانما تشمل تمالؤ اهل السوق على ترك الزيادة ومسألة النزاع يوجد فيها هذا النوع من الاتفاق .

القباب : ان البائعين مضطرون للبيع وتواطؤ التجار ثابت فكيف نبيح لهم ذلك ؟

العقباني : ليت شعرى لو قال التجار اننا لا نشترى سلع هؤلاء الحاكة بقليل ولا بكثير ولو ماتوا جوعا فهل كان يحل لاحد ان يلزمهم شراء تلك السلع ؟ ! فان لم يكلفوا بشرائها وهذا ما تتطلبه عقود البيع والمعاملات ، فكيف يلزمون بثمن معين ؟ وانما أوجب الله على الاغنياء أن يواسوا الضعفاء وأما شراء سلعهم فلا يعرف ايجاب شرائها والبيع من شروطه الطوع والاختيار ، على اننا مع هذا نقول بانه لو تمالأ اهل الوجود من بائعين ومتبايعين على ترك التعامل لما كان معطلا لامر البياعات لانها من لوازم الحياة الاجتماعية .

القباب : ان البائعين ضعفاء مضطرون للبيع بأى ثمن وجدوا والمشترين له مفضول اموال الا ما يوافق اغراضهم وبالاثمان التى يستيقنون منها جلب الارباح ، ومن بواعث المواساة التى دعا اليها الاسلام أن لا يجحفوا بحقوقهم فى البيع .

العقباني : ان امر المواساة شىء والبياعات شىء آخر الا ترى أن المسافرين قد يبيعون فى حالة الحاجة بأثمان رخيصة وتمضى عقودهم عند جميع الفقهاء ولا يقول واحد منهم ان المشترين قد ظلموهم وايضا لو تصورنا أن البائعين قد اتفقوا على اخراج درهم عن كل سلعة يبيعونها لتوظيفهم أفلا يكون المشترون ملزمين بشرائها بهذا الثمن الذى يريده

البائعون ؟ وهل يسلم المعترض فى هذه الصورة بأن الدرهم المخرج هو ملك المبتاع ام انه يزعم بأنه ملك للبائع ، فان قال لاحق للمبتاع فيه فقد نقض حجته فى مسألة النزاع وان قال أنه حقــه فقد وافقنا فى وجهة نظرنا وهذا هو المطلوب ؛ واخيرا يختم العقبانى مناظرته قائلا بأن العلامة القباب قد اذعن لحجته ، وسكت عن اثــارة اعتراضات اخرى حول فتياه ، وقد حــاول العقبانى ان يعطينا حلا لهــذه المشكلــة التى استعصت علي الانظار الفقهية أن تجد لــــها حكما قاطعا فقال : ان سر هذه المسألة ان ما يفعله التجار من مثل هذا الاتفاق ان كان غرضهم منه هو الاضرار بالحاكة البائعين فانهم يمنعون منه عملا بالمبدأ العام لا ضرر ولا ضرار ، وان كان غرضهم نفع انفسهم والضرر انما جاء تبعا غير مقصود فلا معنى لمنعهم منه .

تعليق : واذا تتبعنا هذه المناظرة بتأن وامعان استشففنا منها النشاط الذهنى لفقهاء القــرن الثامن والتحرر الفكرى الذى كانوا يمتازون به فى خوض مباحث جديدة لم يطرقها مــن سبقهم من الفقهاء ، ومحاولة الاجتهاد فى ايجاد سنــد قانونى لاباحتها أو حظرها وهذا ما تقدمه الينا هذه المناظرة الطويلة التى لخصناها فى الصفحات الماضية وهى تظهر لنا كلا الفقيهين المتناظريــن واسعى الاطلاع ، معتمدين على أعمال العقــل غير اننا نجد العقبانى طويل الباع فى جــدله ، واسع التصرف فى ايراد مختلف الحجج لتبريــر وجهة نظره القانونية المحضة ونجد القباب مــن جهة اخرى يحاول ان يدخل العنصر الانسانى فى التعاقد حتى لا يقع اجحاف على المتعاقدين وهو لا يكتفى بصورة العقد الشكلية وانما ينظر الى الغاية والنتيجة هــل تسلــم مــن نتائــج الاستغلال التى يحاربها الاسلام .

ويبدو لنا ان القباب كان يتصور بأن كل اتفاق يصدر من جماعة ما تتعامل مع جماعة اخرى قد يشوبه التواطؤ وتشمله الحرمة بالتالى ، ولكن العقبانى قد اوضح لنا بأن كل اتفاق لم يكن ضد الاخرين وانما كان لمصلحة المتفقين فهو جائز رغم ما قد يلحق أولئك من بعض الضرر غير المتعمد.

والعقبانى نجده فى هذه النتيجة يقترب مــن نظرية التعسف فى استعمال الحق وهى موجودة فى الفقه الاسلامى ولكنها لم تنسق مباحثها كمــا فعله كتاب القانون فى العصر الحديث وهــذه النظرية تنقسم الى معيــار شخصى ومعيــار مادى (١٧) والمعيار الاول يــرى اصحابــه أن التعسف لا يوجد الا اذا توافر قصد الاضــرار بالغير لدى صاحب الحق ، والمعيــار المــادى واصحابه يرون انه يتجلى فى الخروج عن الهدف الاجتماعى ، وقد استند العقبانى ــ كما رأينا فى اتفاق التجار الى أنهم لم يريدوا الاضرار بالحاكة وانما ارادوا نفع انفسهم وتخفيف وطأة الضرائب عنهــم .

ولو ذهبنا الى البحث عن صور الغبن فى هذا التعاقد لوجدنا ان هذا النوع من الغبن الذى ينصب على الباعة المنتجين ليس فيه غبن بمعناه الفقهى المعروف لان الغبن هو عبارة عن تفاوت كبير بين التزامات احد العاقدين والتزامــات العاقد الاخر ناشىء عن استغلال هذا العاقــد الاخر طيشا بينا وهوى جامحا لدى العاقد ، وحد الغبن لا يكون الا اذا بلغ الخمس (١٨) وهو ما لم يصل اليه الغبن الواقع فى قضيــة النزاع السابقة ، كما أن الاستغلال لا يوجد له اثر فى هذا التعاقــد .

واذا جارينا بعض الفقهاء حول موضــوع الغبن فانهم يقولون : ان الغبن الفاحش وحده فى العقود لا يعيب الرضا ما لم يصاحبه شىء من الخلابة وعلى هذا استقرت معظم الاجتهادات ذلك لان الغبن المجرد عن كل خديعة لا يدل الا على تقصير العاقد المغبون فى تحــرى الاسعار ومعرفة حد البدل العادل ، ولا يدل على مكر

من العاقد الاخر ، ولكل انسان ان يطلب المزيد من المنفعة بالطريق الحر المشروع دون غش واحتيال (١٩) .

ولكن على شرط ان لا يضر ذلك بالجماعة كما فى الاحتكار ، وقد انتبه العقبانى الى أن التجار لو تواطؤوا على ان يشتروا تلك السلعة المعينة لحكم على اتفاقهم بالحرمة ، ولكن انفاقهم انما انصب على اخراج نسبة مالية معينة كلما اشتريت وحدة سلعية لتوضع فى صندوق تعاونى احتياطى دفعا لمضرة متوقعة لهم لا ارادة الاضرار بالباعة رغم ما قد تنتج عنه مضرة تبعية غير مقصودة للباعة . وقد اهتدى القباب اخيرا الى أن جميع الاعتراضات التى اوردها على فتيا العقبانى لم تجد لها سندا قانونيا يدعمها ولذلك عدل عن متابعة الاعتراض كما اشار الى ذلك العقبانى فى آخر مناظرته .

على اننا رغم تقديرنا للعلاقة العقبانى فاننا نجد فى بعض حججه الطابع الجدلى الذى يستهدف افحام الخصم ، لا اظهار الحقيقة كما فى قوله : ليت شعرى لو قال التجار اننا لا نشترى سلع هؤلاء الحاكة بقليل ولا بكثير ولو ماتوا جوعا فهل كان يحل لاحد ان يلزمهم شراء تلك السلع ؟ فان لم يكلفوا بشرائها — وهذا ما تقتضيه عقود البيع الرضائية فكيف يلزمون بثمن معين ؟ وانما اوجب الله على الاغنياء ان يواسوا الضعفاء واما شراء سلعهم فلا يعرف ايجاب شرائها ؟ وفى هذه الحجة طابع جدلى والا فكيف يتأتى لهؤلاء التجار ان يتفقوا على عدم الشراء وفى هذا اضرار صريح بالباعة ؟ وايضا يقول ان المواساة لهؤلاء الباعة لا تكون بطريق الشراء ؟ ولماذا لا تكون المواساة فى تعاقد يعتمد على التعويض والحديث « بع سمحا واشتر سمحا » يشير الى هذا النوع من المواساة ، وقد تكون المواساة مع منتج ضعيف ليست لديه قدرة على التسويق افضل من اللجوء الى مواساته عن طريق الصدقة والاحسان .

وايضا فقوله لا نشترى سلع هؤلاء الحاكة ولو ماتوا جوعا — هو التزام حرفى لشكلية عقود البيع واغفال للعامل الانسانى الذى يستهدف التعامل فى الشريعة الاسلامية مما قد تدعو الضرورة — تحت تأثيره الى اغفال حكم ما عن التنفيذ كاغفال حكم السرقة فى عام المجاعة وكتضمين دية من وجد ميتا جوعا فى عرصة قوم الذى اخذ به الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وكان سعيد العقبانى قد شعر بضعف ايراداته السابقة فاستدرك ان ذلك الافتراض لا يقع لانه لو تمالأ اهل الوجود من بائعين ومتبايعين على ترك التعامل لما كان ذلك معطلا لامر البياعات لانها من ضرورات الحياة ، واخيرا نلاحظ ان هذه الخصوبة الفكرية فى الابحاث الفقهية التى لمسنا لمحات منها عند العقبانى والقباب ونلمس نظائرها لدى معاصريهم من الفقهاء كالشريف التلمسانى وابن مرزوق الخطيب وعمران البجائى والمشذالى والشاطبى وابن عرفة وعند من خلفهم من علماء القرن التاسع الهجرى قد تراجعت فى القرن العاشر وما بعده حتى صار الامثال من الفقهاء فيه هو من يحفظ النصوص من المختصرات لا غير ، واما الغوص عند دراسة الاحكام فى امهات الكتب والرجوع الى اقوال الامام مالك بدون واسطة ومحاولة الاستنباط من القرآن والسنة واعمال الفكر كما فعله العقبانى ومعاصروه فلم يكن يفكر فيه احد .

وقد تبدو الان حاجة طلاب الفقه والقانون شديدة لربط دراستهم الفقهية الحديثة بدراسات اعلام الفقه فى القديم كما قد يجدون لديهم ابحاثا طريفة وعميقة قد لا تقل او تفوق عن بعض ابحاث فقهاء العصر الحديث .

هوامش :

(١) احمد بابا السوداني التنبكتي : نيل الابتهاج . مصر ١٣٥١ هـ — ص ١٦٦
ابن مخلوف : شجرة النور الزكية ج ٢ ص ٢٢٠ —
المقرى احمد : نفح الطيب ج ٧ ص ٤٤٤
يحيى بن خلدون : بغية الرواد ج ١ ص ٧١ — ابن مريم البستان ص ١٢٢
البستاني فؤاد افرام : دائرة المعارف بيروت ١٩٥٨ م — مج ٢ ص ٣٤٩
الحفناوي : تعريف الخلف برجال السلف الجزائر ١٩٠٦ م ج ١ ص ٢٠١ — ٢١٣

(٢) نيل الابتهاج ص ٢٤٥ — شجرة النور الزكية ج ٢ ص ٢٢١ — ابن خلدون عبد الرحمن : التعريف تحقيق ابن تاويت ص ٣٣ — نفح الطيب ج ٧ ص ١٦٧ — جذوة الاقتباس لابن القاضي ج ٢ ص ٧ — بغية الرواد ج ١ ص ٦٧

(٣) نيل الابتهاج ص ٢٥٥ — البستان ص ١٦٤ — ١٨٤ والتعريف لابن خلدون — تحقيق ابن تاويت القاهرة ص ٦٢ — وبغية الرواد ج ١ ص ٥٧

(٤) السيوطي : بغية الوعاة مصر ١٣٢٦ هـ ص ١٨ — ابن فرحون الديباج المذهب مصر ١٣٥١ هـ ص ٣٠٥ — نيل الابتهاج على هامش الديباج ص ٢٦٧ — نفح الطيب ج ٣ ص ٣١١ — ٣١٩ — البستان ص ٣٠٥ — ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٦٠ — ٣٦١ — كحالة عمر رضا : معجم المؤلفين ج ٢ ص ١٥٦ — ١٥٧ . (٥) نيل الابتهاج ص ٢١٥ — ٢١٧ — بغية الرواد ج ١ ص ٧٢ — نفح نفح الطيب ج ٧ ص ١٤٨

(٦) نيل الابتهاج ص ٢٤٥ — ج ١ ص ٧٤ — ابن خلدون شجرة النور الزكية ج ٢ ص ٢٣٤

(٧) ابن مريم — البستان ص ١٠٦ — الديباج المذهب ص ١٢٤ — نيل الابتهاج ص ١٢٥ — بغية الرواد ج ١ ص ٦٠ — معجم المؤلفين لكحالة ج ٤ ص ٢٣٠

(٨) بغية الرواد ج ١ ص ٦٠ — (٩) نيل الابتهاج ص ١٢٥

(١٠) نيل الابتهاج ص ١٢٥

(١١) احمد القباب كان فقيها حافظا علامة تولى قضاء جبل الفتح ودخل غرناطة سنة ٧٦٢ هـ ومن تآليفه اختصار أحكام النظر لابن القطان اسقط فيه الدلائل والاحتجاج وشرحه على القواعد في غاية الاتقان وله مباحث مشهورة مع الامام الشاطبي في مسألة مراعاة الخلاف في المذهب احسن فيه غاية ، ويذكر عنه أنه لما حج واجتمع في تونس بابن عرفة واوقفه ابن عرفة على ما كتب من مختصره الفقهي فقال له صاحب الترجمة ما صنعت شيئا فقال له ابن عرفة : ولم ؟ فقال لانه لا يفهمه المبتدىء ولا يحتاج اليه المنتهي ، ستغير وجه الشيخ ابن عرفة والقى عليه اسئلة اجابه عنها ، وهذا ما حمل ابن عرفة على بسط العبارة في أواخر مختصره .

وأشار صاحب نيل الابتهاج الى هذه المناظرة التي وقعت بينه وبين العقباني وهناك مناظرات اخرى وقعت بينهما وقد جمعها العقباني في كتاب سماه بباب اللباب في مناظرة القباب (راجع نيل الابتهاج ص ٧٣)

(١٢) المازوني : الدرر المكنونة في نوازل مازونة مخطوط المكتبة الوطنية .
نسخ محمد بن الصديق المشرفي ١٢٤٥ هـ ج ١ الورقات ٤٧٣ — ٤٩٠

(١٣) الدرر المكنونة الورقة ٤٧٤

(١٤) المصدر السابق الورقة ٤٨٧

(١٥) المصدر السابق الورقة ٤٧٩

(١٦) المصدر السابق الورقة ٤٨٢

(١٧) هشام القاسم : المدخل الى علم الحقوق ، دمشق ١٩٦٥ ص ٢٧١

(١٨) هشام القاسم : محاضرات في القانون المدني : دمشق المطبعة الجديدة ١٩٦٨ م ١٩٦٩ م ص ١٤١

(١٩) مصطفى احمد الزرقاء : المدخل الفقهي العام بيروت . دار الفكر ١٩٥٢ م ج ١ ص ٤١٧

(٢٠) الدرر المكنونة في نوازل مازونة المصدر السابق ج ١ الورقة ٤٨٢

التعريف بتراثنا المخطوط

إعداد : رابح بونار

على بن أبى الرجال التاهرتي القيرواني

حياته : ابن ابى الرجال هو على بن ابى الرجال الشيبانى يكنى ابا الحسن وينسب الى القيروان وان لم يكن منها بل هو من مدينة تاهرت بالقطر الجزائرى كان عالما رياضيا فلكيا منجما واديبا شاعرا نشا فى قرطبة على ما يرجح ، وعاش مدة فى بلاط المعز بن باديس بتونس ومات بها بعد سنة ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ م) كما جاء فى الدائرة والارجح انه مات حوالى سنة ٤٢٥ هـ .

كان ابو الحسن هذا كافلا للمعز قبل ولايتـه الملك ثم وزيرا له بعد ان تولى ملك بنى زيرى ، وكانت منزلته لديه سامية ، ونفوذه فى البلاط عظيما فتقرب اليه الادباء والعلماء وقد اهدى اليه ابـن رشيق كتابه العمدة كما اهدى اليه ابـن شرف كتابه ((رسائل الانتقاد)) وقال فيـه الاول فى عمدته : اما بعد فان احق من جنى ثمر الالباب ، واقتطف زهر الآداب ، منتزها فى عقول الحكماء متفكها فى اقاويل العلماء كالسيد الامجد ، والفذ الاوحد حسنة الدنيا وعلم العليا ، وبانى المكارم ، وأبى المظالم ، رجل الخطب ، وفارس الكتب ابى الحسن على بن ابى الرجال الكاتب ، زعيم الكرم وواحد الفهم الذى نال الرياسة وانفرد بالبسط والقبض واتحد فى الابرام والنقض ، عن سعى مشكور ، وفضل مشهور وعلم بالموارد والمصادر، ونظر فى الاوائل والاواخر وتشبع لآثار من سلف من اهل القدر والشرف ، وتقلب فى مجالس الحكم، بين ذوى الاقدار والهمم ، الى ان صار نسيـج وحده ، وقريع دهره غير مدافع عن ذلك ، ولا منازع فيــه .

وذكر ابن رشيق عنه انه : ((اقام سوق العلم والادب ، وجعل ذكره باقيا وجده ساميا ، وايده من النصر والتوفيق، بما فيه رضا الخالق والمخلوق فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم ...)) علمــــه .

عرف الاوربيون المترجم بآثاره كما تقول الدائرة ولا سيما كتابه « البارع فى أحكام النجوم » وقد

نقله الى الاسبانية ، يهوذا بن موسى سنة ١٢٥٦ م ثم نقله من الاسبانية الى اللاتينية بطرس الرجوى وايجيديوس التبالدى فطبعت ترجمته عدة مرات منذ طبعتها الاولى بالبندقية سنة ١٣٨٥ م ، ومن هنا جاء تصحيف ابن أبى الرجال هكذا : وتصحيف كنيته أبى الحسن هكذا :

ومن آثاره العلمية على ما جاء فى دائرة المعارف
١) أرجوزة فى الاحكام الفلكية ، طبعت فى آخر كتاب كفاية الطالب فى الاحكام الفلكية لغزال الموسى وشرحها أحمد بن الحسن بن القنفذ القسنطينى سنة ١٣٧٣ هـ ، ولعل أبا الحسن هذا هو الذى اعان ابا سهل الكوفى فى الارصاد الفلكية التى أجريت فى بغداد سنة ٩٨٨ م .

وهذه هى الصورة العلمية لابى الحسن ، واما صورته الادبية فقد تكفل بتشخيصها ابن رشيق فى عمدته وقد روى لنا عنه مقطوعات شعرية يمكن دراسة شخصيته من خلال ابياتها .

كان أبو الحسن شاعرا لطيف الوجدان ، جيد الاسلوب صادق العاطفة انشأ وهو بتاهرت سنة ٤٠٥ هـ مقطوعة فى تصوير شوقه ، والتعبير عن حنينه لاهله يقول فيها :

ولى كبد مكلومة من فراقكم
اطامنها صبرا على ما اجنت
تمنتكم شوقا اليكم وصبوة
عسى الله ان يدنى لها ما تمنت
وعينى جفاها النوم واعتادها البكا
اذا عن ذكر القيروان استهلت

وعلق ابن رشيق عليها بقوله : لو أن اعرابيا تذكر نجدا فحن به الى الوطن ، أو تشوق فيه الى بعض السكن ما حسبته يزيد على ما اتى به هذا الحضرى المتأخر العصر ، وما انحط بهذا التمييز ، ولا اتنفق بهذا القول عند مولاى ولا الخديعة مما تظن به ولا فيه ، ولكن رأيت وجه الحق فعرفته ، والحق لا يتلثم . .

فى الوصف :

ويقول أبو الحسن فى وصف بلاغة احد الكتاب وجودة خطه :

١) فضل الانام بفضل علم واسع
وعلا مقالهم بفضل المنطق
٢) وحكى لناوشى الرياض وقد وشت
اقلامه بالنقش بطن المهرق

وقال ايضا فى آخر :

١) اذا نقشت يمناك فى الطرس اسطرا
حكيت بها وشى الملاء المنضد
٢) يروق مجيد الخط حسن حروفها

ويعجب منهـــا بالمقـال المســـد

وقال ايضا فى الاصطباح بالخمرة وتعاطى لذات الحياة قبل هجوم المنية (١) :

باكر الراح ودع عنـك العـذل
واسع فى الصحة من قبل العلـل
واغتنـم لـذة يـوم عاجـل
فالمنايـا ضاحكـات بالامـل
ما تـرى الساقى كشمس طلعت
تحمل المريخ فى بـرج الحمـل
مائسا كالغصن فى دعـص نقـا
فاتـن المقلـة زينت بالكحـل

فى الغـــزل :

وانشا أبو الحسن فى الغزل مقطوعات جيدة وهى رغم ماديتها نجد فيها نفسا روحيا رقيقـا ومعانى لطيفة ومنها قوله :

خليلى ان لم تساعدانى فاقصرا
فليس يداوى بالعتـاب المتيـم
تريدان منى النسك فى غير حينـه
وغصنى ريـان وراسى اسحـم

وقال من مقطوعة يتغزل فيها بفتاة حضريـة وهى كما يقول ابن رشيق ذات طبع رقيق ومعانى رقيقة مؤثرة فى النفس والقلب :

١) غراء واضحة ينوس بقرطهـا
جيد حكى جيد الغـزال الاعنـق
٢) صدت فاغرت بالسجوم مدامعى
والعين تذرف بالدمـوع السبـق
٣) تشكو البعاد اذا بعدت تصبـرا
وان ارتجعت الى الزيـارة تفـرق
٤) ولقد يبيت اخو المـودة لائمـى
فى حبهـا لـوم الشفيـق المشفـق
٥) حتى اذا طلعت فابصر شخصها
اخزى جهالـة لائمـى المستحمـق
٦) كم قطعت بوصلهـا مـن ليلـة
وبشرب صـافية كلـون الزئبـق
٧) يسعى بها كالبدر ليلـة تمـه
سحار الحـاظ رخيـم المنطـق
٨) آليت اترك ذا وتلك وهـــذه
حتى يفـارقنى سـواد المنطـق

فى الشكوى من الدهر واهله :

وحينما تنكر الدهر له تضجر وتألم وسخط على معاصريه وعصره فقال شاكيا داعيا الـى الزهد والمثاب :

١) امس الزمان زمانـة العقـل
فاخش الالـه وحـل عن الجهـل
٢) واعلم بان فى الحسـاب غـدا
تجزى بما قـدمت مـن فعـل

وقال ايضـــا :

١) ايارب ان الناس لا ينصفوننى
ولم يحسنـوا قرضى عـلى حسناتى
٢) اذا ما راونى فى رخـاء ترددوا
الى واعـدائى لـدى الازمـــات
٣) ومهما اكن فى نعمة حزنوا لهـا
ذوو انفـس فى شـدة جـذلات
٤) ثقاتى ما دامت صلاتى لديهـم
وان عنهـم اخرتهـا فعداتـى
٥) سامنع قلبى ان يحـن اليهـم
واصرف عنهـم قاليـا لحظاتـى
٦) والزم نفسى الصبر ابـا لعلنى
اعايـش ما املت قبـل مماتـى
٧) الا انما الدنيا كفـاف وصحـة
وامن ثـلاث هـن طيب حياتـى

فى الفخر بقبيلته : وقال يفخر بقبيلته شيبان ، ويشيد بأمجادها منذ القديم :

١) يا آل شيبان لا تحارث نجومكم

ولا خبت ناركم من بعـــد توقيـــد

٢) انتم دعائم هذا الملك مذ ركضت

قبل الخيـول لابـرام وتوكيـــد

٣) سيوفكم افقدت كسرى مرازبـه

فى يوم ذى قار اذ جـاؤوا لموعـود

فى العتاب والهجاء : ويعتب على بعض اصدقائه فيلومه لوما خفيفا وتديهجوه ولكن هجوه لا يتعدى النقد البرىء فيقول :

١) وابنى لاطرى كل خل صحبتـه

وانت ترى شتمى بغـير حيـاء ؟

٢) ستعلم يوما ما اسات لصاحب

بكـرم اخـلاقى وحسـن وفـائى

هذه نبذة عن ترجمة ابن ابى الرجال تقدم الينا صورة موجزة عن حياته الادبية اللامعة ، وهناك وجه آخر لابن ابى الرجال قد امتاز به فى بـلاط القيروان عن معاصريه وهو جانبه العلمى الذى تفوق به على معاصريه هناك ، وقد اشرنا فى مطلع هذه الترجمة الى ان المترجم كان عالما باحثا فى النجوم ، وقد ترك لنا فى الموضوع كتابا جليلا هو كتاب البارع فى احكام النجوم الذى ترجم الى عدة لغات ، واعتبر تراثا جليلا انتجته عبقرية مغربية فى العصر الوسيط .

والكتاب توجد منه نسخة بالمكتبة الوطنية تحت رقم ١٥١٦ خطها شرقى جميل ، ومسطرتها ٢٩ سطرا ، وحجمها ١٩٠ / ٢٦٠ ملم .

ونجد فى الصفحة الاولى من النسخـة نـص تحبيس محمد بن حسن خوجة لها عـلى اولاده ثم على جامع كيتشاوة بتاريخ اواسط جمـادى الثانية لعام ١٢٣٩ هـ . والمؤلف يقول فى مقدمة كتابه : هذا كتاب جمعت فيه من معانى فى علـم النجوم ، وغرائب اسوارها ، واخترته من علوم علمائها ، واضفت اليه تجربتـى ، وان كـانت النجوم اكثر واعظم من أن يحاط بها ، او يقدر العالم على ايضاح جميعها . ثم اخذ يذكر اقسام الكتاب وابوابه فى ترتيب منطقى ، وباسلـوب أدبى خفيف .

والكتاب يعتبر من ذخائر تراثنا الفكرى تزدان به مكتبتنا ، وتسمو به أصالتنا فى مجال الابداع العلمى والحضارى .

ولاشك ان هذا سيحفزنا على أن نولى هـذا الكتاب ما يستحقه من عناية واهتمام ونحن فى فترة احياء تراثنا الوطنى والعمل عـلى اعـادة المقومات الاساسية لشخصيتنا واصالتنا .

(١) دائرة المعارف لفؤاد افرام البستانى ج ٢ ص ٣١٠ — العمدة لابن رشيق ط ٢ مصر سنة ١٩٥٥ ج ١ ص ١٥
(٢) المنتخبات لحسن حسنى عبد الوهاب ص ٧٦ . (٢) العمدة ج ١ ص ٤٤ .
(٣) العمدة ج ٢ ص ١١٠ .



رابح بونار

تمهيـــد :

تعترض كل دارس للتاريخ ظاهرة غريبة وطريفة وهى ظاهرة التشابه بين نشأة المدينة وتايخ تطورها وعمرها الزمنى ، وبين نشأة الانسان وحيـــاته واجتيازها بمراحل زمنية طبيعية محددة فى سجل الوجـــود .

وقد نجد هذا التشابه حتى فيما يتصل ببعض الخصائص النفسية من سعادة وشقاء ، وازدهـار وانكماش ، وقوة وضعف ، وهذا ما نلاحظه عنـــد دراستنا لبعض المدن التى برزت على مسرح الحياة السياسية والاجتماعية بالقطر الجزائرى ثم تراجـــع امرها ، وانحسر مدها ، أو انقرضت من الوجـــود تأسست فى منتصف القرن الثانى الهجرى،واستبحر عمرانها ، وخدمها السعد حينا ثم اعترتها الشيخوخة والانقراض فى منتصف القرن السابع الهجرى .

وكذلك مدينة طبنة التى مثلت دورا كبيرا فى عهد الولاة ثم تلاشى امرها بعد القرن الخامس الهجرى وكذلك مدينة « قلعة بنى حماد » التى تركز فيها مجد بنى حماد فى القرنين الخامس والسادس ثم أسدل الزمن عليها ستار العفاء والاندثار .

وعلى العكس من ذلك فقد كانت هناك مدن ثانوية فى العصر الاسلامى لم يكن لها ما تستحقه من عمران وازدهار حضارى ، ثم لم تلبث أن بزغ فجر سعادتها ، واشرقت شمس حضارتها وعمرانها، وخدمها السعد فى جميع مجالاتها الحيوية .

وهذا ما ينطبق على كثير من مدننا التاريخية التى كان لها جلال وصيت فى القديم ، ثم ازدادت جلالا ورقيا فى مسيرتها الزمنية الطويلة ، ونجد فى طليعة هذه المدن « الجزائر » العاصمة ، ثم تليها مدن تاريخية اخرى كوهران وقسنطينة وعنابة وتلمسان والمدية ومليانة وبسكرة وبجاية وغيرها .

وقد اخترنا فى هذه الكلمة ان نتناول مدينة الجزائر العامرة بالدرس والتحليل ، وان نتناولها من جانبها التاريخى والسياسى ، ومن جانبها العمرانى والمعمارى واخيرا نتناولها من جانبها العلمى والثقافى .

(1)

روعة وجمال :

ان «الجزائر» عروس البحر الابيض المتوسط بحق ، وهى منارة جلاله ، ومسرح آنسه وملتقى حضاراته .

واذا قدر لزائرها أن يصعد الى جبل بوزريعة الذى يحتضنها كما تحتضن الام الرؤوم ولدها ، ويلقى بصره الفاحص على مبانيها وعماراتها بدت له المدينة فى شكل مثلث هندسى بديع تنحدر مبانيها من أعلى القصبة الى أن تنبسط على حافة البحر الذى يداعبها بأمواجه فى كل آونة ، وبدت له منارات مساجدها مرتفعة وضاءة ترسل بأشعتها الوهاجة ، وبنغمات مؤذنيها المدوية الى الآفاق فتخلب الالباب ، وتحسر العيون وتطرب الآذان .

واذا نظر اليها من الحراش خيل اليه أنه يرى نسرا طويل الجناحين يتحفز ليطير بعد أن كان جاثما بسفح جبل بوزريعة ، وقد استطال جناحاه حتى غطيا ما بين حى «سانت أوجين» وحى «سلام باى»

واذا رآها ليلا من بعيد فان مشاعره تستغرقها نشوة من الاعجاب والاجلال ، وان تفكيره تستهويه عظمتها وجلالتها التاريخى ، ومعالم حضارتها .

تاسيسها وتاريخها :

ان تاريخ المدينة يمثل مرحلتين منفصلتين فهناك تاريخ تاسيسها القديم الذى يعود الى العهد الفينيقى ، والى ما بعد تأسيس «قرطاجنة» سنة 814 ق م (1) حيث انتشر الفينيقيون بسواحل المغرب كله وأسسوا مراسيه ، ومنها مرسى الجزائر «ايكسيم» ، وهناك تاريخ حديث لها فى العهد الاسلامى وهو الذى أسبغ عليها طابعها الخاص ، وأبقى على معالم حضارتها التاريخية ، ويبتدىء ذلك بتاريخ تأسيسها الثانى على يد بلكين بن زيرى - سنة 339 هـ = 950 م وقد مر عليها منذ تأسيسها الى الآن 1053 سنة .

1) دائرة المعارف الاسلامية ج 6 ص 407 - نور الدين عبد القادر صفحات من تاريخ الجزائر ص 14 - 15

ومن عوامل الاحتفاء بها أن تقام لها ذكرى مرور عشرة قرون ونصف ، وان ينوه ببعض معـالمها التاريخية التى ماتزال تحتفظ بطابع العهد الزيرى الحمادى الذى أسست فيه كالجامع العتيـق الذى يعود الى فترة التأسيس .

نظـرة تاريخيـة :

ان الجزائر لا يعرف عنها شيء كثير فى العهـد الفينيقى وانما يعرف عنها انها أسست فى هـذه الفترة بعد تأسيس قرطاجنة سنة 814 ق م .

وأطلق عليها الفينيقيون اسم «ايكسم» ثم جاء الرومان ، وأطلقوا اسم ايكوزيوم أى مدينة العشرين لان الخرافة التاريخية تقول : ان هرقل الليبى قد مر بها مع أصحابه وكان عددهم عشرين فسميت المدينة باسمهم العددى ، وهناك من ذهب الى أن اسم المدينة هو «ايكسم» استنـادا الى العملة التى عثر عليها فى حفريات سنة 1940 ، ومعنى هذا الاسم انها جزيرة الشوك أو جزيرة الطير ، وهذا الاطلاق أقرب الى الصواب (2) .

فى العهـد الرومـانى :

(146 ق م – 429 م) وتقدمت مدينة الجـزائر وكانت لها فى القرن الاول مشيخة تحكمها كما كانت فيها كنيسة ، وأسقفة ، وبقيت آثار هذه الكنيسة الى القرن الخامس على ما ذكره البكرى ، ولما ثـار الوطنى فيرموس على الرومان بالقبائل الكبرى احتل مدينة الجزائر سنة 373 م وبعد انهزامه أمامهـم عادت المدينة الى حكم الرومان .

وشارك أسقفها فيكتور فى المجمع الذى انعقـد بقرطاجنة بأمر من الملك الوندالى هنريك عـام 484 م ، ثم تضاءل أمرها فى العهد البيزنطى .

فى العهـد الاسـلامى :

ولما ظهرت الدعـوة الاسلامية بمكـة والمـدينة واستقر أمر المسلمين فكر الخليفة الثالث فى فتح شمال افريقيا ، وبعث جيشا بقيادة عبد الله بـن سعد ابن أبى سرح ، وفتح افريقية ، ثم عـاد الى المشرق وترددت الجيوش الاسلامية بعد ذلك على شمال افريقية حتى فتحت أراضيه كلها ، ويرجح أن الجزائر فتحت ما بين سنتى 88 – 95 هـ عـلى عهد ولاية موسى بن نصير ، وحينما فتحها المسلمون لم يجدوا بها الا أطلالا ماثلة لما مر عليها من فتـن وخراب فى العهدين الوندالى والبيزنطى ، وأهمـل المسلمون الاوائل أمرها لعزوفهم عن سكنى المدن السـاحلية .

فى العهدين الفاطمى والزيرى – الحمادى :

ولما قامت الدولة الفاطمية أواخر القرن الثالث الهجرى (296 هـ) وهى دولة معمارية أخذ التفكير فى تأسيس المدن أو تجديدها يزداد ويقوى ، وكان عاملهم على الجهة الغربية وهو زيرى بن مناد متأثرا بهذا الاتجاه المعمارى فأسس مدينة أشير فى أوائل القرن الرابع الهجرى .

ثم أذن لولده وولى عهـده بلكـين بن زيرى أن يؤسس المدن الثلاث : الجـزائر والمـدية ومليانة . وأسس «الجزائر» سنة 339 هـ كما أسس المدينتين

2) صفحات من تاريخ الجزائر لنور الدين عبد القادر ص 14 – 15

الاحريين حوالى هذا التاريخ .

وبعد تأسيس مدينة الجزائر نسبت الى قبيلة بربرية كانت تنزل بجوارها وهى قبيلة مزغنة الصنهاجية فقيل فى الجزائر جزائر بنى مزغنة .

وحكم الحماديون بعد ذلك مدينة الجزائر ـ حينما استقلوا بالجهة الغربية لامارة بنى زيرى ـ ودامت تحت حكمهم حتى سقطت دولتهم سنة 547 هـ .

وصارت الجزائر فى هذا العهد مدينة تجارية هامة وعاد مرساها مرفأ بحريا ممتازا , وكان أسطول الحماديين يتردد عليه كثيرا ويؤثره على غيره من المراسى .

ويذكر أبو راس : ان يحيى بن عبد العزيز الحمادى قد استقبل الحسن الزيرى لما تغلب النورمان على عاصمة المهدية بتونس ولجأ اليه , فأنزله مدينة الجزائر مع أخيه القائد واليها , ولما هاجم عبد المومن مملكة الحماديين نازل الجزائر أولا واحتلها , ونقل الحسن الزيرى منها الى المغرب, ثم زحف منها الى بجاية واحتلها أيضا سنة 547 هـ

فى العهد الموحدى :

(547 ـ 626 هـ) عادت الجزائر فى هذا العهد مدينة تابعة لولاية بجاية , ونعمت بالرخاء والازدهار الاقتصادى حتى اندلعت ثورة بنى غانية سنة 581 هـ فتعرضت المدينة لاحتلالهم المتكرر حوالى سنة 623 هـ وما بعدها .

فى العهدين : الحفصى والزيانى (626 ـ 922 هـ) :

ولما تقلص نفوذ الموحدين عن المغرب المتوسط انتهز أبو زكريا, الحفصى الفرصة حوالى سنة 626 هـ واحتل مدينة الجزائر كما احتل بجاية , وصارت المدينة تابعة له وللحكم الحفصى بتونس وبجاية حينا , ثم انتهز سكانها الفرصة فاستقلوا بحكم مدينتهم من عام 662 هـ الى عام 676 هـ .

وظهرت بها امارة صنهاجية , وهى امارة مليكش التى مر بها العبدرى , وهجا أميرها حوالى سنة 688 ثم عادت المدينة الى حكم الحفصيين , واعترفت بالتبعية السياسية لهم , ولكنها لم تلبث أن تنكرت لهم تحت زعامة ابن علان أميرها , واستقل هذا بأمرها مدة 14 سنة .

وكانت الدولة الزيانية قد استفحل نفوذها تحت حكم ابى حمو الاول (707 ـ 718 هـ) فنازلها بجيوشه واحتلها , والحقها بحكم تلمسان سنة 712 هـ ودامت تابعة لبنى زيان الى أن سقطت دولتهم على يدى ابى الحسن المرينى سنة 737 هـ ثم صارت تابعة له وللمرينيين بعده

وبعد قيام دولة أبى حمو الثانى سنة 760 هـ استرد هذا الامير «الجزائر» وحاول سالم التومى أن يتمرد عليه , وان يستقل بالمدينة فكاده واعتقله ثم قتله واستراح من تلونه .

مدينة الجزائر تتحول الى جمهورية ارستوقراطية :

وظلت مدينة «الجزائر» تابعة للزيانيين مرة وللحفصيين أخرى الى ان استقلت بأمرها أواخر القرن التاسع الهجرى وعادت أشبه ما تكون بجمهورية اريستوقراطية يديرها مجلس مؤلف من أعيان المدينة تحت حماية الثعالبة , وكان العالم الجليل الشيخ عبد الرحمن الثعالبى أحد رجال حكمها وشوراها .

وبعد وفاة الشيخ عبد الرحمن سنة 875 هـ عاشت المدينة تحت نفوذ الثعالبة ، وتولى حكمها شيخهم سالم التومى ، وتعرضت المدينة فى أوائل القرن العاشر لهجومات الاسبان مما اضطر سالم التومى الى الاستنجاد بالتركيين المجاهدين : عروج وخير الدين ، وكانا قد استقرا بمدينة جيجل واستدعاهما للقدوم الى الجزائر لمحاربة الاسبان ومدافعتهم عن المدينة ، وبذلك تبدأ المدينة مرحلة جديدة هامة من حياتها .

وصف المدينة من خلال ماكتبه عنها الرحالون :

يذكر ابن حوقل فى القرن الرابع أن المدينة كانت مسورة ، وكان بها أسواق كثيرة ، ومزارع متعددة ، ومواش متعددة وكانت تنتج السمن والعسل بوفرة .

ويذكر البكرى فى القرن الخامس ان المدينة كان بها آثار قديمة ومنها بقايا كنيسة عتيقة كانت فيها .

ويذكر الادريسى فى منتصف القرن السادس ان التجارة فى المدينة كانت رابحة ، وان صناعاتها كانت مزدهرة كما ان انتاج العسل والسمن فيها كثيرا يتزود به منها الى البلدان .

ولاحظ صاحب الاستبصار فى القرن السادس ما لاحظه الادريسى قبله .

وتحدث أبو الفداء عن ازدهار تجارتها وتقدم اقتصادها فى القرن الثامن الهجرى (3) .

فى العهد التركى (922 ـ 1245 هـ) :

وهو عهد طويل يستغرق نحو 323 سنة ، وفيه عادت المدينة عاصمة للقطر الجزائرى كله ، يرسل منها الباشوات والدايات أوامرهم الى ولايات القطر كله ، وكانت تضم ادارات الحكومة ، وأجهزة السلطة المركزية ، واتسع حجم المدينة فى هذا العهد ، واستبحر عمرانها ، وبلغ عددها أحيانا 150 الف نسمة ، وصار شكلها اشبه ما يكون بمثلث هندسى (4) وكانت الجهة العليا منها مشحونة بالسكان من عامة الشعب .

أما الجهة السفلى المواجهة للبحر منها فقد كانت مركز سكنى الباشا أو الداى ، ورؤساء البحر وأصحاب الثروة ، وقناصل الدول الاجنبية .

وكان يحيط بالمدينة سور ينحدر من القصبة الى البحرما بين باب الواد حيث موقع ثانوية الامير عبد القادر الآن ، وما بين المسرح البلدى الذى يحاذى باب عزون (5) ، وكانت عناصر سكانها تتألف من بربر صنهاجة كبنى مزغنة أهلها الاصليين ، ومن العرب الثعالبة وغيرهم ، ومن الاتراك الذين جاء بهم عروج وخير الدين أو من الوافدين عليها بعد ذلك ، ومن مولديهم بعد تزوجهم بالاهليات .

وكان فيها الى جانب هؤلاء السكان طوائف من الزنوج واليهود والمسيحيين .

3) أبو الفداء اسماعيل : تقويم البلدان ص 125 ـ صفحات فى تاريخ الجزائر ص 127
4) صفحات فى تاريخ الجزائر ص 127
5) المصدر السابق ص 127
6) المصدر السابق ص 138

حكامها الاتـــراك :

لما تعرضت المدينة أوائل القرن العاشر لهجومات الاسبان الذين احتلوا مدينة وهران ومرساها اضطر شيخها سالم التومي الى دفع أتاوة لهم . ورأى بعد حين أن النجاة من غزوهم لا يتأتى الا بالاستعانـــة بالاخوين التركيين عروج وخير الدين . واستقدمهما سالم التومي واهل المدينة وجاء الاخوان اليهـــا سنة 922 هـ . وبدءا معا حياة كفاح وجهـاد مـرير . وحاربا الاسبان بمعونة الجيش الوطني في مواقـع مختلفة . واستشهد عروج في مدافعتهم بتلمسان . وبقي خير الدين أميرا على الجزائر ثم ألحق امارته بالدولة العثمانية وبذلك دخلت المدينة في طـور جـديد . واكتسبت طابع قوة حربية ، وصيتـا حربيا وسياسيا واسعـا بحـوض البحر الابيـض المتوسط .وتعاقب على الحكم فيها خلفاء خير الدين كحسن آغا (1533 ـ 1544 م) الذى صد حملة بحرية كبيرة زحف بها الاسبان الى المدينة ليحتلوهـا . واندحروا أمام أسوارها . وقوة دفاعها (7) وأصبحت المدينة بعد هذا الانتصار ـ كما يقول محمـد ابن رقية « تختال في حليها وحللها من رخـاء الاسعار ، وأمـان الاقطار . وشـاع انتصارها في مشارق الارض ومغاربها » وكان اسطولها القـوى يمخر عباب البحر الابيض المتوسط .

وقد نبغ في البحرية من القادة المشاهير عـلى بتشيني وقلج على . والرايس حميدو . وغيرهم .

وقد اشتهر من داياتها السياسيين الحازمين :

1) خير الدين باشا

2) حسن آغـا (1544 ـ 1573 م)

3) حسن باشا بن خير الدين (1544 ـ 1568 م)

4) قلج على (1568 ـ 1571 م) وكان قائدا حربيا بحريا كبيرا .

واشتهر من داياتها :

ـ على بتشيني الذى اسس مسجـده الشهير بنهج باب الواد

ـ رمضان آغا الذى شرع في تأسيس جامـع الحواتين أو الجامع الجديد (1660 ـ 1661 م)

ـ محمد بكتـاش باشـا (1707 ـ 1710 م) الذى اشتهر بتشجيعه للحركة العلمية وبفتحـه لمدينة وهران الفتح الاول

ـ محمد عثمان باشا (1766 ـ 1791 م) وهـو أعظم دايات الجزائر . وقد صد حملات عديدة للاسبان على مدينة الجزائر ، واستطـاع أن يفتح مدينة وهران على يد واليه على المقاطعة الوهرانية محمد باى الكبـير

ـ وآخر هؤلاء الدايات هو حسين باشا (1818 ـ 1830 م) . وقد وقع احتلال الفرنسيين للمدينة على عهده في 5 جوليت سنة 1830 م .

وخضعت المـدينة بعد ذلك لاحتـلال مرير دام من سنة 1830 الى سنة 1962 م .

المدينة تحت الاحتلال الفرنسي :

حكم الفرنسيون المدينة حكما عسكريا ثـم

7) صفحات في تاريخ مدينة الجزائر ص 55 ـ توفيق المدني : محمد عثمان باشا ص 29 ـ محمد بن رقية التلمساني : الزهـرة النيرة ، نشر سليم بابا عمرو ص 19

حوله الى حكم مدني بعد حين وحاول الثائر المقراني أن يسترد المدينة من يد الفرنسيين في ثورته سنة 1871 م ولكنه لم ينجح في ذلك لاسباب مختلفة (8)

ثم ظهرت فيها ضروب من المقاومات السياسية الشعبية كحركة الامير خالد عقب الحرب العالمية الاولى ، ونشاط حزب الشعب منذ سنة 1936 م ، وجهود جمعية العلماء منذ سنة 1931 م وحركة أحباب البيان والحرية التي خلفت حركة النواب ، وكان مركز هذه الحركات التحررية هو مدينة الجزائر .

كما كانت نواة جبهة التحرير الوطني الاولى لتنظيم الثورة المباركة التي اندلعت في غرة نوفمبر سنة 1954 م — منبعثة منها ، وشهدت المدينة بعد ذلك معارك عنيفة ضارية ، وضروبا من الفداء والاستبسال في القصبة وبلكور وباب الواد وغيرها من أحيائها المختلفة ، الى أن جاد الله بالاستقلال المنشود سنة 1962 م وتحققت أماني الشعب بعد ضروب من التضحية والجهاد التي دامت نحو ثماني سنوات . وبعد أن ضحى الشعب فيها بمليون ونصف مليون شهيد .

المدينة في عهد الاستقلال :

وشهدت المدينة قيام الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية ، واستأنفت حياة جديدة كلها عزة وكرامة ورقي . وازدهرت تجارتها واستبحر عمرانها ، وكثر سكانها حتى بلغ عددهم الآن مايربو على مليون ونصف مليون .

وهي الآن تسير بخطى فسيحة في نشاطها المعماري وتزهو باشتمالها على الادارات المركزية للحكومة وعلى المؤسسات الثقافية العالية لمختلف الدراسات العلمية وعلى المتاجر الواسعة والمعامل المتعددة والمؤسسات الرحبة كما تزهو بكثرة أحيائها واتساع رقعتها التي تكاد تبتلع ما جاورها من الضواحي لتحيلها الى أجزاء فرعية منها .

(2)

الحركة المعمارية في المدينة :

تبتدىء الحركة المعمارية في الجزائر بتاريخ تأسيس المدينة على يد بلكين بن زيري سنة 339هـ ولكن آثار هذا العهد الزيري والحمادي لم يبق منها الا الجامع الكبير الذي يعود تاريخ تأسيسه الى سنة 490 هـ — 1097 م ، وكذلك جامع سيدي رمضان الذي يعود تاريخ تأسيسه الى هذا العهد . وكلاهما يمثل الفن المعماري البسيط ولكنه رغم بساطته يتسم بالروعة والابداع .

أما في العصر التركي فقد لبست المدينة حلة معمارية قشيبة بمساجدها الزاهرة ، ومآذنها العالية وحصونها العاتية ، وقصورها الخلابة .

وقد لاحظ جورج مارسي : ان أول ما يلفت انتباه المسافر عند ما يحل بأرض الجزائر هو الوجود التركي الذي يتجلى فيما تركوه من آثار معمارية زاهية (9) . والفن المعماري للجزائر على عهد الاتراك يمتاز بالنقش والزخرفة وضروب الابداع الفني ، وتمثل المساجد والزوايا والمعابد جزءا كبيرا من هذا الفن المعماري ، وقد بلغ عددها في

8) توفيق المدني : كتاب الجزائر ص 53 — محمد الميلي وعبد الله شريط : الجزائر في مرآة التاريخ ص 207
9) وزارة الاخبار : المساجد في الجزائر 1970 م ص 45

العصر التركي حسب ما جاء في وثيقة عثرنا عليها بقسم الوثائق تحت رقم 350 نحو 98 مسجدا وزاوية

ويذكر هايدى انه كان بالجزائر عقب الاحتلال الفرنسى 13 مسجدا كبيرا ، و 109 مسجدا صغيرا و 32 معبدا ، و 12 زاوية (10) ، وقد اندثر جل هذه المساجد والزوايا بعد مدة قليلة من الاحتلال الفرنسى تحت ستار توسيع الطرقات وتنظيمها وتحت ستار أسباب أخرى لا مبرر لها .

ويبدو الفن المعمارى فى المساجد الباقية كما فى الجامع الجديد الذى بنى سنة 1070 هـ — 1660م وهو يمتاز بمنارته التى كان يبلغ ارتفاعها 29,5 م ثم صار ارتفاعها بعد الردم 25 م ، وبالزخرفة البديعة التى تعلوها ، كما يمتاز بمحرابه المزخرف بضروب النقش الجميل . ويمتاز أيضا بمنبره المصنوع فى ايطاليا ، والحافل بضروب الاناقة والجمال .

وجامع القائد صفر وهو يعود تاريخ تأسيسها الاول الى سنة 940 هـ وأعيد بناؤه سنة 1242 هـ .

وجامع كيتشاوة الذى أسس سنة 1209 هـ — 1794 م وهو يشتمل على آيات الفن المعمارى البديع.

وجامع على بتشيني وقد أسس حوالى سنة 1031 هـ — 1622 م وهو يشتمل على شواهد الفن المعمارى الرائع وصحنه المربع الكبير وهو يمثل روعة فنية لا نظير لها ، ويزيده جمالا قببه المثمنة الاضلاع والمرتكزة على دعائم غليظة وما تشتمل عليه من آيات الفن المعمارى التى تسحر الابصار ، وتخلب الالباب (11) .

(3)

حياة « الجزائر » الثقافية :

حياة المدينة العلمية والثقافية منذ تأسيسها على يد بلكين الى الآن هى حياة خصبة متعددة الجوانب متنوعة الموضوعات ، ونحن فى هذه الكلمة نحاول أن نلقى أضواء خاطفة على لمحات من هذه الحياة الثقافة لان التوسع فيها يستوجب تاليف كتاب خاص بها . وقد نبغ فى هذه المدينة في مختلف عصورها أعلام فى الفقه والآداب والدراسات الدينية والتصوف والكلام والطب ، على أن الواقع يدعونا الى أن نؤكد أن جل من نبغ فيها كان من الفقهاء والمتصوفة أو من الادباء الكتاب والشعراء .

وكانت مراكز التعليم خلال هذه الفترة هى المساجد التى كانت تؤدى دورا تعليميا من جهة ، ودورا تعبديا من جهة أخرى ، وكانت الزوايا تقوم بهذا الدور أيضا ، والى جانبها نجد الكتاب القرآنى ويدعى فى الجزائر بالمسيد « تصغير المسجد » وهو عبارة عن مدرسة ابتدائية يتعلم فيها التلاميذ القراءة والكتابة ويحفظون القرآن الكريم وقراءاته المروية أما نبغاء هذه المدينة فاننا سنذكرهم حسب ترتيبهم الزمنى ونذكر كلمة موجزة عن كل واحد منهم .

1 — أبو محمد بن أحمد بن فرج الجزائرى المتوفى سنة 368 هـ وكان راوية للحديث (12) .

10) المصدر السابق ص 46

11) المصدر السابق ص 50

12) ياقوت معجم البلدان مج 2 ص 132

ونبغ فيها في القرنين السادس والسابع :

2 ـ عبد الرحمن بن السطاح المتوفى سنة 629 هـ ببجاية وكان أديبا فقيها (13) .

3 ـ وعبد الله بن حجاج بن يوسف الجزائرى وكان نحويا فقيها روى عن الجزولى وغيره وتوفى ببجاية سنة 640 هـ (14) .

4 ـ وأبو محمد عبد المنعم الجزائرى وأخذ عن ابن منداس الجزائرى ، واشتهر بالشعر والترسل الديوانى وتوفى سنة 680 هـ (15) .

5 ـ وأبو عبد الله محمد بن العطار الجزائرى شاعر المدائح النبوية (16) ، ومن شعره قوله :

اهدت لنا طيب الروائح يثرب
فهبوبها عند النسيم يطرب
رقت فرق من الصبابة و الأسى
قلب بنيران البعاد يعذب
شوقا الى أسنى نبى حبه
كنز النجاة فنعم هذا المطلب

6 ـ ومحمد بن منداس المتوفى سنة 643 هـ وكان أديبا لغويا ومحدثا .

7 ـ ومحمد بن أحمد الاريسى المعروف بالجزائرى وكان كاتبا بارعا شاعرا ، ومن شعره قوله :

أدرها فقد هبت نسيمة دارين
ونم بسر الروض نشر الرياحين

وقوله من قصيدة أخرى :

لعلك بعد الهجر تسمح يا بدر
بوصل فقد أودى بمهجتى الهجر (17)

ونبغ فيها بالقرن الثامن :

8 ـ محمد بن حسن اليحصبى البرونى الذى حاز رياسة الفقه فى القرن الثامن بمدينة الجزائر ، وانتقل بدعوى من أبى حمو الثانى الى تلمسان ، ومات بها فى أواخر القرن الثامن الهجرى .

ونبغ فى القرن التاسع أعلام فى الفقه والتصوف والكلام ، من أشهرهم :

9 ـ عبد الرحمن الثعالبى صاحب المؤلفات الكثيرة الذى ولد سنة 785 هـ والمتوفى سنة 875 هـ وقد اشتهر بمؤلفاته الجليلة فى التفسير والوعظ والفقه والتراجم والتصوف ونحوها (18)

10 ـ وشيخه ابوجمعة وكان مشهورا بعلمه وتقواه (19) .

11 ـ وأحمد بن عبد الله الجزائرى الزواوى ، وكان فقيها متكلما ، وأديبا شاعرا ، وقد اشتهر بلاميته فى التوحيد ، وكان صديقا للثعالبى ، وقد رثاه بعد وفاته بقصيدة مطلعها :

لقد جزعت نفسى لفقد أحبتى
وحق لها من مثل ذلك تجزع

13) الحفناوى : تعريف الخلف ج 2 ص 198 ـ الغبرينى : عنوان الدراية ص 156
14) المصدر السابق ج 2 ص 232 ـ عنوان الدراية 145
15) المصدر السابق ج 2 ص 247 ـ عنوان الدراية 145
16) المقرى نفح الطيب ج 10 ص 327
17) عنوان الدراية ص 202 ـ 211
18) تعريف الخلف ج 1 ص 63
19) صفحات من تاريخ الجزائر ص 240 ـ تعريف الخلف ج 2 ص 470

وتوفى سنة 884 هـ (20) .

في العصـــر التـــركي :

ونبغ في هذا العصر كثير من العلماء والادبـــاء في قرونه الثلاثة ، ومن أشهر من نبغ فيه :

12 – سيدى محمد الشريف الزهار دفين الجزائر المتوفى سنة 948 هـ وكان تلميذا لسيدى أحمـــد ابن يوسف الملياني الصوفي الكبير (21) .

13 – والشيخ محمد بن علي الخروبي الطرابلسي نزيل الجزائر ودفينها وكان محدثا فقيها صوفيـا وتولى السفارة عن باشا الجزائر الى المغرب وتوفى سنة 963 هـ وله كتب في التصوف (22) .

14 – والشيخ أبوالحسن علي بن عبد الله الانصاري السلجلماسي الذي استقر بمدينة الجزائر وتـولى التدريس بمساجدها وتخرج عليه طلبة كثيرون ، منهم سعيد قدورة ، وترك مؤلفات متعددة وتوفـى سنة 1057 هـ .

15 – وأبو عثمان سعيد قدورة الذي أخـذ عـن شيوخ الجزائر وتلمسان وتولى الفتوى والتـدريس بالجامع الاعظم وتوفى سنة 1066 هـ ودفن بزاوية الشيخ أحمد بن عبد الله الجزائري الصوفي ، وله شرح على متن السلم للاخضري ، وشرح على عقيـدة السنوسي ، وتوفى سنة 1080 هـ (23) .

16 – وأبو مهدى عيسى الثعالبي الجزائري الذي ترجم له المحبي وأثنى عليه كثيرا والشيخ البابـلي كان يقول فيه ما وصل الينا من المغرب أحفظ من المقرى ولا أذكى منك ، وتوفى سنة 1080 هـ (24) .

17 – والشيخ محمد بن علي وكان عالما جليلا ، وتوفى سنة 1093 هـ .

18 – والعلامة يحيى الشاوى الذى نشأ بالجزائر وأخذ بها عن سعيد قدورة وعلي بن عبد الواحـــد الانصاري السجلماسي ومحمد بن محمـد بهلـــول الزواوى السعدى وأجازه شيوخه وارتحل الى مصر سنة 1074 هـ واستجاز علماءها وأجازوه وظهـــر عليهم بحفظه . وله من المؤلفات في بيان ما للبخاري من التصحيح وحواش على التسهيل والالفية لابن‌مالك وتوفى على ظهر البحر سنة 1096 هـ ونقل الى مصر ودفن بها (25) .

19 – والشيخ محمد بن عبد المومن وكان فقيها قاضيا للمالكية وتوفى بمدينة الجزائر سنة 1101هـ

20 – وأبو عبد الله بن الشيخ سعيد قدورة وكان عالما فقيها تولى الافتاء بالجامع الاعظم وتوفى سنة 1104 هـ .

21 – والشيخ عبد الرزاق بن حميدوش الجزائري وعاش في القرن الثاني عشر واشتهر بكتابه الطبي « كشف الرموز والاعشاب » .

22 – وعمر بن محمد المانجلاتي وكان فقيهـــا أصوليا أخذ عنه ابن زاكور وأثنى عليه كثـــيرا ، وختم عليه جمع الجوامع سنة 1044 هـ (26)

20) تعريف الخلف ج 1 ص 23
22) تعريف الخلف ج 2 ص 483
24) الكتاني : فهرس الفهارس والاثبات ج 2 ص 190
16) تعريف الخلف ج 2 ص 295
21) تعريف الخلف ج 2 ص 469
23) تعريف الخلف ج 2 ص 282
25) فهرس الفهارس والاثبات ج 2 ص 446

23 . ـ ومحمد بن سيدى ابن على الاديب الشاعر المفتى وكان شاعرا كبيرا واماما فقيها وكان صديقا لابن عمار الذى روى له كثيرا من شعره ، وساجله فى كثير من قصائده (27)

24 ـ والعلامة أحمد بن عمار الجزائرى العالم الاديب الرحالة وكان من نوابغ عصره ، رحل الى المشرق فى أوائل سنة 1166 هـ واشتهر برحلته التى بقى منها نبذة قليلة ، وتوفى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى (28)

25 ـ وعلى بن محمد الجزائرى المتوفى سنة 1185 هـ وكان يعرف بابن الترجمان ، وانتقل الى المشرق ، وجال فى أنحائه ثم استقر أخيرا بالآستانة وشارك مع الجيش العثمانى وأسر ومات بالتراب الروسى (29) .

26 ـ وأحمد الغزال الجزائرى وكان تلميذا للعالم الاديب أحمد بن عمار وقد مدح شيخه بقصيدة جاء فيها :

فاكرم بـه من ماجـد وابن ماجـد
وانعـم بـه من سيـد وابن سيـد
له خضعـت اربـاب علـم لعـزه
فكيف وفيهـم قـام أعظـم مرشـد

وأجابه تلميذه ابن الشاهد بقوله :

عسى أن يلـم الشمـل بعـد تبـدد
عشيـة هذا اليـوم أو ضحوة الغد (30)

27 ـ ومحمد بن الشاهد الجزائرى وكان أديبا شاعرا (31) وقد ترك قصائد كثيرة فى المدائح النبوية ، ومن شعره فى ذلك قوله :

محمـد سر الوجـود ★ وسر الاكوان
امام أصحاب السجود ★ فما له ثـان
محمد خير الـورى ★ نبينـا الاواه
محمد بدر سرى ★ سبحانه من أنشاه
ومثله ليس يـرى ★ أثنى عليـه الله

28 ـ ومحمد بن رجب الجزائرى ، وقد اشتهر بكتابه فى الطب ومدافعة الوباء الوافد عام 1200 ، وجاء فى أول كتابه هذا :

«الحمد لله وحده . . لما جاء الطاعون فى شعبان سنة 1200 هـ ببلدنا الجزائر اشتغلت بمطالعة كتب عديدة فى الطب منها القانون لابن سينا ، والتذكرة للانطاكى ، والفت هذا الكتاب ، وسميته « بالدر المصون ، فى تدبير الوباء والطاعون » وادرك الشيخ العهد الاستعمارى ومات فى القرن التاسع عشر الميلادى (32) .

29 ـ وسيدى محمد بن عبد الرحمن الازهرى الزواوى دفين الجزائر وقد توفى بالجزائر أو ببلاد القبائل سنة 1208 ودفن بمقبرة الحامة التى سميت باسمه ، وهو ناشر الطريقة الرحمانية بالجزائر وبلاد السودان (33) .

فى عهد الاحتلال الفرنسى :

27) المصدر السابق ج 2 ص 406
28) تعريف الخلف ج 2 ص 83 ـ 87
29) المصدر السابق ج 2 ص 215
30) المصدر السابق ج 2 ص 215
31) المصدر السابق ج 2 ص 215
32) تعريف الخلف ج 2 ص 427
33) تعريف الخلف ج 2 ص 450

على الرغم من مضايقة الفرنسيين للحركة العلمية ودراسات اللغة العربية والدراسات الاسلامية والتفنن في سبل القضاء عليها فان السند العلمي لم ينقطع وان الدراسات الفقهية واللغوية قد واصلت نشاطها الفعال ، وتحدت العراقيل التي كانت تعترضها ، وكانت المساجد والزوايا هي المراكز الثقافية في هذا العصر ، وغزت اللغة العربية المدارس الرسمية الثلاث للحكومة ، واستقرت أقدامها في المدارس الحرة التي أنشأها الوطنيون بعد الحرب العالمية الاولى ونبغ في هذه الفترة جماعة من أعلام الفقه والادب والتاريخ في هذه المدينة ومن هؤلاء الاعلام في القرن التاسع عشر :

30 – حمودة المقايسي الجزائري المتوفى سنة 1245 هـ (34)

31 – والامام الجليل الكبابطي المتوفى بالاسكندرية بعد الاحتلال بقليل .

32 – والامام حميدة العمالي مفتي المالكية بالجزائر المتوفى سنة 1293 هـ وكان مدرسا ممتازا بالجامع الاعظم وتخرج عليه كثير من شيوخ ذلك العصر ، وقد ترك مؤلفات منها كتاب في القضاء ، درس فيه خصائص القضاء وحلية القاضي وشروطه (35) .

44 – والشيخ القزادري وكان تلميذا للعمالي ، واماما بالجامع الاعظم ، ومدرسا بالمدرسة الثعالبية

34 – وحسن بن بريهمات وكان عالما جليلا ، أديبا فاضلا نافس شيخه حميدة العمالي في الدراسات الدينية والفقهية وقد نبغ في الادب والشعر ، ويذكر الحفناوي أنه كانت له يد طولى في الآداب العربية

34) المصدر السابق 140

والعلوم الدينية . وله قصيدة في مدح أقوم المسالك في أحوال الممالك لخير الدين باشا التونسي سنة 1284 هـ وقد ترك هذا الكتاب عقب صدوره صدى عميقا في نفوس المثقفين بالمغرب كله لطرافة موضوعه في ذلك العصر ، ولتعرضه للمباحث السياسية والاجتماعية بأسلوب عصري فلسفي ، ومن قصيدته في مدح الكتاب ومؤلفه قوله :

لله درك خير الدين من علم
أبدى منار الهدى للناس في القتن
نهجت نهجا قويما قل سالكه
الى السياسة كي ينجو من الفتن
حق على ملة الاسلام شكركم
ورعي تاليفكم بالقلب والأذن
عليك مني سلام الله ما طلعت
شمس وما غرد القمري في فنن

ونبغ في القرن العشرين أعلام كثيرون في الفقه والدراسات العلمية والادبية من أشهرهم :

35 – مصطفى بن الخوجة الذي ولد بالعاصمة سنة 1865 ودرس بها على شيوخ عصره كالمفتي علي بن الحفاف ، والشيخ سعيد بن زكري ، ومارس الصحافة بجريدة المبشر من سنة 1886 م الى سنة 1901 م ثم عين مدرسا بجامع سفير سنة 1895م وأقرأ فيه التفسير والفقه وتوفي سنة 1915 م وكان المترجم متضلعا في العلوم اللغوية والفقهية وترك من المؤلفات الجليلة رسالة الاكتراث في حقوق الاناث ، وهي رسالة غريبة في موضوعها ، وبادرة حسنة في التآليف الاجتماعية ، وكتابه اقامة

35) المصدر السابق ج 2 ص 149 – 150

البراهين العظام ، على نفي التعصب في الاسلام .

36 ـ والشيخ محمد سعيد بن زكري الزواوي الذي استقر بالعاصمة ودرس بالجامع الاعظم ، وتولى امامة جامع سيدي رمضان والافتاء المالكي وتوفي سنة 1914 وله من المؤلفات رسالة أوضح الدلائل .

37 ـ والحفناوي أبو القاسم الذي انتقل الى الجزائر وشارك في تحرير الجريدة الرسمية وتوفي عام 1940 وقد اشتهر بكتابه الجليل : تعريف الخلف برجال السلف .

38 ـ والدكتور محمد بن أبي شنب المتوفي بالجزائر سنة 1929 م وكان متخصصا في الدراسات اللغوية والادبية ، وهو أول جزائري نال شهادة الدكتوراه في اللغة العربية من الجامعة الجزائرية واشتهر بدراساته الاستشراقية وبأبحاثه الكثيرة باللغة العربية والفرنسية وبمؤلفاته الكثيرة ومنشوراته المتعددة .

39 ـ ومن أعلام الجزائر الذين وضعوا أسس النهضة الحديثة في المجالين العلمي والادبي ، وفي مجال الفكر الاصلاحي الحديث العلامة الجليل ، والاديب العبقري الموهوب والخطيب المصقع، والكاتب المترسل المبدع ، جاحظ عصره ، وزمخشري زمانه ، وحافظ وقته الشيخ محمد البشير الابراهيمي دفين مقبرة سيدي محمد بالحامة ، ويعد الشيخ البشير قائدا عبقريا في الاصلاح الديني مع صديقه الامام عبد الحميد بن باديس ، ومفكرا مجددا ، وناقدا موجها في الدراسات النقدية والشعرية ، ومحاضرا ممتازا . ولا يمكن لاي باحث أن يفي حق الشيخ وفضله على النهضة الحديثة في صفحات فنية او كلمات عابرة يكتبها عنه . وقد توفي الشيخ بعد جهاد مرير ، وجهود بناءة متواصلة في رئاسته لجمعية العلماء وادارته لعشرات مدارسها الحرة ـ في شهر ماي سنة 1965 م وترك مؤلفات متعددة ومن اشهرها عيون البصائر الذي طبع منذ سنوات.

40 ـ والشيخ الطيب العقبي،وقد التحق بالعاصمة وقام فيها بنشاط فعال في مجال الاصلاح الديني والاجتماعي وكان له تأثير كبير على التمكين لهذه الحركة الدينية كما كان له فضل مشكور على النهوض بالصحافة الوطنية وتوفي قبل الاستقلال بقليل .

41 ـ والشيخ العربي التبسي الذي التحق بالعاصمة بعد ادارته لمعهد عبد الحميد بن باديس بقسنطينة ، وتولى رئاسة جمعية العلماء بعد الشيخ البشير الابراهيمي ، وأشرف على تسيير الحركة التعليمية بالمدارس الحرة ، وأقام بالجزائر بعد اندلاع الثورة التحريرية وجاهد فيها جهاد الابطال حتى اختطفه المظليون من جيش الاحتلال ونقلوه الى معتقل مجهول وقتلوه شهيدا رحمه الله سنة 1958 م .

هكذا كانت مدينة الجزائر طيلة هذه القرون التي مرت بها في العهد الاسلامي تزخر بنشاط سياسي فعال ، وبحركة عمرانية ومعمارية متواصلة وبحركة علمية مبدعة وتضم تحت كنفها طائفة من الافذاذ في الفنون العلمية المتنوعة كانت تعتز بهم في مسيرتها الزمنية المتواصلة ، وتباهي بعبقرياتهم غيرها من مدن القطر الجزائري .

كما كانت تعتز بزعامتها السياسية التي تسلمت مقالدها منذ العصر التركي في أول القرن العاشر الهجري الى الآن . وهي لهذه الامجاد كلها تستحق أن تقام لها ذكريات ، وأن تشرف بالتنويه والاكبار وان يخص تاريخها الحافل بالدرس والتحليل والتعليق ليستوحي منه ابناؤها امجاد عزهم وكرامتهم وأصالتهم .

أبو راس المعسكري



• رابح بونار

لقد كان عصر أبى راس المعسكرى عصر تدهور وانحطاط فى الآداب والعلوم. كما كان عصر اضطراب سياسى واجتماعى ، وقد استطاع أبو راس بفضل موهبته وعبقريته أن يرتفع عن مستوى عصره الفكرى ، وأن يعيد للدراسات العلمية الفقهية واللغوية مجدها وجلالها ، كما تشهد بذلك مؤلفاته الكثيرة . وتؤكده شهادات معاصريه من العلماء.

وقد حملنا هذا على أن نخصه بهذه الترجمة القصيرة وأن ننشر نبذته التاريخية حول مدينة الجزائر بمناسبة ذكراها الالفية .

ترجمتـــــه :

ابو راس هو محمد بن احمد بن ناصر الراشدى المعسكرى (1) وقد ولد فى اوائل النصف الثانى من القرن الثانى عشر الهجرى ، ودرس فى صغره بمعسكر ومازونة على علماء عصره ، ومنهم العلامة المشرفى ، ثم ارتحل الى تونس ومصر واخذ فيهما عن علمائهما كالعالم الاديب الشاعر ابراهيم الرياحى ، والشيخ مرتضى الزبيدى والشرقاوى ، واجازوه ، ووصفوه باوصـــاف علمية رفيعـــة .

ثم عاد من المشرق الى بلاده بعد ان استوعب دراســات عصره ، واحاط بالمذاهب الاربعة ثم تخصص فى المــذهب المالكى ، وتعمق فى دراسة مختصــر خليل بن اسحاق الـذى اختصر مسائلـه واستوعبها ، ثم انتصب للتدريس والـــادة الطلاب ، وقد بلـغ عدد طلابـه المئـــات .

ولم يشغله التدريس عن التاليف ، بل الف كتبا عـــديدة تزيد على خمســـين كتابا (2) منها :

1 ـ لب افياخى فى ذكر اشياخى
2 ـ والسيف المنتضى فيما رويته باسانيد المرتضى
3 ـ وتخريج احاديث دلائل الخـــيرات
4 ـ ودار السحابة ، فيمن دخل المغرب من الصحابة
5 ـ والزمردة الوردية فى الملوك السعدية
6 ـ ومروج الذهب فى نبـذة من النسب
7 ـ وتفسير القـرآن الكريم
8 ـ وحاشيــة الخــرشى
9 ـ وحاشية المــكودى
10 ـ وشـــرح العقيقــة
11 ـ والحاوى بين التصوف والتوحيد والفتاوى
12 ـ وحاشيـــة على السعـــد
13 ـ وشـرح مقامات الحــــريرى
14 ـ ودرء الشقـــاوة فى حروب درقـــاوة
16 ـ وذيل القرطاس فى ملوك بنى وطـــاس

وغير ذلك من كتبه الكثـــرة .

واهم هذه الكتب فى رايى كتبه التاريخية وهى ذات فائدة كبيرة قد لا يعدله فى ذلك الا الزيانى صاحب الترجمانة الكبرى مع تفوقه عليه فى الحفظ والتوفيق . ومن هذه الكتب كتابـــه ذيل روض القرطاس وقد تناول فيه تاريخ المغرب من القـــرن الثامن الى اوائل القرن الثالث عشر الهجرى . وهو كتاب هـــام لا نعرف عنه الا اسمـــه .

وكذلك كتابه الزمردة الوردية فى الملوك السعديـة ، وهـــو كتاب يتناول تاريخ الملوك السعديين بالمغرب ، وموضوعـــه هام والفترة التى تناولها بالتدوين قليلة المصادر وهذا مـــا يسبغ على كتابه اهمية بالغة وهو مثل سابقه مخطوط لا نعـرف عنه الا اسمه .

واخيرا ياتى كتابه شرح نفسية الجمان فى فتح مدينة وهران ، وهذا الكتاب رغم تخصيصه بمدح محمد باى الكبير،وتسجيل ماتيه الحربية فى فتح وهران وافتكاكها من يد الاسبان ، اواخر القـــرن الثامن عشر الميلادى فانه يتناول احداثا كثيرة بالشرح والتعليق ويؤرخ لوقائع مختلفة تتناول تاريخ القطر الجزائرى عامة .

ومن هذه الاسطرادات ما ذكره حول تاريخ الجزائر .

وقد عمد احد المعجبين به الى جمع هذه النبذة واخرجها من الكتاب المذكور لتكون خلاصـــة تاريخية خاصة « بالجــــزائر » وجامع هذه النبذة غــير معروف ، وقد جمعها بعد وفاة مؤلفها ابى راس بسنة واحدة اعنى سنة 1823 م

واما ابو راس فقد توفى سنة 1238 هـ ت 1822 م وتضم هذه النبذة معلومات هامة عنمدينة الجزائر والدول التى تعاقبت عليها

وسيجد فيها القراء فوائد ومعلومات عن الجزائر والقطر كله لا يجيدونها فى غيرها من المراجع المختلفة مع الايجاز ومن حســـن الصدف ان تنشر هــذه النبــذة فى وقتها المناسب وهو الذكرى الالفية لمدينة الجزائر ليجمع الاحتفال بالمدينة بين شرف ما كتبه عنها مؤرخونا القدماء ، وما يكتبه عنها كتابنا المحدثون وفى ذلك ـ لاشك ـ تقدير كبير ، واحتفاء بالغ بهذه العاصمة التـــاريخية الجليلة .

---

1) الحفناوى : تعريف الخلف ج 2 ص 332

2) الكتانى : فهرس الفهارس ج 1 ص 105

هذ نبذة اخرجت من تاليف الشيخ ابى راس سيدى محمد بن احمد بن عبد القادر الناصرى الغريسى نسبا رحمه الله فى تاريخ الجزائر 1238 هـ / 1823 م

مدينة الجزائر

الجزائر علم على مدينة عظيمة على شاطىء البحر بنتها ملوك صنهاجة ، ومر لنا تاريخ بنائها ، واسم بانيها وغير ذلك ، فانظر ان شئت فى شرح قولى متى ازالهم عنه يوسف الخ . ولم تزل فى طاعة بنى بلكين من صنهاجة ملوك اشير ، والقيروان ، الى ان تغلب ابن عمهم حماد (1) على جبل كتامة ، وبنى القلعة المارة الذكر ، وكثر جنوده وخفقت بنوده ، واستولى على باجة وبجاية ودلس ونحوهم ، وكانت الجزائر من جملة أعماله ، ثم زحف اليه باديس بن المنصور (2) بن بلكين بن زيرى بن مناد فهزمه من مجانة الى وادى شلف ، ونزع اليه عامة عسكره ، ثم رجع جادا السير الى قلعته ، وباديس فى اثره وحاصره الى ان هلك ، وبويع ابن باديس وهو المعز

(3) ابن ثمان سنين ، فاتفق مع حماد ، وعاد ملك الجزائر له ولما هلك ولى ابنه القايد وزحف اليه ابن زيرى بن عطية المغراوى فصالحه القايد ايضا ، وبقى على ملكه بالقلعة والمدية والجزائر الى تخوم مغراوة ، وتحت حكمه وعلى امره الى ان هلك سنة ستة واربعين واربعمائة ، وولى مكانه ابنه محسن ثم قام فيهم الناصر بن علناس بن حماد فبنى جبل اللؤلؤة ببجاية من اعظم قصور الدنيا فى حدود **سبعين واربعمائة** قال ابن خلدون فى بعض كلامه على المغرب الاوسط : بجاية اختطها الناصر بن علناس ، ثم لما مات الناصر ولى ابنه المنصور .

بنو حماد والمرابطون

ولما استولى يوسف بن تاشفين على تلمسان وغلب عليها اولاد يحيى الافربنى سنة اربع وسبعين (4) وانزلها محمد (5) بن تينعمر المسوفى ونازل بلاد صنهاجة كالجزائر ونحوها زحف اليه المنصور (6) وخرب ثغوره ، وحصون ماخوخ ، وضيق عليه فصالحه يوسف ، وانقبضت يد المرابطين عن بلاد صنهاجة ، والمنصور هذا هو الذى وقعت حروب بينه وبين ماخوخ انجلت عن قتل ماخوخ ، ولحق ابنه بتلمسان مستصرخا بابن تينعمر فزحفا الى الجزائر وحصروها يومين فمات ابن تينعمر ، وولى يوسف ابن تاشفين مكانه اخاه تاشفين بن تينعمر ففتح اشير والجزائر ورجع الى تلمسان .

ثم ان المنصور زحف من بجاية بأمم المشرق الى تلمسان ، ونزل وادى الصفصيف ، فلقيه تاشفين

---

(1) حماد بن بلكين مؤسس الدولة الحمادية ، اعلن استقلاله عن بني زيري سنة 405 هـ — 1014 م ودام في الملك الى سنة 419 هـ — 1028 م راجع تاريخ الجزائر للميلي ص 135

(2) باديس هو رابع ملوك بني زيرى ، وكان شجاعا جواد محسنا ثار عليه حماد فحاربه وحاصره بالقلعة ومات في اثناء حصاره له سنة 406 هـ — 1015 م

(3) هو المعز بن باديس تولى الملك بعد ابيه باديس سنة 406 وتوفي سنة 454 هـ — 1062 م وبلى بفتنة الهلاليين

(4) اي سنة 574 هـ — 1178 م ويوسف ابن تاشفين هو اشهر الملوك المرابطين توفى بمراكش سنة 500 هـ — 1106 م وقد فتح تلمسان سنة 572 هـ — 1176 م وفتح الاندلس وغيرها ووصل في فتوحاته الى مدينة الجزائر

(5) صوابة تينمر كما جاء في مراجع مختلفة (6) المنصور هو الملك الحمادى السادس تولى الملك سنة 481 هـ — 1088 م وتوفى سنة 498 هـ — 1104 م

بجنوده ، فانهزم تاشفين ولجأ الى جبل الصخرة ، وعاثت عساكر المنصور بتلمسان ، فخرجت اليه حواء زوجة تاشفين اميرهم متوسلة له بوسايل القرابة الصنهاجية التى بينهم ، فاكرم مثواها ، ورجع الى القلعة ، وقدم على المنصور معز الدولة بن صمادح من المرية ، لما هلك الاندلس يوسف ابن تاشفين فاقطعه دلس ، وانزله بها ، ولما هلك سنة ثمان وتسعين واربعمائة ولى ابنه باديس ، وكان عظيم البطش ، شديد الباس ، ثمولى أخوه العزيز 7 وتزوج بنت ماخوخ ، وطال أمد ملكه ، وكان العلماء يتناظرون فى مجلسه ، ونزلت جربة على حكمه ، وتونس ، وسكنت العرب فى ايامه القلعة ، وفى ايامه وصل المهدى بن تومرت الى بجاية قافلا من المشرق سنة اثنتى عشرة وخمسمائة ، وغير المنكر بها ، فسعى به عند العزيز فخرج الى بنى ورياكل ، وقام فيهم يدرس العلم ، وطلبه العزيز فمنعوه ، وقاتلوا دونه الى ان رحل الى المغرب ، وهلك العزيز سنة خمسة عشر وخمسمائة ، فولى بعده ابنه يحيى وهو الذى اتخذ السكة من ملوكهم ، وكان ديناره مكتوبا فيه ثلاثة أسطر ودائرة فى كل وجه ، فدايرة الوجه الواحد : واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله الى لا يظلمون ، والسطور لا اله الا الله ، محمد رسول الله ، يعتصم بحبل الله : يحيى بن العزيز بالله الامير المنصور ، ودايرة الوجه الاخر بعد البسملة ضرب هذا الدينار بالناصرية سنة ثلاث واربعين وخمسمائة ، وفى سطوره الامام المقتفى لامر الله ابو عبد الله امير المومنين العباس وكان مشتغلا باللهو والصيد والنساء ، لما ادبرت الايام عن قبائل صنهاجة ، وكان عامله على الجزائر اخوه القايد بن العزيز بن المنصور ولما فشل ريح بنى عمه أولاد باديس بأفريقية وضايقهم جرجيس بن منحايل (8) احد رؤساء الكفزة (حكام صقلية) بعث يحيى بالاساطيل فى البحر ، واتى بالحسن آخر ملوك افريقية من بنى عمه ، وانزله بالجزائر مع اخيه القايد وسبب غزو الكفرة لثغره ان على بن يوسفبنتاشفين اغزى محمدبنميمون صقلية وفتحقريةمنها وسبا أهلها فلم يشك طاغيتهم روجار أن ذلك باملاء الحسن ، فجهز ثلاثمائة مركب وامر عليها جرجيس المذكور ، وفيهم عدد كثير من النصرانية فيهم الف فارس فملكوا قصر الدماس ثم رجعوا الى صقلية بعد ان استحر القتل فيهم ، ولما زحف **الموحدون للجزائر فر منها القايد** اخو يحيى فقدم اهل الجزائر الحسن المذكور على انفسهم ، ولقى عبد المومن فأمنهم ، وصبح ببجاية من الغد ، فزحف اليه يحيى ، فانهزم وملك عبد المؤمن بجاية ، وذهب يحيى الى اخيه الحارث ببونة لما لم يجد السبيل الى بغداد ، ثم ذهب الى قسنطينة ، فنزل على أخيه الحسن فخلى له الامر ، ثمبايع يحيىلعبد المؤمن سنة سبع واربعين 9 ، ونقله الى مراكش فسكنها ، ثم أنتقل الى سلا فسكن قصر بنى عشر (10) وهو آخر ملوك صنهاجة بالقلعة

(7) الامير العزيز تولى الملك سنة 498 هـ — 1104 م توفى سنة 515 هـ — 1211 م

(8) يعنى به القايد النوماذدى بصقلية وقد استطاع ان يحتل شواطىء تونس ومنها مدينة المهدية

(9) يعنى سنة 527 هـ — 1152 م

(10) هكذا ورد فى الاصل مطموسا

وبجاية والجزائر ، وانقطع ملكهم الى الان ، بل عفارسمهم ، وخمل ذكرهم ، وانغمروا فى الناس فلا يعرفون وكذا بنو عمهم ملوك افريقية .

غريبة :

غريبة ولم سمى هذا القصر بسلا قصر بنى العشرة ان امراة وضعت عشرة أولاد ببطن واحد ، فجعلهم ابوهم على مائدة ، وذهب بهم الى الامير فأعطاهم الف دينار ، يبنى لهم ابوهم عشرة دورا . انظر بعض شروح الفرائض ولما كان زمن السلطان البانى لهم الدور فيه ، تناقض مع زمن سكنى يحيى بها لم نذكره ، والله اعلم .

الجزائر تحت حكم الموحدين

ثم انتظمت الجزائر فى ملك الموحدين (11) كغيرها من المغربين بل والمغرب الادنى ايضا ، لانهم ملكوا طرابلس مرات وتونس اكثر ايامهم ، وأول خلفائهم ، ثم لما ركد ريحهم ، ودخل الهرم دولتهم سنة الله التى قد خلت من قبل أستقل أبو زكرياء الحفصى من الموحدين بولايته افريقية لما بلغه ان المامون احد ملوك بنى عبد المؤمن غير معالم شيخهم المهدى ، وغير ضرب الدرهم المربع الذى يعرف عندنا بالدرهم المؤمنى الذى هو مكتوبفيه كما هو مشاهد الى الان : اللـه ربنا ومحمد نبينا والمهدى امامنا ، وقطع اسمهم من الخطبة واثبت ذكره بعد ذكر الامام المهدى بن تومرت مقتصرا على لفظ الامير فقط ، ورفع اليه بعض شعرائه بيتا وهو

« صل امير المؤمنين فا : نت احق بها فى العالمين » ، فابى عن ذلك الى آخر دولته ، ودخلت الجزائر فى ملكه ، وتلمسان والزاب وغيرهم ، وتداولها بنوه الى أن تضعضعوا وشردهم الداعى بن ابى عمارة وبسببه افترقت كلمتهم كما هو شأن الدنيا .

الجزائر تحت حكم بنى عبد الواد

وطمع فى الجزائر بنو عبد الواد فغزاها السلطان ابو حمو موسى (12) بن عثمان بن يغمراسن من اعيان ملوكهم لما سمع بأبن علان تغلب عليها فى حدود سنة خمسة وسبعمائة ولما خلاله الجوبفتنة محمد ابن ابى عصيدة سلطان تونس ، وابى زكرياء الاوسط سلطان بجاية فأخذها منه فى سنة احدى عشر وسبعمائة على يد قائد حروبه ابن عمه محمد بن يوسف بن يغمراسن وكان ذلك اى أخذها أيام السلطان ابى اللحيان من ملوك تونس ، ولما حضر يوسف بن يعقوب المرينى تلمسان فى القرن الثامن ، كان ابو زكرياء صاحب بجاية مظاهرا لعثمان بن يغمراسن والسلطان محمد بن ابى عصيدة سطان تونس وتلميذ ومحضون الولى الصالح ابى محمد المرجانى فى حصار تلمسان (13) فبعث لهم كتائب بنى مرين ، فأوقع بهم وهزمهم ثم ان ابا عصيدة صاحب تونس ، بعث الى يوسف يغريه بغزو بجاية فسرح يوسف العساكر لنظر اخيه أبى يحيى . فضايقوا بجاية وعاثوا فى تلك الجهات ، ثم انقلبوا الى يوسف ، وهو معسكر على تلمسان وفى سنة ثلاث وسبعمائة ارسل محمد بن ابى عصيدة هدية ضخمة الى يوسف اغرب فيها بسرج وسيف

(11) قام لمك الموحدين سنة 515 وسقطت دولتهم 668 هـ — 1269م وخرجت عنهم الجزائر سنة 633 هـ — 1235 م

(12) تولى ابو حمو موسي الأول الملك سنة 707 هـ — وقتل سنة 718 هـ — 1318 م ومن اثاره بناء قصر على وادي نهل قرب مارونة وتاسيس مدينة اقبو (تاريخ الجزائر للميلى م ص 261)

(13) العبارة فيها غموض ويريد بها ابو رأس ان ابا زكرياء كان مواليا لتلمسان وان ابا عصيدة كان منابذا لها ومساعدا للمرنيين على فتحها

ومهامز مرصعة بالياقوت والجوهر ، مع رئيس الموحدين ابى عبد الله بن اكمازين ، ورجع بهدية ضخمة من عند يوسف بن يعقوب ، كان من جملتها ثلاثمائة بغل . وفى أيام ابن ابى عصيدة قتل علماء تونس هداج بن الكعوب بسبب اهانته المسجد ، فانه دخله بأخفافه فقيل له فى ذلك ، فقال هكذا والله دخلت بها على السلاطين ، فقتل فى بعض زقاق تونس بأمر ابى عصيدة ، وقد ذكره الونشريسى فى كتابه المعيار قلت وهداج هذا هو ابن عبيد بن احمد ابن كعب من بطون سليم ، وقومه يقال لهم الكعوب مشهورون بأرض افريقية ، وهو اذ ذاك سيدهم واستمرت الجزائر فى طاعة بنى عبد الواد ملوك تلمسان من سنة احدى عشر الى ان استولى ابو الحسن المرينى عليها ، وعلى افريقية وطرابلس سنة ثمان واربعين وسبعمائة ، وكان دوخ تلمسان قبل ذلك فكانت لدولته اذل ، ولامره اطوع . ولما جرت بأبى الحسن الوقعة المشهورة بالقيروان (739 هـ) ، واستقل ابنه أبو عثمان فارس بملك المغرب راجع بنو عبد الواد ملكهم ، واستقلت قدمهم بعد عثمان . وقد دخل أبو الحسن الجزائر ، وجمع جموعا وزحف لتلمسان ، وكان المصاف للقتال بتاسالة فكانت على أبى الحسن . وقتل ابنه الناصر ، وخلصه وانزمار السويدى الى جبل المصامدة بازاء مراكش . وتزاحف مع ابنه أبى عنسان حتى مرض ومات سنة اثنين وخمسين وسبعمائة (752 هـ — 1351 م) فى جبل عبد العزيز بن محمد الهنتاتى الذى أجاره وناصره وقاتل معه ولده ، وكان عنده فى غاية الرفعة ، وتحفظ به فى مرضه وقام بمرونته ، وجعله فوق اعواد نعشه ، وبعثه الى السطان ابى عنان ابنه ، فلقى النعش باكيا راجلا حافيا منكبا من مصيبته ، وهو يقبل الارض بين يدى جنازته ، وعفا عن عبد العزيز واحسن اليه فكان له بعد ذلك يد عليه . ثم أن ابا عنان لما استقام له المغرب زحف الى تلمسان ففتك بهم واستلحمهم حتى كاد أن يستأصلهم وذلك فى سنة ثلاث وخمسين من القرن الثامن (753 هـ — 1352 م) واستولى على المغرب الاوسط ، فكانت الجزائر له طوع اليد وولى عليها عاملا ، وبعث الى ابى عبد الله الذى ملك بجاية من الحفصيين يقيم الرصد على بنى عبد الواد ، فبعث العيون ، فعثروا على محمد بن سلطانهم ابى سعيد بن عثمان بن عبد الرحمان ، وعلى ابى ثابت اخيه ، وعلى وزيرهم ابن داوود فاوثقهم ، ثم بعث بهم الى ابى عنان فسالوا عن أبى ثابت بعد قتل ابى سعيد ليميزوه من يحيى بن داوود ، لعدم معرفتهم له فقال الوزير انا ابو ثابت وهذا يحيى فقتلوا الوزير (14) وخلوا عن أبى ثابت فجاد يحيى بنفسه لنجاة الامير ، وهذا أمر غريب لم اطلع على مثله الا في قضية كعب بن امامة لما اثر بالماء غيره ، ومات عطشا وبقيت تلمسان خرابا مدة سنين ، وكان رجل يقال له موسى بن صالح مشهور بالكهانة عنده علم من الحدثان يقال ان تلمسان يحرثها غلام اسود على ثور اسود فحرثت على هذه الصفة بسبب هذه الواقعة سنة ستين او احدى وستين (15) وكانت هذه تلمسان الجديدة يقال لها تكرارت ومعناها المعسكر ، لان عسكر يوسف بن

(14) هذا خبر غريب مخالف لما هو معروف من ان ابا ثابت عرف واخذ وقتل ولم يقتل احد مكانه

(15) ان تخريب تلمسان على يد ابى عنان انما كان عقب احتلاله لها سنة 753 هـ ومات قبل سنة 760 هـ واما ما اثبته هنا ابو راس فهو منه

تاشفين نزل هناك ، وقد بنى لهم موضع مشور ابو حمو المشهور الى الان فصار اهل المدينة ينتقلون حتى دثرت القديمة بسبب انشاء الجديدة ، ولما مات ابو عنان عادت دولة بنى زيان بمجد ملكهم وواسطة عقدهم السلطان ابى ثابت المتقدم وراجع ملكـــه . ومن جملته الجزائر والحاصل أن الجزائر كان ملوك تلمسان ، وملوك افريقية يتداولون عليها ، فتكون لمن غلب عليها ومرة يتغلب عليها بعض مشايخها الى ان دخلها ملوك الاتـــراك سنة خمســـة عشر وتسعمائة (915 هـ)

داخل الفقيه الاعظم العلامة الاكرم سيدى احمد بن القاضى احد اباء المغارسة ملوك الزيانيين بتلمسان فى شأنه واشار اليهم بحرمه ومناجزته وكان هذا العالم من اهل مجاجة (16) وقد ذكر صاحب الدرر المكنونة فى نوازل مازونة فى نوازل النكاح وما يتعلق به وبنوه واخوته وقومه وهم الذين آووا ـــ الشيخ على أبهلول الوطاسى واخذوا عنه العلم الظـــاهر والباطن ووقفوا عليه الاوقافوبعد موته رضىالله عنه خلفه ابنه الشيخ محمد بن على والشيخ ابو على فكان الشيخ عبد الرحمان بن عبد القادر صاحب المغارسة أحد تلامذتهما نفعنا الله بهم اجمعـــين ، فكان الشيخ من اكابر رؤســـاء تلك الارض واكثر اغراء (17) بنى زيان بخير الدين فلم ينجح له شىء لان أمر بنى زيان قد ولى الادبار وضعف ملكهم وتقلص ظلمهم لا سيما وقد اخذت من اعمالهم وهران يومئذ وكان بذلك العصر فى تلك الارض علماء اعلام وفقهاء عظام منهم من ذكرنا وغيرهم كالامام المغيلى المدفون بتلمسان والونشريس صاب المعيار المدفون بفاس وابى عبد الله المغراوى وقد بنى له بحافة شلف قبتان وقبلهم من اهل التاسع سيدى احمد المريض مستوطن احد مداشر وانشريس وكان معاصرا لابن عرفه وقبله من اهل السابع ابو العباساحمد المليانى كان صاحب فقه ورواية وقد ذكره فى المعيار وكذا ذكره صاحب الدرر وقد انتهت اليه فى عصره رياسة الشورى بالمغرب الاوسط وكان ابنه ابو على خلو من ذلك منهمكا فى الرياسة فلما راى فتن مغراوة مع يغمراسن استولى على مليانة وبويع له بها فجهز اليه المنتصر سلطان تونس جيشا لنظر اخيه الامير ففتح مليانـــة عنوة ، وفر ابو على للعطاف ، وعقد لبنى منديل على مليانة وقد كان قبلهم بنوورسيفن منهم مســـكنهم الباديـــة والامـــام المـــازونى المـــذكـــور هو الذى جعل كتابا فى نسائب (18) قبائل اهل المغرب الاوسط ، وقد ذكر فيه أن المحال اهل البطحاء من هلال ، كما قال ابن خلدون وان الذين يقال لهم المضارب كبنى دقيش وبنى حميرة العبد ، وبنى هداج من بنى مخزوم ، من ذرية صعصعة بن حارثة ومن ذرية هشام بن اسماعيل المخزومى وقد اجمل ابن خلدون والمشاهد الان من اقرار المحـــال

(16) هناك من يذهب الى أن احمد بن القاضي المهمز هو الذى ينتسب الى جرجرة وكانت له امارة بكوكو القريبة من عين الحمـــام اوميشلي

(17) هكذا بالاصل ولعل صوابه وأكثر غزو لبنى زيان (17) بياض بالاصل

(18) هكذا بالاصل والاصوب انساب بدل نسائب

للمضارب بالسيادة والتعليم والتسليم لهم يشهد للمازوني ، وقد كان قبل تلاشي أمرهم وركود ريحهم لا يزوجون بناتهم للمحال مع ان المحال لا يتوهمون ذلك ، ولا يطمعون فيه ، تعظيما لهم وقد اخذ ذلك عن آبائهم ومن المضارب نفر قبيلة الشكالة ونفر باولاد فارس ونفر باولاد سلى وكلهم درس ذكرهم ، وعفت مراسمهم وقد يقال ان الولي الصالح سيدى الناصر بن عبد الرحمان المدفون بالصحراء بالواد المشهور من بنى مخزوم والله أعلم بذلك ، ولنرجع الى ما خرجنا عنه ، ثم ان خير الدين نافسه ايضا محمد بن علي من رؤساء عرب افريقية ، وسعى به الى ملوك بنى حفص بتونس ، وكانت بينهم حروب يقال أن محمد بن على هلك فيها ، ثم ان أهل المغرب الاوسط وفدوا على خير الدين وأتوا به الى ارضهم فاستعمل في طريقه على قلعة بنى راشد اخاه اسحاق ولما دخل تلمسان استعمل عليها اخاه عروج ، ثم بعد منصرفه تعصب المسعود من ملوك تلمسان بجيش عظيم وخطب على منبر الجامع الاعظم ، وذكر شأن ملك الجزائر ، ورغب الناس في ملك آل عبد الواد ، وهجموا على عروج فأخرجوه منهم ، ثم زحف اليهم بمن معه ، وكان شديد البأس فدخل تلمسان عنوة وقتل سبعة من المترشحين للملك من بنى زيان ، ونحو الستين من بنى عمهم أولاد عبد الواد ، واكثر من الف من اهل البلد ، وعاث في تلمسان ، ثم سكنت الفتنة ، ولما راى المسعود استقامة عروج بتلمسان ، دخل وهران فزحف بالنصارى الى اسحاق بالقلعة ، ورموا عليها من البراق ولما علم اهلها قوة العدو وضعفهم صالحوه على تسليم البلد ، ثم لما خرجوا غدروا بهم وقتل اسحاق وقال العلامة الصباغ وكان ابى سمن قتل يومئذ ، ثم زحف بالنصارى لتلمسان لحصار عروج ، فلما طال امر الحصار عليه خرج بمن معه من الجيش والبطانة راضيا من الغنيمة بالسلامة ، فلحقوه بجبل بنى موسى ، وقتلوه ، ومن معه يوم عيد الفطر من سنة خمس وثلاثين وتسعمائة (935 هـ — 1528 م) بعد ما ملكها نحو السنة ، وقيل ان عروج لما دخل تلمسان وعاث بها ثاروا (19) عليه اهل البلد واخرجوه منها ، وخافوا من عودته ففزعوا الى ولى الله ابن ملوكة فدعا عليه ، فهلك بجبل بنى ورنيد والله أعلم ، ورايت في بعض فتوحات الجزائر أن خير الدين دخل تلمسان مرتين مرة لما استعمل عليها أخاه ومرة بعد موته ، وقد عمل بها حامية من الاتراك في المرة الثانية ، فهى باقية الى الان فأذهب فتنتها ، وحسم داءها فلم يعد ، ثم ان خير الدين شمر للمدافعة عن الجزائر في البر والبحر ، وقد كانت المرسى اذ ذاك للاسبانيين من جزر الكفرة ، وكان لهم بها حصن هو الذى فيه الفنار الان ، وكانوا مدتهم مع المسلمين بين نفرة واستقامة ، وصلح وغدر ، وكان حصنهم يدور به الماء من البحر ، واما الطريق التى به الان فانها عملتها الاتراك ويذكر ان بنى مزغنة قبل بناء بلكين بن زيرى الجزائر كانوا يؤدون الخراج لاهل البرج (20) وكذا اكثر متيجة ، فلما بناها بلكين الصنهاجى وحصنها بالاسوار وانزل

(19) هكذا بالاصل على اللغة المرجوحة

(20) يبدو ان في هذا مبالغة لان هذا البرج انما بنى قبل مجيء الاتراك بسنوات قليلة

بها الجيوش انتصرت النصارى على عادتهم، ورضوا بدل الخراج بالبيع والشراء معهم ، ولم يزل خير الدين يحاصره ويقاتله ، ويعالجه ، الى ان فتحه سنة ثمان واربعين وتسعمائة (948 هـ ــ 1541 م) وقطع طمع بنى زيان من تلمسان سنة ستة وخمسين ، وقد رايت فى بعض فتوحات الجزائر فى سيرة خير الدين الاولى سنة خمس عشرة من العاشر ، وبنى لها السور سنة اربع وعشرين منه (924 هـ) وانظر قوله بنى السور مع ما مر لنا أن يحيى ابن غانية طلب منديل ابن عبد الرحمان على سور الجــزائر أول القرن السادس ، ولعله السور الثانى ، أو أن خير الدين رم الاول والله اعلم .

هذا وقد كان النصارى من كل جنس يغزونها قديما والحرب بيننا عليها مستديما ، وأول غزو النصارى لها بعد استيلاء الاتراك عليها سنة خمس وعشرين وتسعمائة (925 هـ ــ 1519) فى ثلاثمائة وعشرين جفنا ، فهزمهم الله بعد ما قتل منهم خلق كثير يزيد على عشرة الاف وغزوها مرة اخرى ايام خير الدين ايضا فهزمهم الله ، واسر المسلـــمون منهم نحو الثلاثة الاف ثم غزاها الطاغية بنفســه لما استولى المسلمون على برج المرسى وذلك سنة ثمان واربعين (948 هـ ــ 1541 م) كما مر فى زهاء سبعمائة سفينة فبعث الله ريحا كسرت مراكبهم ، ومن خـــرج منهم للبر قتل ، حتى أن الطاغية رجع فى اثنى عشر مركبا وكل هذا ايام خير الدين رحمه الله ، وله لقبان الاول باشا كما هو المعروف فى نواب العثمانى على الاقطار والثانى دولاتلى ونظير هذه الغزوة غزوة قسطنطين ابن هرقل لما اخذت اسكندرية واستولى المسلمون على كنيستها العظمى ، وقد كان المسلمون اخذوها قبل ذلك فى خلافة عمر ، ثم رجع لها النصارى بعد ذلك اول خلافة عثمان ، فأخرجوا منها ايضا وحلف عمر بن العاص ليتركنها كبيت الزانية توتى من كل جهة فلما سمع قسطنطين بهدم حصونها غزاها فى الف مركب فى الشتاء فأغرقتهم الريح كلهم الا مركبة نجا الصقلية ، فادخلوه الحمام ووثبوا عليه ، فقتلـــوه جزاء له على فعله وغزوه فى ذلك الفصل وغزا أيضا الانكليز فى ايام رمضان باشا فى ثلاث وعشرين مركبا عظاما فرموها بالبونبة فلم تفد شيئا وذلك سنة احدى وسبعين والف. وغزاها الفرنسيون سنة ثلاث وتسعين والف (1093 هـ ــ 1682 م) فى خمسة وعشرين مركبا فى ولاية حسن باشا ، ورموها بالبونبة فهدموا اكثر دورها ، وبعض مساجدها ، وكذا رموا على شرشال واقتنص المسلمون مركبا لهم فيه جملة من اكابرهم ففرحوا بذلك فرحا شديدا ورجع الكفرة بلا نائل ، ولم يحصلوا منها على طائل ، ثم غزاها ايضا الفرنسيون فى العام الذى بعده فى أيام الباشا المذكور فى زهاء ثمانين مركبا ورموا بالبومبة فى ثالث الايام من قدومهم ، فأتت قدرة بونبة بدار الامــارة فضاقت مذاهبه ، وصالحهم من ساعتــه على أن يسرح لهم الاسارى بلا مشورة أحد من أهل دولته وعلى أن يبذل لهم ما صرفوه فى تلك الغزوة ، ورجع اعداء الله مسرورين ، وبعد ذلك بيسير قتله الاتراك وولوا حسن باشا ، وكان قبل الامارة يعرف حسن رايس فبعث للعين من ساعتــه ابعث اسـارى المسلمين ان شئت تمام الصلح ، على ان لا شىء لك فلما سمع اللعين غزاها من عامه فهدم منها نحو

الثلاثمائة دار ، واستشهد فيها نحو الاربعين ، ثم رجع عدو الله من غير طائل ، ثم غزاها الاسبانيون سنة تسع وثمانين ومائة والف (1189 هـ ـ 1778 م) فى ولاية محمد باشا ، وخرجوا ازاء الحراش فى البر وجعلوا ترسا من حطب ولوح وغير ذلك ، واوقدوا نار الحرب وباتوا ليلتهم فى موضعهم ، فلما كان قبيل الفجر صبيحة يوم الاحد هزمهم الله ومات منهم ما لا يحصى عددهم الا الله تعالى . ورجعوا خائبين ولم ينالوا خيرا واستشهد من المسلمين نحو اربعمائة حفرت لهم مقبرة بازاء عين الربط [21] وقد أتووا الغزوة فى خمسمائة مركب وبقيت عظامهم ماثلة فى رمال الحراش أعصارا وقد حضر هذه الوقعة المنصور بالله أبو الفتوحات سيدى محمد بن عثمان باى معسكر فظهر من اقدامه واعتنائه مقامات تعد من مفاخر دولته ، وذكرا له آخر الايام . ثم غزاها الاسبانيون أيضا سنة سبع وتسعين (1199 هـ ـ 1784 م) فهدموا بالبونبة أزيد من مائتى دار ، وطلبوا الصلح فلم يجابوا ، ورجعوا خائبين ثم غزاها أيضا السنة التى بعدها ، فزحف لهم المسلمون فى البحر وردوهم على اعقابهم فرجعوا بلا طائل ، ثم جاؤوا سنة تسع وتسعين أى من هذا القرن طالبين للصلح فى الحال ، باذلين القناطير من الاموال راضين بدخولها للتجارة لما ايسوا من الظفر وقدموا فى ذلك علجة من بيوتاتهم على عادتهم الذميمة لعنهم الله فابرم الصلح بينهم وبين المسلمين وكل ذلك أيام محمد دولاتلى ومات رحمه الله سنة خمس ومائتين والف (1205 هـ ـ 1790 م) أيام السلطان سليم بن السلطان مصطفى العثمانى .

(21) عين الربط هي تقريبا ميدان المناورات وما يتصل بها



إبراهيم بن أحمد الفجيجي وقصيدته المطردة
"روضة السلوان"

رابح بونار

يخيل الى الباحث فى الحركة العلمية والادبية فى القطر الجزائرى أن أعلام الفكر الذين نبغوا فيه ينتسبون كلهم الى الشمال . أما الصحراء فهى غفل من رجال العلم والادب ، ذلك لاننا اذا تصفحنا تراجم هؤلاء الرجال فى مختلف المراجع التى بين أيدينا كنيل الابتهاج للتنبكى ، وعنوان الدراية للغبرينى، والبستان لابن مريم ، ودوحة الناشر لابن عسكر ، ونفح الطيب للمقرى ، فاننا نجد أن المترجم لهم فى هذه الكتب تعود كثرتهم الغالبة الى حواضر المدن الشمالية .

ويستنتج الباحث من ذلك ان مدن الصحراء تكاد تكون مقفرة من الدراسات العلمية فى العصر الوسيط .

والحقيقة انه على الرغم من تخلف الحواضــر الجنوبية نسبيا عن حواضر الشمـال ، فان ذلـك لا يبيح لنا أن نحكم عليها بالجدب الفكرى ، او الفراغ العلمى فى هذه الفترة ؛ ذلك لاننا اذا بحثنا عـن معالم النشاط العلمى فيها نجد فى كل عصر أقباسا هنا وهنا تنير طريق الدراسات العلمية والادبية .

وقد ازدهرت فى كثير من هذه الحواضر الدراسات العلمية ، والادبية بعض الازدهار ، كوارجلان التى تعد أسبق الحواضر تقدما علميا ، واجلها شانـا لكثرة من نبغ فيها ، وكذلك حاضرة بسكرة التى كانت من أحفل المدن الصحراوية ، وأكثرها نشاطا علميا فى مختلف العهود ، وقد عاش ابن خلـدون فيها مدة ، وأفاد اهلها .

ومثلها مدينة توات التى ازدهرت فيها الدراسات الفقهية ، والـكلامية والادبية فى القـرن التاســع ومـا بعده .

واخيرا نصل الى فيقيق ، او فجيج التى نبغ فيها جماعة من الاعلام ، من أجلهم المترجم له ابراهيــم ابن أحمد الفجيجى .

تـرجـمـتــه :

ابراهيم الفجيجى ، هو ابراهيم بن أحمد الشريف الرحالة ، وهو لا تعرف سنة ميلاده ، ولا سنة وفاته بالتحديد ، وقد نشأ فى أرض صحراوية تحـت كنف الواحات الرائعة ، وفى ظلال النخيل الوارفة ، وأغرم بمعاناة الصيد ، ومطاردة الطرائد من أرانب وغزلان وحبارى وغيرها منذ صغره ، تأثر بكل ذلك وانطبع به شعره بعد أن نضجت ملكته الادبية .

رحلتــه فى طلب العلــم :

وقد رحل ابراهيم الفجيجى فى طلب العلــم الى فاس ، وأخذ فيها عن اساتذتها المشاهـير فى الدراسات العلمية والفقهية كالاستاذ الصغــير ، والشيخ ابن غازى ، وابى العباس أحمد الونشريسى صاحب المعيار وغيرهم .

ثم انتقل منها الى تلمسان ، وأخذ فيها عــن بعض أعلامها فى العلوم الاسلامية كالامام محمد بن يوسف السنوسى ، والامام ابن مرزوق ، والعقبانى والحافظ التنسى وغـيرهم .

ارتحـــاله الى المشــرق :

وفى أواخر القرن التاسع الهجرى ارتحل المترجم له الى المشــرق ، وأخـذ بمصر عن جــلال الدين السيوطى ، والبساطى ، وابن النجار الحنـفى ، وأخذ بالمدينة المشرقـة عن السخاوي والاشمونى، وغـيرهم ، وله عن جميعهم اجازات ومنـــاولات ومسلســلات (1)

عودتـهمن المشــرق :

وعاد المترجم له من المشرق الى وطنه بفجيـــج واقام فيه دارسا ومعلما مدة .

وفى هذه الاثناء توفى مواطنـه عبد الحق السكونى الشريف فرثاه بقصيدة لامية جاء فيها :

(1) جذوة الاقتباس لابن القاضى ص 94 — وتعريف الخلف للحفنـــاوى ج 2 ص 3

تغيرت البلدان و احلولك الليل
وشب ضرام الشر وانهمر السيل

وآن الرحيل عن بلاد تآمرت
بها المفسدون واستمر بها الهول

فلا فتكة الا وتنسيك فتكة
ولا فتنة ، الا ويدخلها الغول

ولا صلح الا اثره ألف غدرة
ولا قول الا غيره القول والفعل

سلام عليها لا تجاور جيرة
من الجور عتباهم اذا عاتبوا المثل

اتشكر أرض ليس ينهى سفيهها
على خطر يبقى بها من له الفضل

ارتحاله الى السودان :

ويبدو أن صاحب الترجمة لم يلبث الا قليلا بعد وفاة مرثيه السابق ثم عزم أن يرتحل الى بلاد السودان ، وقد يعود ذلك الى اضطراب الحياة الاجتماعية الذى عم منطقة فجيج فى هذه الآونة ، ونشأ عنه انتشار الفوضى،وكثرت المظالم والاعتداءات فحمله ذلك على مغادرة وطنه الى بلاد السودان . ولا ندرى المدة التى أقامها هناك ، ولا نشاطه فى موطنه الجديد ، على أنه لا يعدو أن يكون نشاطا تعليميا تبشيريا استمر الى أن توفى بعد سنة 900هـ.

مؤلفاته :

ترك صاحب الترجمة بعض آثار منظومة من اشهرها :

1 - روضة السلوان ، وهى قصيدة فى الادب الطردى أو ادب الصيد .

2 - منظومة فى الديانات ، ضمنها عيون الفقه ونوادر المسائل وسماها « المفيدة » .

3 - ومقطوعات أخرى كالمرثية السابقة ، ومنها بيتان رواهما أبو القاسم الفجيجى شارح قصيدته « روض السلوان » وهما فى نظم نسب النبى صلى الله عليه وسلم ، يقول فيهما :

علقت شفيعا هال عقل قرانه
كتاب مبين كسب لى غرائبه
فذا معشر نفسى كرام خلاصتى
منى اليهم مذ نيل مجد عواقبه

* * *

وقد ضمن أوائل كل كلمة حرفا من اسم أحد آباء النبى صلى الله عليه وسلم . فالعين من علقت لوالده عبد الله،والشين لشيبة وهو عبد المطلب،والهاء لهاشم ، والعين لعبد مناف ، والقاف لقصى ، والكاف لكلاب ، والميم لمرة ، والكاف أيضا لكعب ، واللام للؤى ، والغين لغالب ، والفاء لفهر ، والميم أيضا لمالك ، والنون للنضر ، والكاف لكنانة ، والخاء لخزيمة ، والميم لمدركة ، والالف لالياس ، والميم لمضر ، والنون لنزار ، والميم لمعد ، والعين لعدنان، وهو الجد المتفق على صحة النسب اليه ، وقد اختلف فيما بعده الى آدم عليه السلام ، وهناك قول ينسب السين للونشريسى أو الزقاق .

كلمة حول مخطوط قصيدة « روض السلوان » وشرحها :

ان قصيدة «روض السلوان» للفجيجى هى من

أجل القصائد في الادب الطردي . ومن نوادر التراث الفكري في الادب العربي بالجزائر ، لان منشئها الفجيجي قد طرق فيها موضوعا شيقا في الادب الوصفي وهو وصف الطرائد ، وحركات القناصين ، وهذا النوع معروف في الادب العربي، وقد أنشأ فيه الشعراء العباسيون قصائد جليلة كأبي نواس الذي قال فيه ضمن قصيدة :

لما تبدى من حجابه
كطلعة الاشمط من جلبابه
هجنا بكلب طالما هجنا به
ينتسف المقود من كلابه
كأن متنيه لدى انسلابه
متنا شجاع لج في انسيابه
كأنما الاظفور في قنابه
موسى ضناع رد في نصابه
تراه في الحضر اذا هاهى به
يكاد أن يخرج من اهابه

ومثله ابن الرومي الذي قال فيه من قصيدة :

وقد أغتدى للطير والطير هجع
ولو أوجست مغداي ما بتن هجعا
بخلين تما بي ثلاثة اخوة .
جسومهم شتى وأرواحهم معا
مطيعين أهواء توافت على هوى
فلو أرسلت كالنبع لم تعد موقعا
فشاروا الى آلاتهم فتقلدوا
خرائط حمرا تحمل السم منقعا

* * *

وقد طرق الموضوع غير هؤلاء من الشعراء ، وأهم ما يلاحظ على قصيدة ابراهيم بن عبد الجبار انها تمتاز بخصائص قد ترفعها عن غيرها من القصائد التي أنشئت في الموضوع .

ومن أهم ذلك انها قصيدة ذات وحدة موضوعية لا تشتمل الا على موضوع الصيد وما يتصل به ،

وانها قصيدة مليئة بضروب الوصف الحي للبيئة الصحراوية كوصف مجالس البادية ، ووسائل الصيد ، ووصف ذكور الطيور ، والجوارح التي يستعملها القناصون وكذلك وصف الديار ونزول الامطار ونباتات الارض وذكر أحكام الصيد ونشاطه من الوجهة الفقهية .

وتمتاز هذه القصيدة أيضا بأنها قصيدة طويلة النفس قد بلغ عدد أبياتها 214 بيتا من بحر الطويل وفي آخرها يقول :

وفي مائتي بيت تجلت وعشرة
لهن ثلاث للختام توابع
وأهدى صلاة مع زكي تحية
الى خير مبعوث ومن هو شافع

وعلى رغم ما في هذه القصيدة من جمال وطرافة فانها ينقصها الخيال الادبي ، والعاطفة ، وتثقلها في كثير من أبياتها الفاظ الفقهاء ، لتغلب الطابع الفقهي على الشاعر .

وقد شرح هذه القصيدة الشيخ أبو القاسم محمد بن عبد الجبار الفجيجي بشرح سماه «الفريد في تقييد الشريد وتوصيد الوبيد» وقال في آخره : انه فرغ منه في 16 ذي الحجة عام 986 هـ .

وتوجد نسخة منه بالمكتبة الوطنية تحت رقم 1509 ، خطها مغربي جميل ، وحجمها كبير ، وهذه القصيدة وشرحها يعدان من نوادر تراثنا الادبي ، وقد شعر الاستاذ نور الدين عبد القادر ، وزميله الحكيم هنري جهير، بأهمية هذه القصيدة فنشراها مع تعليق موجز وترجمت الى الفرنسية سنة 1959م ولو نشراها بشرحها الكبير لكان ذلك أكثر نفعا وأجدى صنعا ، لان هذا الشرح يشتمل على فوائد لغوية جليلة ، وقد أحببنا ان نطلع القراء الكرام على نماذج من هذه القصيدة الطريفة ليستعيدوا بمطالعتها لونا من ألوان الادب الطردي الذي يذكرنا بأخلاق الفروسية ، وبعهد الفتوة في مجال الصيد .

نماذج من هذه القصيدة :

يقول ابراهيم الفجيجي في مطلعها في وصف منافع الصيد :

يلومونني في الصيد والصيد جامع
لاشياء للانسان فيها منافع

فأولها كسب الحلال أتت به
نصوص كتاب الله وهي قواطع

فصحة جسم ثم صحة ناظر
و أحكام اجراء السوابق رابع

و بعد عن الارذال مع صون همة
واغلاق باب القيل والقال سابع

و أيضا لعرض المرء فيه سلامة
و حفظ لدينه و ذلك تاسع

و فيه لاهل الفضل و الدين عبرة
و تذكرة لها لديهم مواقع

ويورث طيب النفس والجود والسخا
ويألف منه الصبر من هو جازع

و ينفي الهموم المهرمات عن الفتى
و يقمع وفد الشيب كي لا يسارع

و يورث عند الالتحام شجاعة
و فيه من السر الخفي بدائع

كرعي نظام و افتقاد رعية
و حفظ جناب من عدو ينازع

و تدبير أمر الحرب و الفتك بالعدى
و صيد أسود الانس و الوحش تابع

* * *

ويصف القانص في بعض أبيات القصيدة فيقول:

بنفسي عفيفا مترفا ذا نزاهة
له في سماء المجد و السعد طالع

على هيكل نهد و فوق شماله
وقور من الصقور أبيض ناصع

* * *

ويستحضر الذكريات الماضية لايام الصيد فيقول :

أخي هل ترى الايام تجمع شملنا
و نحن على جرد سراع نطالع

لدى كل ربوة و أجراس طيرنا
لها زجل من فوقنا و قعاقع

فنقـضى من السلـــوان بعض غرامنـا
و نجنى جنى اللذات و الدهر خاضع

* * *

ويصف الصقر الذى يصيد به تصويرا بديعـا يجمع بين وصف الحركة واللون حتى يخيل الينـا اننا نراه أمامنا فيقول :

عظيم ثـلاث رأسـه ثم فخـــذه
و منســره لجزر ما هـو صـــادع
عليـه سمـــات الفـتك اما نظـرته
أطلت حـواجب ! و غـارت مـدامـع
طمـوح كثـير الالتفـات مسلـــط
لأم الســـلاح الدهر منـه فجـــائع

* * *

وفى آخر القصيدة يخاطب قارئه فيقول :

أتيـتك بالتحقيـــق نظما فخـــذ به
و دع عـنك ما ســواه فهو جعاجـــع
و دونـكهـا من بحـــر فـــكرى درة
تفجـر منهـا للعلـــوم ينــــابـع
فتنبت فى أرض القلـــوب معـــارفا
و تشـــرح صـدرا ضيقتـه الزعازع
فمن كان ذا جد رعى خصب حـــكمة
ومن يبتـغى الاحمـاض فالمـرج واسع
وفى مائتى بيـت تجـــلت و عشـــرة
لهـن ثـــلاث للختــــام تـوابــــع
و أهـدى صـــلاة مـع زكى تحيـــة
الى خـير مبعـوث و من هو شافـــع

* * *

وهكذا تنتهى هذه القصيدة الطويلة التى جمعت من ضروب الوصف الدقيق شيئا كثيرا . ولا شك ان قارئها سيجد فيها متعة وأدبا وطرافة قد لا يجدها فى قصائد كثير من الشعراء الذين طرقوا موضـوع الطرديات فى الادب العربى وحاولوا الابتـــكار والابـــداع فيه .



بجاية
من خلال بعض الرحالة المسلمين

رابح بونار
باحث بالمكتبة الوطنية

لعل التعريف بتاريخ بجاية وحضارتها لا يكون كاملا حتى نضيف الى ذلك بعض الوثائق التى كتبها بعض الرحالين او المؤرخين عنهـا فى مختلف عهودها ·

ولذلك رأيت أن أذكر هنا نصوصا كتبها كتاب مختلفون حول بجاية ، وسأوردها حسب ترتيبها الزمنى ليستطيع القارىء من خلال قراءته لها ، واستظهار ما جاء فيها ان يعرف لمحات عن تطور المدينة ، والاستفادة من ملاحظات كل كاتب عنها ·

وقبل أن أذكر هذه النصوص أسجل بعض ملاحظات عنها ·

ومن ذلك ان البكرى فى القرن الخامس ذكر ان بجاية كانت ساحلا لقلعـة ابى طويـل ، وبغربها قلعة بنى حماد لانها كانت تسمى بهما معا ·

ويذكر الادريسى (548 هـ) ان بجاية قد ازدهرت حينما صارت عاصمة لبنى حماد بـدل القلعة فكانت تجارتها مزدهرة وصناعاتها رائجة ·

وعادت قطبا لكثير من مدن المنطقة الشرقية ونجد فيما كتبه ياقوت الحموى (626 هـ) ·

معلومات هامة عن بجاية منها ضبط اسمها ، وتحديد تاريخ تأسيسها بسنـة 457 هـ على خلاف المشهور من أنها أسست حوالى سنة 460 ·

ومن ذكر اسمها الذى أطلقه الناصر عليها وهو الناصرية وذكر سبب تأسيسها ·

ونجد صاحب الاستبصار الذى عاش فى القرن السابع هـ على ما يبدو يذكر ان بانيها هو المنصور بن بلكين ، وقد انفرد وحده بهذه الرواية مع ان بانيها الحقيقى هو أبوه الناصر بن علناس ويذكر أيضا العمائم التى اختص بها الحماديون ، واهتمامهم بتحسينها وتجويدها ٠

وابو الفداء اسماعيل (732 هـ) يذكر معلومات عن اسم المدينة وما يقابلها من بلاد الاندلس ويذكر محمد بن ابراهيم الكتبى المتوفى سنة (714 هـ) ٠ معلومات عن طيب هواء بجاية وفوائد نهرها الفسيح ، وهو الى ذلك يذكر ان الناصر بن حماد بنى بجاية سنة 457 هـ على خلاف الرواية التى تذكر سنة أخرى ٠

ونجد فيما كتبه ابن خلدون معلومات عن اسم بجاية الذى يعود اصله الى اسم القبيلة التى كانت تسكن المكان ٠ وعن قصر اللؤلؤة الذى بناه الحماديون ، وعن حث الناصر لعموم الناس على سكناها ٠

وهو يذكر ان الناصر قد انتقل اليها وسكنها سنة 461 هـ ٠

هذه خلاصة ما كتبه الرحالون والمؤرخون القدماء عن مدينة بجاية وقد الحقنا بها خلاصات لما كتبه بعض الكتاب المعاصرين كالشيخ المهدى ، وصاحب ارض البطولة ، ودائرة المعارف الاسلامية ٠

وبذلك نرجو ان نكون قد قدمنا نصوصا حية تساعد على دراسة تاريخ بجاية وحضارتها ٠

والله الموفق للصواب ٠

1) ما كتبه البكرى فى القرن الخامس هـ :

مرسى بجاية هو ساحل قلعة ابى طويل ، وعلى هذا المرسى من تلك الجبائل قبائل كتامة ، وهى شيعية يكرمون من مال الى مذاهبهم ، ويبرون من وافق اعتقادهم وجزيرة جوبة ! قبل مرسى بجاية (1) ٠

2) ما كتبه الشريف الادريسى (548 هـ) :

مدينة بجاية فى وقتنا هذا (حوالى سنة 548 هـ) مدينة الغرب الاوسط ٠

وعين بلاد بنى حماد ، والسفن اليها مقلعة ، وبها القوافل منحطة ، والامتعة اليها برا وبحرا مجلوبة ، والبضائع نافقة واهلها مياسير تجار ، وبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد ، واهلها يجالسون تجار المغرب الاقصى وتجار الصحراء ، وتجار المشرق

---

1) البكرى ابو عبيد (487 هـ) : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب (وهو جزء من المسالك والممالك نشر دوسلان الجزائر مطبعة الحكومة 1857 م) ص 82 ٠

وبها تحل الشدود ، وتباع البضائع بالاموال المقنطرة ولها بواد ومزارع ، والحنطة والشعــير بها موجودان كثيران ، والتين ، وسائر الفواكه بها منها ما يكفى لكثير من البلاد ، وبها دار صناعة لانشاء الاساطيل والمراكب والحرابى ، لان الخشب فى اوديتها وجبالها كثير موجود ويجلب اليها من اقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران وبها معادن الحديد الطيب موجودة وممكنة ، وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة ، وعلى بعد ميل منها نهر ياتيها من جهة المغرب من نحو جبــال جرجرة ، وهو نهر عظيم يجاز عند فم البحر بالمراكب ، وكلما بعد عن البحر كان ماؤه قليلا ٠

ويحوز من شاء فى كل موضع منه ٠

ومدينة بجاية قطب لكثير من البلاد ٠٠٠ وأما هى فى ذاتها فانها عمرت بخراب القلعة التى بناها حماد بن بلكين ، وهى التى تنسب دولة بنى حماد اليها (2) ٠

3) ما كتبــه ياقــوت الرومى (626 هـ) :

بجاية بالكسر وتخفيف الجيم وألف وياء وهاء ، مدينة على ساحل البحر بين افريقية والمغرب كان اول من اختطها الناصر بن علناس بن حماد بن زيرى بن مناد بن بلكين فى حدود سنة 457 هـ ، بينها وبين جزيرة بنى مزغناي أربعة أيام ٠ كانت قديما ميناء فقط ثـــم بنيت المدينة وهى لحق جبل شاهق ، وفى قبلتها جبال ٠ كانت قاعدة ملك بنى حماد ، وتسمى الناصرية أيضا باســـم بانيها ، وهى مفترقة الى جميع البلاد لا يخصها من المنافع شىء ٠ انما هى دار مملكة تركب منها السفن وتسافر الى جميع الجهات وبينها وبين ميلة ثلاثة أيام وكان السبب فى اختطاطها أن تميم بن المعز بن باديس صاحب افريقية انفذ الى ابن عمــه الناصر بن علناس محمد بن البعبع رســـولا لاصلاح حال كانت بينهما فاسدة خمر ابن البعبـــع بموضع بجاية ، وفيه أبيات من البربر قليلة فتأملها حق التأمل ، فلما قدم على الناصر غــدر بصاحبه واستخلى الناصر ودله على عـــورة تميم ، وقرر بينه وبين الناصر الهرب من تميـم والرجوع اليه ، واشـــار عليه ببناء بجاية ، واستركبه وأراه المصلحة فى ذلك ، والفائدة التى تحصل له من الصناعة بها ، وكيد العــدو فأمر من وقته بوضع الاساس وبناها ونزلها بعسكره ، ونمى الخبر الى تميم فأرصد لابن البعبـع العيون فلما أراد الهرب قبض عليه وقتله والحق به عاقبة الغــدر (3) ٠

---

2) الشريف الادريسى : بعد سنة 548 هـ ٠ وصف افريقيا الشمالية والصحراوية ٠ المأخوذ عن نزهة المشتاق ــ نشر هنرى بيريس ٠ الجزائر 1376 هـ ــ 1957 م ، ص 63 ٠

3) ياقوت الرومى 626 هـ معجم البلدان (مصر مطبعة السعادة) ج 2 ، ص 62 ٠

4) ما كتبه صاحب الاستبصار فى عجائب الامصار (1) :

مدينة بجاية هى مدينة عظيمة على ضفة البحر ، والبحر يضرب فى سورها ، وهى محدثة بناها ملوك صنهاجة اضحاب قلعة ابى طويل ٠

وتعرف بقلعة حماد اليوم ، وكان سبب بنائها ان العرب لما دخلوا افريقية ، وافسدوا القيروان واكثر مدن أفريقية ، وهرب منهم صاحب القيروان الصنهاجى ، وتحصن بمدينة المهدية وكان ابن عمه صاحب القلعة المنصور بن بلكين بن حماد اشد شوكة من صاحب القيروان واكثر جيشا خرج لنصرة ابن عمه ، وجيش جيشا كثيرا ، فلقيته العرب بجملتها بفحص سبيبة على مقربة من القيروان ، فكان بينهم يوم عظيم حتى هزم المنصور ، وقتل أخوه واكثر صنهاجة ٠٠٠ وكانت لملوك صنهاجة عمائم شرب مذهبة يغلون من أثمانها ، تساوى العمامة خمسمائة دينار وستمائة وازيد ، فكانوا يعصبونها بأتقن صنعة ، فتاتى كانها تاج ، وكان ببلادهم صناع لذلك ، يأخذ الصانع على تعميم عمامة منها دينارين وأزيد ، وكانت لهم قوالب من عود فى حوانيتهم يسمونها الرؤوس يعممون عليها تلك العمائم فلمانجا المنصور الى القلعة نزلت عليه جيوش العرب وضيقوا بلاده فكان يصانعهم حتى ضاق ذرعا بهم ، وكان لا يقدر على التصرف فى بلاده فطلب موضعا يبنى فيه مدينة ، ولا يلحقه فيه العرب فدل على موضع بجاية ، وكان مرسى ويقال انه كانت فيه آثار قديمة فيما سلف فبناها المنصور ، وسماها « المنصورية » وانتقل ملكهم من القلعة الى بجاية واتخذوها دار مملكة (4) ٠ ٠٠٠ وهى مدينة عظيمة ، ما بين جبال شامخة قد احاطت بها ، والبحر منها من ثلاث جهات فى الشرق والغرب والجوف ، ولها طريق الى جهة الغرب يسمى بالمطبق ٠

5) ما كتبه ابو الفداى اسماعيل عماد الدين اسماعيل (732 هـ) :

بجاية هى كما يقول ابى سعيد : بكسر الباء الموحدة ، وفتح الجيم ثم الف وياء مثناة من تحت وهاء ٠

« وبجاية هى قاعدة الغرب الاوسط ، ولها نهر على شاطئه البساتين والمناره فى شرقى بجاية ، ويقابل بجاية من الاندلس طرطوشة وعرض البحر بينهما ثلاثة مجار ، وغربى بجاية جزائر بنى مزغنان « الجزائر » وهى فرضة مشهورة من عمل بجاية » (5) :

4) مجهول : كان يعيش فى القرن السادس الهجرى على ما يبدو وعلى الاستبصار فى عجائب الامصار ٠ مخطوط المكتبة الوطنية رقم 2220 ٠ الورقة 23 ٠

5) ابو الفدا عماد الدين اسماعيل (732 هـ) تقويم البلدان باريس دار الطباعة السلطانية 1840 م ص 136 – 137 ٠

6) **ما كتبه محمد بن ابراهيم الكتبى (714 هـ) :**

بجاية مدينة حسنة البناء ، طيبة الفنا ولها نهر فسيح ، تدخله المراكب من البحر الى البلد بناها الناصر بن علناس احد بنى حماد سنة (457 هـ) وبنا حيتها جبال الرحمن ، وهى جبال تعمرها قبائل البربر كتامة : بها معادن نحاس ولازورد ·(6)

7) **ما كتبه ابن خلدون عبد الرحمن (808 هـ) :**

يقول ابن خلدون متحدثا على الناصر بن علناس : وفى سنة 460 هـ افتتح جبل بجاية ، وكان له قبيل من البربر يسمون بهذا الاسم ، الا ان الكاف فيهم بلغتهم ليست كافا بل هى بين الجيم والكاف وهذا القبيل من صنهاجة باقون لهذا العهد اوزاعا فى البربر ، فلما افتتح هذا الجبل اختط به المدينة وسماها « **الناصرية** » وتسمى عند الناس باسم القبيلة وهى بجاية ، وبنى بها قصر اللؤلؤة وكان من اعجب قصور الدنيا ، ونقل اليها الناس ، واسقط الخراج عن ساكنيها ، وانتقل اليها سنة احدى وستين (يعنى سنة 461 هـ) ·(7)

8) **ما كتبه صديقنا الشيخ محمد المهدى القسنطينى :**

خلاصة مقاله : « بجاية من أمهات المدن الافريقية العتيقة ، ويقال انها كانت موجودة قبل العصر القرطاجنى ، وأن الفينيقيين قد عرفوها حين قدومهم الى هذه البلاد منذ اكثر من عشرة قرون قبل المسيح ، وازدهرت فى العهد الرومانى ·

وكان كثير من الجغرافيين القدماء يعتبرونها تابعة لاراضى نوميديا ·

موقعها : وتقع بجاية فى سفح جبل قوراية الشامخ الذرى ، وعلى مسافة قريبة من شرقها يوجد وادى الصومام او وادى بو مسعود الذى يصب فى البحر محاذيا لبجاية ·

وكلمة بجاية هى تسمية حديثة لان الرومان كانوا يسمونها صلداى ·

وقد حدثت بها عدة ثورات فى العصر الرومانى افقدتها شيئا مما كان لها من البهجة والعمران وبعد دخول المسيحية لشمال افريقية صارت بجاية قاعدة أخرى لها بعد بونة وفى عهد الواندال (ق 5 ـ 6 م) كانت بجاية تابعة لهم ، واتخذها جنسريق عاصمة له فى أول الامر · وفى عهد بنى زيرى كانت بجاية فى أوج ازدهارها العلمى والاقتصادى ، وكانت من أعظم الموانئ وفى ايام الحفصيين كانت بجاية احدى مراكزهم المعتبرة ، وكانت مزدهرة بالعلوم ومن علمائها

6) محمد بن ابراهيم الكتبى ، مباهج الفكر ومناهج العبر · مخطوط المكتبة الوطنية الورقة 67 ·

7) ابن خلدون عبد الرحمن : كتاب العبر (بيروت · دار الكتاب اللبنانى 1959 ، ج 6 ، ص 357 ·

الذين القوا بها دروسا بمسجدها الاعظم ابن خلدون · وفى أواخر عهد الحفصيين احتلها الاسبان ثم افتكها منهم الاتراك ، ودامت تحت حكمهم 330 سنة وحكمها منهم 82 باشا · ثم دخلت تحت الحكم الفرنسى فى 29 سبتمبر عام 1833 م ، ووجد الفرنسيون أنفسهم بعد فتحها امام مشكلة حفظ الصحة ، لان هواء بجاية كان منذ القديم غير صحى ، وابن خلدون فارقها الى بسكرة لهذا السبب ! وقد فتكت الامراض بجنود الفرنسيين ، وقد نجح الفرنسيون فى مكافحة هذه الامراض ولا سيما مرض حمى التفوييد ، بردم البرك ، والاكثار من غراسة الاشجار داخل المدينة وخارجها ثم فرضوا رقابة صارمة على اللحوم والفواكه حفظا للصحة العامة ·

وفى عهد الحكم المدنى فى منتصف القرن التاسع عشر م كانت الامراض قد قلت وحينئذ تصدى الفرنسيون لتحسين المساكن والانهج والاراضى فيها حتى أصبحت عامرة مزدهرة ، وعادت من اجمل الحواضر البحرية فى مناظرها الناضرة ، وشطوطها الزاخرة ، واحيائها العامرة ، وعاد مرساها فى الدرجة الثالثة بعد مرسى عنابة وسكيكدة ·

وهى الآن من اهم المراكز السياحية حيث يتوجه السواح منها من راس أوقاس لمشاهدة المغارة البديعة La grotte merveilleuse أو يتوجهون منها الى جيجل والقل وسكيكدة وسط الجبال الشاهقة والاحراج الكثيفة ، يرافقهم عجيج البحر على طول المسافة المذكورة » (8) ·

ما كتبه صاحب ارض البطولة :

خلاصة ما كتبه : « بجاية يطلق الفرنسيون عليها اسم Bougie اى الشمعة ، ولعل هذا الاسم مشتق من شهرة أهلها بتجارة الشمع منذ عهد بعيد ، وهى ميناء هام فى الوقت الحاضر وتابعة لمقاطعة قسنطينة اداريا وتبعد عنها بمسافة 266 كلم ·

وقد شيدت على شكل مدرجات فوق المنحدرات السفلية بجبل قوراية الذى يبلغ ارتفاعه 660 م ، وتطل على خليج يسمى باسمها ، يحميه عدد كبير من الكتل الصخرية العالية ومناخها معتدل فى الصيف لوقوعها فى الجهة الشمالية الغربية من هذا الخليج ، وفى فصل الشتاء تسقط الامطار غزيرة فى منطقتها مما يعين على وفرة محاصيلها الزراعية وهى غنية بأشجار الزيتون والسرو ، والصفصاف وغيرها » ·

تاريخها : والمعلومات التى تتصل بها فيما يخص القرون الثلاثة للفتح الاسلامى غير معلومة ! وهى قائمة على مدينة رومانية قديمة اسمها صلداى Saldae

8) الشيخ محمد المهدى : خلاصة مقاله بجاية فى القديم والحديث (الجزائر · مجلة هنا الجزائر عدد 74 سنة 1378 هـ · 1959 م ·

ويذكر البكرى فى عهده على انها بلدة قديمة يسكنها الاندلسيون ، ولها ميناء جيد ، ومشتى جميل وابن خلدون يقول ان القبيلة التى تسكنها تدعى « بقاية » فسميت المدينة باسمها .

وفى عهد بنى حماد بعد ان هاجمهم الهلاليون وضايقوا عاصمتهم « قلعة بنى حماد » فكـر الناصر بن علناس رابع سلاطينهم فى تأسيس مدينة جديدة ، وتمكن من احتلال بجاية سنة 453 هـ فشيد بها مدينة بجاية ، واقام بها دارا للصناعـة « ترسانة » لصناعة السفن ، وفى سنة 483 هـ (1091 م) نقل المنصور بن الناصر عاصمته اليها ، ومن ذلك التاريخ صـارت من أهـم المدن الجزائرية .

وتمتد حولها السهول الخصبة التى تجود بالقمح والشعير والفاكهة بكميات وافـرة ، وتنتج منطقتها الاخشاب ومادتي الراتينج والقطران الجيد فى عهد الموحدين : وفى عام 546 هـ ، استولى عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين واحتلها ابن غانية سنة 579 هـ ثم استولى عليها الحفصيون عام 629 هـ وتوالت عليها الانقلابات ثم جعلها الحفصيون قاعدة لولاية مستقلة ، وغزاها بنو زيان حوالى سنة 719 هـ وغزاها المرينيون وحكموها من سنة 748 هـ الى سنة 763 هـ .

وظلت كذلك تابعة لحكمهم حتى هاجمها الاسبان بقيادة بدرو **نافارو** فى فبراير سنة 915 هـ ـ 1509 م فاستولى عليها ، وجدد حصونها ثم خربها ونهبها وفى عام 919 هـ اغار عليها عروج التركى وعجز عن فتحها .

وفى سنة 963 هـ (1555 م) غزاها صالـح بكلربك وبعد سنة اجبر حاكم المدينة الفونسو دبى بيرالتا وكان ذلك فى 28 سبتمبرمن العام المذكـور .

وحكمها الاتراك نحو 188 سنة ، ووضعوا بها حاميـة عسكرية ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يقهروا قبائلها المجاورة لها ، وفى اواخر عهدهم هجر المدينة سكانها حتى لم يبق فيها الا نحـو الف ساكن فى القرن 18 م . كان منهم الحامية التركية التى بلغ عددها 160 جنديا انكشاريا .

الاحتلال الفرنسى : واعدت فرنسا حملة فى ميناء طولون وعهدت بقيادتها للقائـد تريزيل فوصلها فى 19 سبتمبر عام 1833 م ـ 1249 هـ .

وبعد قتال عنيف قام به أهل المدينة من 30 سبتمبر الى 12 اكتوبر دخلها الفرنسيون ولـم يستقروا بها استقرارا حقيقيا الا بعد ان اخضعوا بلاد القبائل فى حملتهم التى استغرقت ما بين سنتى 1264 هـ ـ 1847 م = 1275 هـ ـ 1858 م) . أى أكثـر من 11 عاما .

وبعد ذلك اخذ الفرنسيون فى استغلال المناجم العديدة بالمنطقة مع انشاء الطرق ، ومد السكك الحديدية التى تربط الميناء بمناطق القبائل او بسهـول سطيف المرتفعة ، وبها معاصر الزيـت والمدابـغ وغيرها .

وسكان بجاية الآن وقبل الاستقلال بقليل نحو 40 الف نسمة .

10) ما كتبه الاستاذ توفيق المدني :

مدينة بجاية مدينة التاريخ الحافل ، وعاصمة دولة بنى حماد الامجاد ، مرساها من احسن مراسى القطر الجزائرى ، وحركتها للتصدير والتوريد قديمة ، ونهضتها لايستهان بها ، وقد قضى الاحتلال الاسبانى على آثارها الاسلامية (10) ·

11) ما كتبته دائرة المعارف الاسلامية :

جاء فيها : بجاية مدينة بالجزائر على شاطىء ألبحر تابعة لاقليم قسنطينة وهى على خط طول 9 · شرق جرينوتش ، وخط عرض 49 36° شمالا ويبلغ عدد سكانها وفقا لتعداد سنة 1906 م 5528 نسمة ·

وقد بنيت هذه المدينة على شكل مدرج فوق المنحدرات السفلية لجبل جوراية (660 م) وهى تطل عن خليج تحميه من الرياح العاصفة عدة كتل عالية من الصخور ومنـاخ هذه المدينة معتدل جدا فى الصيف ويكثر سقوط المطر الغزير فى تلك المنطقة ولهذا تكثر المزروعات مثل اشجـار الزيتون والصفصاف والسنوبر وغير ذلك.

ولا نعرف الا القليل عن تاريخ بجاية خـلال القرون الثلاثـة الاولى التى اعقبت الفتـح الاسلامى بل اننا لا نعرف ايضا العهد الذى اختفت فيه المدينة الرومانية سالداى Saldae ـ التى كانت تشغل المكان الذى قامت عليه مدينة بجاية الحالية · ويظهر مع ذلك ان الملاحين لم ينقطعوا عن التردد على هذه الفرضة وان ضاحية من الضواحي قد ظلت باقية على سفح جبل جوراية ·

ولم يكن لبجاية شان هام فى تاريخ البربر الا فى عهد بنى حماد ، وذلك عندما رأى سلاطين قلعتهم انهم مهددون بغزوات العرب الهلاليين فعزموا على ان يكونوا على مقربة مـن الشاطىء · ففى عام 453 هـ (1063 م) استولى الناصر بن علناس رابع سلاطين بنى حماد على بجاية وابتنى هناك مدينة سماها الناصرية ولكن الاهالي ظلوا يطلقون عليها اسم بجاية · واجتذب اليها عددا كبيرا من السكان اذ كان يعفى جميع السكان الجدد من الضرائب ، وتذهب الروايات كذلك الى أنه كان يجبر الأهالى على بناء المساكن كما كان يفرض على كل من يدخل هذه المدينة ان يجلب معه حجرا أو يدفع قطعة من الذهب ·

واستقر هو نفسه فى تلك المدينة عام 461 هـ وابتنى بها قصـرا أسماه اللؤلؤة كما ابتنى رصيفا ممتدا فى البحر ، ودارا لصناعة السفـن ، وقناطر معلقة بجر المياه ، وسـورا حول المدينة به ابراج ، ونقل ولده وخليفته المنصور عاصمة ملكه من القلعة الى بجاية وذلك عام 483 هـ

10) الاستاذ توفيق المدنى : جغرافية الجزائر (الجزائر · 1953 م ص 117) ·

1091 م) وشيد هناك قصر اميمون ، وابتنى مسجدا تزينه منارة ارتفاعها ستون قدما وواجهـــة بها 17 باكية Porticoes كما جلب اليها المياه من جبل توجه بواسطة القناطر المعلقة • وغدت بجاية بذلك من أهم مدن المغرب ، وكانت هذه المدينة مقسمة الى 21 حيا وتضم 72 مسجدا ، وقد أشاد الرحالون بغناها وعظمتها وبناشاطها التجـــــارى ••• » •

بجاية فى آخر عهدها الاسلامى : « ولما اعتزم الاسبانيون الاستيلاء على بعض الاماكن فكروا فى انتزاع بجاية من ايدى المسلمين فاستولى بدرونافارو = Pedro Navarro على هذه المدينة فى شهر فبراير من عام 1509 م وجدد الاسبان حصونها • اما المدينة نفسها فنهبت وخرب قصر بنى حماد الذى كان لا يزال قائما ، واغار عروج على بجايـــة عـــام 1513 ولكن الاسبان أفلحوا فى مقاومته واحتفظوا بالمدينة حتى عام 1555 م غير ان سلطانهم فيها كان مزعزعا •

وظل اهل القبائل يحاصرون هذه المدينة دون انقطاع فى حين ان حاميتها من الاسبان لـــم يزودوا بالمعونة الكافية من الرجال والزاد والذخائر ، وكانت اسوار هذه المدينة قد تخربت عندما جاء بكلربك صالح رئيس وداى الجزائر لمحاصرتها فلم يمض ستة أيام حتى تم له النصـــــر واجبر الفونسو دى بيرالتا حاكم المدينة على التسليم فى الثامن والعشرين من سبتمبر عام 1555 م

وعندما رجع هذا الحاكم الى اسبانيا حوكم امام مجلس عسكرى وحكم عليه بالموت فقطعت رأسه •

واحتفظ الترك بسلطانهم فى هذه المدينة مدة 188 سنة ووضعوا هناك حامية ولكنهم لم يتمكنوا قط من استمالة القبائل المجاورة او اعادة تلك المدينة الى سالف مجدها ولم يكن فى هذه المدينة حتى القرن الثامن عشر الا خمسمائة او ستمائـــة نسمة عدا حاميتها ويبلـــغ عددها 160 جنديا من الانكشارية •

وبعد استيلاء الفرنسيين على الجزائر « اعدوا حملـــــة فى طولون على راسها القائد تريزل tresel فوصلت الى هذه المدينة فى 19 سبتمبر عـــــام 1833 م وبعد قتـــــال عنيف فيما بين 30 سبتمبر و 12 اكتوبر استولى تريزل على المدينة ، وظل مركز الفرنسيين فى بجاية متحرجا بسبب مناوشات اهل القبائل حتى انهم فكروا فى مناسبات مختلفة فى التخلى عن هذه المدينة اذ شعروا ان احتلالهم لها غير مجد ولم يستتب لهم الامن فيها الا بعد غزو اهل القبائل عام 1847 م الى عام 1857 م ومنذ ذلك الوقت اخذ الفرنسيون فى تحسين وادى الصـــومام واستغلال المناجم العديدة الموجودة فى ذلك الاقليم وانشاء الطرق ومد السكك الحديدية التى تربط بجاية بأهل القبائل الكبرى من جهة ، وبسهول سطيف المرتفعة ومجانة من جهة أخرى وفى هذه العوامل كلها جعلت المدينة ترفل فى حلل الرخاء كما انها اعطت ميناءها قيمة تجارية هامـــــة (11) •

11) ايفير ــ مقال حول بجاية ــ دائرة المعـــارف الاسلامية ج 3 ص 250 ــ 252 •

مخطوط ينشر لأول مرة

تاريخ بني حماد

للسان الدين الخطيب المتوفى سنة 776 هـ

تقديم :
رابح بونار
باحث بالمكتبة الوطنية

ان هذه النبذة التاريخية حول بنى حماد هى بعض اجزاء القسم الثالث من كتاب اعمال الاعلام لابن الخطيب ، وهى نبذة ذات اهمية لانها تتناول تاريخ بنى حماد الذى اعرض كثير من المؤرخين عن تدوينه ، وتعتبر هذه النبذة جزءا مكملا لما كتبه ابن خلدون عنها فى كتاب العبر فى المجلد السادس .

وقد نجد فيها معلومات قيمة لا نجدها فى تاريخ ابن خلدون نفسه . ومن هنا تاتى اهمية هذه النبذة التاريخية . وتتجلى قيمتها عندما يبحث المؤرخ تاريخ بنى حماد وحضارتهم فى القرنين الخامس والسادس الهجريين .

الحمد لله ، بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وسلم تسليما ٠

ذكر قسم الملوك صنهاجة من ذرية حماد بن بلكين بقلعة حماد وبجاية وما اليها ا هـ ٠(1)

وقد تقدم ما كان من تسليم حماد بن بلكين الامر لاخيه المنصور ، وان ولده باديس لما صار اليه الامر صرف حماد الى المغرب فخرج من القيروان سنة 390 هـ (2) بعد ان اشترط عليه ما شاء وجعل له كل ما يفتحه ، واعفاه من الوصول الى افريقية بعد فتعين لحماد بالجهة الغربية ملك كبير ٠

---

1) هذه النبذة من تاريخ بنى حماد اقتطعت من كتات لابن الخطيب لا نعرف ما هو ٠ وهو يقع ضمن مخطوطة تحمل رقم 1588 ٠ الورقة 106

2) ابن خلدون كتاب العبر ، ج ، 6 ـ ص 349 ٠ ان ذلك كان سنة 487 هـ ٠ ويذكر انه نبذ طاعة العبيديين وقتل الرافضة ٠

1) دولة حماد بن بلكين بن زيرى بن مناد :

وكان حماد نسيج وحده ، وفريد دهـره ،وفحل قومه ملكا كبيرا وشجاعا ثبتا ، وداهية حصيفا • قد قرأ الفقه بالقيروان فنظر فى كتب الجدل واخباره مشهورة، وهو الذى بنى القلعـة المنسوبة الى حماد بالحضرة الباقية الاثر على توالى الغير وتسمى غياثا فا تخذ بها القصور العالية والقصاب المنيعة والمساجد الجامعة ، والبساتين الانيقة ، ونقل اليها الناس من سائر البلاد ما بينه وبين باديس بن اخيه وتحرك كل منهمـا الى لقاء صاحبه فكان جيش حماد الذى خـرج به من القلعة آخر سنة 405 هـ ثلاثين ألف فارس

واتيح عليه الظهور لابن أخيه باديس كمـا تقدم ذكره ونزل الفرج على حمـاد بوفاته ، واتصلت بعده أيام حماد الى ان توفى فى شهررجب 429 هـ (2) وولى بعده ولده القائد ابـو حمـاد •

2) دولة القائد بن حماد بن بلكين بن زيرى

واستقام الامر للقائد بن حماد لاشتغـال المغرب بابن باديس عنه ، لما دهمه من العـرب وكان شديد الرأى ، عظيم القدر، وتحرك الى جربة حمامة بن زيرى المغراوى أمير مدينة فاس وخلع القائد بنى عبيد كما فعل ابن عمه ، ودعا الى بنى العباس الى ان هلك فى ذى القعدة سنة 446 هـ فكان ملكه سبعا وعشرين سنة وولى بعده ولده محسن •

دولة محسن بن القائد بن حماد بن بلكين :

وكان القائد أوصى أبنه محسنا ان لا يخرج من القلعة الى تمام ثلاثة سنين فخالف وصيتـه لما نازعه يوسف بن حماد عمه بالمغرب وخـرج اليه فاغتاله أبن عمه بلكين بن محمد بن حماد ، وكان واليا على بلاد اكربون • فقتله وعـاد الى القلعة فدخلها ليلا وملكها • وكانت ولاية محسن ثمانية اشهر وثلاثة وعشرين يوما ووفاته فى ربيع الاول سنة 447 هـ •

2) عند ابن خلدون : كتاب العبر ج ، 6 ـ ص 332 انه توفى سنة 419 هـ • ولعل هذه الرواية هى الصواب •

3) دولة بلكين بن محمد بن حماد بن بلكين :

وكان شجاعا جريا على العظائم سفاكا للدماء ،وتحرك من القلعة لحرب زناتة في صفر سنة 454هـ وكان قد بلغه ظهور يوسف بن تاشفين ببلاد المصامدة فتحرك حتى نزل بفاس ففتحها وجاس بلاد المغرب ودوخها ، وبلغ يوسف بن تاشفين خبره فكر راجعا الى الصحراء خوفا منه الى ان قيض له من الناصر احد بنى عمه ، واقدم عليه اقدام الأسد ففرق بين روحه والجسد .

وله حكاية مشهورة ، قال ابن بسام فى كتاب الذخيرة ما نصه : واذكر هذه القارة الصلعا ، والفتكة الشهيرة الشبرهاء ، اذا الشيء يذكر مع من جانسه ، ويضم الى ما التف به ، ولابسه ما اتفق فى مثلها فى ملك المنادين الغالين الى وقتنا هذا على طرف افريقية الادنى المستقرة رياستهم بقلعتهم المنسوبة الى جدهم حماد ، وذلك انه لما افضى ملكهم الى بلكين بن محمد آخر جبابرة الاسلام المفتاتين على الايام من رجل كان لا يملأ يده الا من لبدة أسد ، ولا يسرح لحظه الا فى نهاب بلد مضطهد ، ولا يدافع الا وبحر الموت يلتطم ، ولا يكلم الا حين يبتسم ، قد تجاوز فى شدود (لعله شذوذ) امنيته وقهره لرعيته ، والاخافة لاقرانه ، والاستبداد على زمانه غاية من سلف من جبابرة الارض،وسمع به من فراعنة الابرام والنقض الى شهرة آثاره ، وتطارح اسفاره ، وما لا يحصى من عجائب اجناده .

حدث انه آب مرة من بعض غزواته (3) فكأنه ارتاح الى ما يرتاح اليه الناس من اراحة نفسه ، والخلو ولو ساعة يوجه انسه فجلس لذلك مجلسا حشر له شهواته ، وتقدم فى احضار ما يصلح من آلاته وادواته وامر قيمة جواريه باستحضار عقيلة اترابها يومئذ جلالة سلطان ، وحسن سماع وعيان احدى بنات عمه دنيا لم ير بعد ما زعموا ولا قبلها ابدع ظرفا ولا اقتل طرفا ، فجاءت تود الثريا لو تكون نعلها ، والشمس تصور مثلها وقد خطرت بنفسه احدى هناته ، وتمثلت له بعض غزواته ،فأخذ يدبر ويدبر ، وطفق يورد فيصدر ، قالت قيمته وكان نظره الى الكاس فى يده ، والى أبنة عمه قائمة على رأسه فاعتذر اليها ، واستدناها وسناها ، وقام من حينه فوضع الكاس ملآنا فى طاق ، وطبع عليها ، وامر بالركوب من حينه فغزا غزوته المشهورة الى غرب العدوة وبلغ فيها مدينة فاس فوطأ الدول ودوخ السهل والجبل .

3) جملة مطموسة بالاصل .



الحمد لله بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم تسليما

صنهاجة

ذكر قسم الملوك صنهاجة
من ذرية حماد بن بلكين
بقلعة حماد وبجاية
وما اليها

اه

١٥٨٨

وقد تقدم ما كان من تسليم حماد بن
بلكين الامر لاخيه المنصور وان ولده باديس
لما صار اليه امر ابيه صرف حماد الى المغرب
فخرج من القيروان ٣٩٥ سنة بعد ان
اشترط عليه ما شاء وجعل له كل
ما يفتحه واعطاه من الوصول الوافر
بقية بعضه فتعين لحماد بالجهة
الغربية ملك كبير

دولة حماد بن بلكين
بن زيري بن مناد

وكان حماد نسيج وحده وفريد عصره
وفحل قومه ملكا كبيرا وشجاعا
ثبتا وداهية حصيفا قد قرأ الفقه
بالقيروان ونظر في كتب الجدل واخباره
مشهورة وهو الذي بنى القلعة
المنسوبة الى حماد بالحضرة الباقية
الاثر على توالي العصر وتسمى غبانشا
فاتخذ بها القصور العالية والقصاب
المنيعة والمساجد الجامعة والبساتين
الانيقة ونقل اليها الناس من ساير
البلاد ما بينه وبين باديس بن اخيه
وتحرك كل منهما الى لقاء صاحبه
فكان جيش حماد الذي خرج به من القلعة
آخر ٤٠٥ سنة ثلاثين الف فارس وابنج
عليه المنصور بن اخيه باديس كما
تقدم ذكره ونزل الفرج على حماد بوفاته
واتصلت بعد ايام حماد الى ان توفي
في شهر رجب ٤١٩ سنة وولي بعده ولده

ثم رجع الى ذلك المجلس بعينه ، واستدعى كأسه تلك ، وابنة عمه فخلا بنفسه ، وقضى وطره من لذة نفسه بعد ايام كثيرة وحروب مبيرة .

ولما تناهى أمره ، وتجاوز السهى ذكره ، وظن ان الناس على حكمه ، وان البلاد تحت ختمه فى بعض أسفاره ... (4) ابن عمه الناصر اصغر خلق الله شانا واهونهم عليه سرا (5) وهجم من ضيق المسالك على الموت ، وهو ينظر لم يشاور الا الحسام ولا استصحب الا الاقدام ، وقد كان بعض نصحاء بلكين خوفه منه لكلمة أخذت يومئذ عنه فجعلها بلكين نعلة ركابه وسمر أصحابه وكان قلما يركب الا دارعا خداعا يأخذ به من روع القلوب ، ووتر القريب والبعيد ، وكان مولعا بالادلاج ، اذا ارتحل مؤثرا للانفراد كلما ركب ، ونزل ، فأقسم تلك الليلة الا يدلج الا حاسرا وليلقين الناس اعزل (6) اذا نزل ولو كان اسدا خادرا فاعجله عن الامر ولم يبد ضوء الفجر حتى لقيه كأنه يسلم عليه ، ويسير بين يديه ، فما راجعه الكلام الا وقد جلله الحسام ، واراح منه البلاد والانام .

ثم قام مقامه ، واستظل أعلامه ، وامر برأسه فرفع على عصا وسير به أمامه ، والناس يظنونه بلكين قد قتل بعض اتباعه الممتحنين فهم يتساءلون من قتل ، ويحسنون الظن فيما فعل حتى طلعت الشمس ، وارتفع اللبس ، فأمر برفع مضاربه وحشر زعماء دولته وأقاربه فقال انتم تدرون ان بلكين قتل أخي وفجعني في أكثر حرمي ، وانما شفيت صدرى واخذت بوترى لا اننى حدثت نفسى بسلطانكم ، ولا أرى شيئا أهلا للدخول فى شيء من شأنكم فردوا عليه جميلا ، وراموا امهاله قليلا فظنوا انه يجسر على ما فعل الا وله اشياع وحوله حول واتباع وكل واحد منهم قد ارتاب بمن يليه ، واهمه ما هو فيه وامر لحينه بخزائن بلكين فانهبها ديوان العرب وصقورة زناتة واستخلع بذلك عيونهم ، واملل اليه قلوبهم ، ورحل تحت ليلته فطوى المراحل واعتسف المجاهل فسبق الاخبار الى القلعة ، فطوى الحريم وكان دخوله القلعة يوم الخميس للنصف من شعبان سنة 455 هـ .

4) هنا نقص فى الاصل وقد جاء فى ابن خلدون ما يكمل هذا النقص فقال : وانتهز من الناصر ابن عمه الفرصة فى الثار باخته وما لأهقومه من صنهاجة لما لحقهم من تكلف المشقة بابعاد الغزو فقتله بتسالة سنة 454 هـ .

5) جملة مطموسة فى الاصل .

6) فى الاصل وردت الكلمة مطموسة اصلحناها بما يناسب المقام .

4) **دولة الناصر بن علناس بن حماد :**

ولما استقام الامر للناصر بن علناس كـــره مجاورة بنى حماد باكناف القلعة المنسوبة اليهم اذ كان يسكنها من فرسان صنهاجة اثنى عشر ألف فارس بنى قريبا منها بالجبل مدينة وقصورا شامخة مسماة باسماء عديدة واحتفل ببناء (7) الجامع الاعظم المذكور فى تاريخ صنهاجة ، وكان الناصر جريئا على سفك الدماء شديد الغيرة عـلى النساء ، له فى ذلك اخبار مشهورة ، وهو الـذى بنى مدينة بجاية وسماها الناصرية وبنى بهـــا قصر اللؤلؤة واتسعت مملكـة الناصر ، الى ان بايعه اهل القيروان سنة 460 هـ .

وتوفى الناصر يوم الجمعة السابع من جمادى الاولى عام 481 هـ ، واحتمل الى بجاية فدفن بها وولى بعده المنصور .

5) **دولة المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد :**

وللمنصور بن الناصر آثار عظيمة ، وقصور شامخة منيعة ، واخبار شهيرة وتحرك الى المغرب ، وقد صارت تلمسان الى ملك المرابطين فى جيوش عظيمة اشتملت عشرة محلة فى 494 هـ ، ونازل تلمسان ثم اقلع عنها صلحا ، ولما قفل عن تلمسان توفى بعد سبعة اشهر فى شهر ربيع الآخر 498هـ وكان قائما على أمره حميد الخلال ضابطا للاموريكتب ويشعر ويذهب فى أموره مذهب أبى جعفر المنصور من رقع الثياب والحفظ على القليل مـــن الاشياء ، وعليه قدم عز الدولة بن حماد لما فر من المرية أمام المرابطين فاقطعه تدلس (8) ونظرهـا واسكنه بها حسبما هو معروف وولى بعده الامر باديس بن المنصور بن الناصر .

6) **دولة باديس بن المنصور بن الناصر بن علناس :**

يكنى ابا معد ، وكان شديد البأس عظيـم السطوة سريع البطش فيحكى من جملة فضاضته انه القى رجلا صالحا الى الاسود فبات ليلة معهـا واصبح لم تعد عليه ، وكانت وفاته ثالث عشر فى ذى القعدة سنة 498 هـ .

---

7) كلمة ساقطة من الاصل زدتها ليستقيم معنى الجملة .

8) فى الاصل كلمة مطموسة واصلحناها بما جاء فى كتاب العبر ، م ، ج ، 6 ـ ص 461 حيث قال ابن خلدون : قدم عليه معز الدولة بن حمادح من المرية فارا امام المرابطين ، ونزل على المنصور واقطعه تدلس « دلس » الحالية » وانزله بها » .

ويقال ان أمه سمته لانه كان يهددها ويتوعدهاوقد ذكر مثل ذلك في المهدى من بنى العباس ، وولى بعده العزيز بن اخيه .

7) دولة العزيز بن المنصور بن علناس :

وهو الذى استوطن بجاية ومن بعد ولايتــــه شرعت القلعة فى الخراب ، وكان حسن الخلــق ، معتدل الطريقة كاتب ملوك زمانه وسالمهم فكانت أيامه اعيادا لحسنها وجمالها ، وله فى ملكه آثار عظيمة ومبان رفيعة وكان يعرف بالميمون لولايته ليلة وفات أبيه ، ولما توفى (9) ولى بعده ابنــــه يحيى .

8) دولة يحيى بن العزيز بن المنصور بن الناصر :

وكان يحيى بن العزيز فاضلا حليما فصيـــح اللسان والقلم مليح العبارة بديع الاشارة وكان مولعا بالصيد مغروما به كلفا بالملهين يحضر عنده منهم نحو العشرين بين امرأة (10) من شيــــوخ وعجائز وحمقى فكان يستلقى فى بيته على الفرش الوثيرة والحشايا ، ويستدعى المضحكين وجوارح الصيد فيختبر هذا البازى .

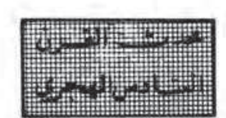
ويتفقد هذا الكلب وينتهض هذا المضحك فى النوع الذى سلكه فيلهيه ويضحكه ، ويجلس ابدا بين يديه اخواته تقسو ـ طلواع ـ ملال وشبلـة فى زى العرائيس من الحلى واللباس فلا يــزال كذلك الى ان ينام ثم يهتدى الى الصيد هكــــذا انقضت ايامه الى ان توفى عام 544 هـ ، وكان قد ولى ابنه المنصور عهده فتوفى فى حياته وعظــم وجده عليه ولما اضطربت حاله بظهور دولـــــة لمتونة لحق بقسنطينة ثم نزل عنها للموحديـــن مستأمنا لنفسه . وسكن بقصر ابن عشرة من سلا وكانت وفاته بها . (11)

9) كانت وفاته كما يذكر ابن خلدون فى كتاب العبر مج ، 6 ـ ص 362 سنة 415 هـ .

10) هكذا وردت الجملة مختلفة فى الاصل .

11) فى ابن خلدون : كتاب العبر مج ، 6 ـ ص 364 ان عبد المؤمن بايع له يحيى سنة 547 هـ . ونقله عبد المؤمن الى مراكش فسكنها مـدة ثـم انتقل منها الى سلا سنة 558 هـ . وسكن قصر بنى عشيرة (لا عشرة) الى ان هلك فى هذه السنة 558 هـ .

عبدالحق الاشبيلي البجائي



رابح بونار
باحث بالمكتبة الوطنية

تمهيد : لقد شهد المغرب العربي كله والاندلس في مطلع القرن السادس الهجرى ثورة كبيرة فى مجال التفكير العلمي ، والبحث النظرى على يد المهدى ابن تومرت الذى دعا عقب عودته من المشرق سنة 514 ه الى الرجوع الى الكتاب والسنة ، وتصحيح بعض مفاهيم الاعتقاد (1) وحارب جمود الفقهاء الذين عكفوا على كتب الفروع ، واهملوا النظر فى كتب الحديث والقرآن ٠

وساعد على ايجاد جو جديد تنطلق منه الدراسات الفقهية والكلامية ، ومحاولة الاجتهاد والاستنباط من القرآن والسنة مباشرة ٠

ولعل هذا الاتجاه النقدى الذى عاب جمود الفقهاء والمتكلمين نجده قبل ابن تومرت عند الامام المحدث الكبير ابن عبد البر الذى انتقد الفقهاء فى القرن الخامس الهجرى ، وعاب عليهم جمودهم وعكوفهم على اقوال فقهاء المالكية مع اغفال طريق الاستدلال وفى ذلك يقول : « يتركون طريق الاستدلال ، والفروع لاحد لها ومن رام ان يحيط باقوال الرجال فقد رام مالا سبيل اليه ، والايام تضطره الى الاستنباط مع جهله بالاصول » (2) ٠

وكان منذر بن سعيد البلوطى (ت 335 ه) قبل ابن عبد البر ينتقد جمود الفقهاء باقتصارهم على اقوال الايمة دون العناية بدراسة القرآن والحديث ، ومحاولة الاستنباط منهما فيقول :

عذيرى من قوم يقولون كلمات — طلبت دليلا هكذا قال مالك
فان عدت قالوا هكذا قال أشهب — وقد كان لا يخفى عليه المسالك
فان زدت قالوا قال سحنون مثله — ومن لم يقل ما قاله فهو آفك
فان قلت قال الله ضجوا واكثروا — وقالوا جميعا انت قرن مما حك
وان قلت قد قال الرسول فقولهم — اتت مالكا فى ترك ذلك المسالك (3)

---

1) المراكشى ، عبد الواحد : المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ص 278 ـ 280 ٠

2) ابن عبد البر ، يوسف : جامع لبيان العلم وفصله ج 2 ص 170 ـ 171 ٠

3) المرجع السابق ج 2 ص 172 ٠

واذن فالدعوة التى دعا اليها المهدى ابن تومرت من العودة الى الكتاب والسنة نجد لهـــا سندا عند من سبقه من المحدثين والمتكلمين ، وانما اشتهرت به ، ونســبت اليه ، لمناصـــرته لها بمؤلفاته ، ودعمها بنفوذه ، ونفوذ خلفائه من بعده وقد كان لهذه الدعوة أثرها الفعال فى توجيه الاذهان الى الدراسات القرآنية ، ودراسات الحديث وعلومه وان لم تحقق الغـــرض الذى كان يستهدفه ابن تومرت وهو القضاء على المذهب المالكي ٠

ونجد من نتائج هذه الدعوة الى الحديث والقرآن نبوغ جماعة كبيرة من المحدثين فى العصر الموحدى وما بعده ، ومن هؤلاء المحدثين الكبـار : ابو محمد عبد الحق الاشبيلى البجائى الذى ولد سنة 510 هـ وقضى نشأته الاولى ، وهو يسمع فى مجالس شيوخه صدى لهذا الاتجاه الجديد فى دراسة الفقه والاحكام من منابعها الاولى ، فاعجب به ، ومال اليه وترك مؤلفات كثيرة فيه ٠

حياته : ولد عبد الحق بن عبد الرحمن بـن عبد الله بن حسين بن سعيد بن ابراهيم الازدى الاشبيلى باشبيليه سنة 510 هـ ونشأ بها ، وأخذ عن شيوخها ، ثم انتقل الى لبلة من مدن الاندلس واخذ بها عن ابى الحسن خليل بن اسماعيل ، وتفقه عليه، واقام بلبلة حتى غمرتها الفتن السياسية فانتقل منها الى بجاية (4) ٠ وهذه الفترة التى قضاها عبد الحق بالاندلس فترة يكتنفها الغموض الشديد ، وقد اشار اليها من ترجموا له بكلمات مقتضبة لا تفيدنا كثيرا فى القاء الضوء على هذه الفترة الهامة من حياة عبد الحق الاشبيلى ونحـن ينبغى لنا أن نقف عند هذه الفترة قليلا لا يضاح بعض الغموض الذى يسودها لانها تساعدنا على دراســة شخصية عبد الحق وعوامل التحاقه ببجايـــة ٠

أما ولادة عبد الحق الاشبيلى فقد كانت سنة 510 هـ كما ذهب الى ذلك ابو العباس الغبرينى (5) والذهبى فى تذكرة الحفاظ (6) وابن فرحون فى الديباج المذهب (7) ٠

وذهب ابن الزبير فى صلة الصلة الى ان ولادته كانت سنة 514 هـ (8) وهى رواية انفرد بها عن اصحاب التراجم الآخرين ٠

واما مدة اقامة عبد الحق باشبيلية ولبلـة قبل هجرته الى بجاية فقد اشار اليها اصحاب التراجم اشارة غامضة قالوا فيها ان هجرته الى بجاية كانت وقت حدوث الفتنة التى انقرضت فيها الدولة الملتونية (9) ٠

---

4) راجع : ابا جعفر احمد بن الزبير : بغية الملتمس (مجريط مطبعة روخس 1884) ص 378 ـ الذهبى : تذكرة الحفاظ (بيروت : دار احياء التراث) ج 6 ص 1350 ٠
ـ الغبرينى احمد : عنوان الدراية نشر ابن ابى شنب ص 20 ـ 23 ـ ابن فرحون : الديباج المذهب ص 175 ـ ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات (مصـــــر سنة 1951 م) ج 1 ص 518 ـ بروكلمان : تاريخ الاداب العربية ج 1 ص 458 ٠

5) عنوان الدراية ص 20 ـ 23 6) تذكرة الحفاظ ج 4 ص 1350 7) الديباج المذهب ص 175
8) صلة الصلة ص 4 ـ 5 9) راجع : الديباج ص 175 ـ وتذكرة الحفاظ ج 4 ص 1350 وفـوات الوفيات ج 1 ص 518 ٠

وهذه الفتنة التي كانت عاملا من عوامل هجرة عبد الحـــق الشبيلى الى بجاية قد ذكرها المؤرخون ، وفصلوا احداثها ونحن بسوقنا لاحداث اشبيلية ولبلة وما يتصـــــل بهما مـــن اخبار الاندلس في منتصف القرن السادس الهجرى نصل الى تصوير هذه الفتنة العارمة ٠

يذكر الناصرى فى الاستقصا : ان الموحدين زحفوا الى لبلة وكان بها من الثوار يوســـف بن احمد البطروجي فاطاعهم ، وسلم اليهم المدينة ثـــم زحفوا الى اشبيلية وفتحوها فى شعبان سنة 541 هـ ٠ وفر المرابطون الذين كانوا معتصمين بها ، وقتل فى جملتهم عبد الله ولد القاضـى ابى بكر بن العربى وهو من شيوخ عبد الحق الاشبيلى وهناك حادث خطير تعرضت له مدينة لبلة وكان ذلك عقب ثورتها على الموحدين ، وزحف اليها هـــؤلاء بقيادة يحيى بن يغمور والى قرطبة واشبيلية وفتحوها سنة 599 هـ (10) ٠

وقد ارتكب هذا القائد الموحدى فظائع وحشية بعد ان فتح المدينة (عنوة وقبض على اهلها وخرج بهم الى ظاهرة المدينة وصفهم فى صعيد واحد ، ثم عرضهم على السيف أجمعين حتى خلص القتل منهم الى الفقيه المحدث ابى الحكام بن بسطـــال ٠

والفقيه الصالح ابى عامر بن الجد ، وكان عدد من قتل من اهل لبلـــة في ذلك الحادث ثمانية آلآف منهم ، وقتل بأحوازها منهم اربعة آلآف ، ثم بيعت نساؤهم وابناؤهم وأمتعتهم واسلابهم ، فعل ذلك افتياتا على عبد المؤمن ، وبلغه الخبر بمراكش فسخطه ٠٠٠ ولم يصرف الى أهل لبلة شيئا مما أخذ لهم ٠٠ (11) ٠

ولا شك ان هذه الحادثة الفظيعة التى شاهدها عبد الحـق الاشبيلى ، ونجا من ويلاتها وشاهد بعض شيوخه يذهبون ضحيتها قد تركت آثارها السيئة فى نفسه ، وجعلت ميله الى المرابطين الذين كانوا يعزون شيوخه ويقدرونهم ميلا أصيلا فى نفســـه ٠

ولعل هذه الفتنة الحاصدة هى التى دفعته دفعا الى الهجرة من بلاده فى اتجاه الاماكـــن المقدسة ، ولم يذكر من ترجموا له تاريخ مغادرته للاندلس بالتحديد ، ولكن ابا العباس الغبرينى حاول ان يحدد تاريخ هجرته فقال ان عبد الحـــق غـــادر الاندلس الى بجاية بعد الخمســـين وخمسمائة (550 هـ) بعد ان قام بالاندلس من سنة 510 هـ الى سنة 550 هـ أى بعد ان اقام فيها نحو 40 سنـــــة ٠

10) الناصرى : الاستقصا (الدار البيضاء : دار الكتاب ، 1954 م) ج 2 ص 117 ٠

11) المرجع السابق ج 2 ص 125 ٠

وهذا التاريخ يوافقه تاريخ الفتنة الاخيرة بلبلة ، وقد وقعت سنة 549 هـ ، ولا يبعد اذن ان يكون عبد الحق قد فارق الاندلس اثناء هذه الفتنة او بعدها بقليل ، واستقر ببجاية حوالى سنة 550 هـ او بعدها بقليل (12) ٠

وكانت نيته عند مغادرته للاندلس ان يرتحل الى الاماكن المقدسة لاداء فريضة الحج ، ولكنه عندما وصل الى بجاية اقام بها واختارها وطنا له كما يقول الغبرينى ٠

وقد اقام ببجاية نحو احدى وثلاثين سنة من سنة 550 هـ الى سنة 582 هـ ينعم بالطمانينة والاستقرار ، ومال فى هذه الفترة الطويلة من حياته الى الزهد والتدريس والخطابة فى الجامع الاعظم بها (13) ٠

ولم يتول القضاء بها الا فى عهد بنى غانية لفترة قليلة وهذا ما لاحظه الغبرينى فى عنوانه (14) ٠

وكان عبد الحق الاشبيلى يبتعد عن المناصب السياسية بحكم اتجاهه الزهدى ، ولذلك لم يل القضاء الا فى عهد بنى غانية ولمدة قليلة وقد امتنع عنه فى العهد الموحدى تحت حكم السادة من بنى عبد المؤمن واستغرب ذلك منه ، وفى ذلك يقول ابن الزبير : ودعى ببجاية الى خطتى القضاء والخطابة للموحدين فامتنع عن ذلك ، ودعى لذلك حين دخلها الميورقى (ابن غانية) فاجاب (15) ٠

وقد استطاع عبد الحق ان يتفرغ للعلم والافادة ، وان يراجع ما درسه على اشياخه بالاندلس ، وان ياخذ عن كبار العلماء الذين كانوا يمرون ببجاية ، وان يفيدهم ، ولا غرابة ان ينبغ بعد ذلك فى الحديث وعلومه وفى الآداب ايضا ٠

وكان عبد الحق يفتخر بالمشيخة التى اخذ عنها بالاندلس وغيرها ، وكانت من رجالات الفقه والحديث والفقه والادب وغيرها ، ومنهم ابو الحسن خليل بن اسماعيل ، وابو الحسن شريح ، وابو بكر عبد العزيز بن خلف ، وابن برجان ، وابو حفص عمر بن ايوب وابو بكر بن مديد ، وابو الحسن طارق ، وطاهر بن عطية وابو بكر ابن العربى الشهير ، واجازه من المشرق ابو القاسم ابن عساكر محدث دمشق وغيره ٠ وهكذا اشتهر عبد الحق الاشبيلى البجائى بالحديث وعلومه ، واعتبره ابن

12) عنوان الدراية ص 23 ٠

13) الديباج المذهب ص 175 ـ تذكرة الحفاظ للذهبى ج 4 ص 1350 ـ عنوان الدراية ص 21 ـ صلة الصلة ص 5 ـ فوات الوفيات ج 1 ص 518 14) عنوان الدراية ص 20 15) صلة الصلة صفحة 5 ٠

عساكر من أكبر المحدثين المعاصرين له بالمغرب ، ولا غـــرابة ان يكون عبد الحق فى هذا المستوى العلمى الذى أشتهر به فى المغرب والمشرق ، فقـد كان كما يقول ابن فرحون وابن شاكر « فقيها حافظا عالما بالحديث وعلله عارفا بالرجال » (16)

ولم يكن عبد الحق جماعا للحديث لا غيـر ، وانما كان دراسا له ، واعيا لما فيه من احكـام وآداب ، وقد نبغ فيه ، وترك مؤلفات كثيرة فى مختلف علومه ·

وكان الى جانب ذلك اديبا واعيا ، وشاعرا مطبوعا « يزاحم فحول الشعراء ، ولم يطلـق عنانه فى نظمه بل اقتصر على باب الزهد وما يرجع اليه » كما يقول ابن الزبير (17) ·

والواقع ان مؤلفات عبد الحق الاشبيلى تشهد له بهذا التحصيل الواسـع ، وبهذه العبقرية الفذة فى دراسة الحديث وعلومه ·

ومؤلفاته حسبما ذكرها من ترجموا له علـى اختلاف بينهم فى ذلك هى فى الحديث وعلومه ·

1) الاحكام الكبرى 2) والاحكام الصـــغرى 3) وهناك احكام كبرى اعظم من الاولى وذكر الغبرينى انها ضاعت ·

وهذه الكتب فى الاحكام جرت عادة المؤلفين فيها ان يدونـــوا الاحاديث وآراء الصحابة والآيات القرآنية حسب أبواب الفقه ، حتى يسهل استنباط الاحكام منها ، وقد سبق عبد الحـــق الى هذا النوع من المؤلفات فى الاندلس أبو العباس بن ابى مـــــروان الشهيد عند هجوم القائد الموحدى عليها سنة 549 هـ وحظى ما كتبه عبد الحق بالقبول والبقاء دون ما كتبه ابو العباس بن ابى مروان · ويلاحظ الغبرينى ان الاحكام الكبرى والصغرى قد اشتهرتا فى عصره فى مجالس العلم شرقا وغربا وكتبت عليهما شروح ومن ذلك ما كتبه ابن القطان تحت عنوان « الوهم والايهام الواقعان فى كتاب الاحكام وان كان لا يخلو من تعسف » (18) ·

3) وله كتاب المرشد فى الحديث ، وقد تضمن حديث مسلم وما زاد البخارى على مسلم ، واضاف الى ذلك احاديث حسنة وصحيحة من سنن ابى داوود ، وكتاب النسائى والترمذى ومـــا وقع فى الموطا مما ليس فى مسلم والبخارى ، وهذا الكتاب اكبر من صحيح مسلم ·

16) الديباج المذهب ص 175 ـ فوات الوفيات ج 1 ص 518 ·

17) صلة الصلة ص 5 ·

18) ابن القطان : نظم الجمان (تطوان المطبعة المهدية) مقدمة الكتاب ، والملاحظ ان مخطوطات الكبرى والصغرى موجودة فى الخزانة العامة بالرباط وغيرها من المكتبات كما يوجد فيها كتـاب العاقبة لعبد الحـــق ايضا ·

4) وله الجمع بين الصحيحين فى سفر ٠

5) وله كتاب « الجامع الكبير » فى الحديث جمع فيه بين المصنفات الستة مع اضافة مـا جاء فى مسند البزار اليه ، وتكلم فيه على علل الاحاديث ، وقد نهب منه هذا الكتاب عند الهجوم على بجايـــة ٠

6) وكتاب فى المعتل من الحديث ٠

7) وكتاب تلقين الوليد فى الحديث فى سفر صغير ٠

8) ومختصر كفاية الكفاية ، فى علم الروايـــة ٠

9) وكتاب بيان الحديث فى قدر صحيح مسلم ونهب منه ٠

وله مؤلفات فى الزهد والتذكير وهي :

10) كتاب الرقائـــق ٠

11) وكتاب العاقبة فى التذكير ٠

12) وكتاب الزهد وقد ذكره ابن شاكر (19)٠

13) وكتاب فضل الحج والزيارة ٠

14) وكتاب التوبة فى سفرين ٠

15) ومعجزات الرسول (ص) فى سفر ٠

16) ومقالة فى الفقر والغنى ٠

17) وكتاب الصلاة والتهجد فى سفر ٠

18) وكتاب الرقائق فى الامثال والمواعظ والحكم والآداب من كلام النبى (ص) والصالحين ٠

وله فى اللغة والشعر والانساب :

19) كتاب الواعى فى اللغة ، وقد حاكى بـه كتاب الغبريين للهروى ، وهو فى نحو 18 سفرا عند الغبرينى ، وفى نحو 25 سفرا عند ابن فرحون

20) ومختصر كتاب الرشاطى فى سفرين فى الانساب والقبائل والبلاد وهو احسن من الأصل كما يقول الغبرينى (20) ٠

---

19) فوات الوفيات ج 1 ص 518 ٠

20) عنوان الدراية ص 22 ـ الديباج ص 175 ٠

21) وديوان شعر في الزهد وشؤون الآخرة اشار اليه الغبريني (21) •

تلاميذه : اخذ عن المترجم جماعة من المحدثين منهم :

الزاهد ابو الحجاج بن الشيخ البلوى ، والاستاذ ابو ذر الخشنى ، والحافظ ابو محمد بن الحسن القرطبى كتابة ، والقاضيان ابو محمد وابو سليمان ابن حوط الله ، وابو الحسن المعافرى وابو محمد بن عطية وابو الخطاب بن خليل وهو آخر من حدث عنه (22) وغير هؤلاء •

وقد اشتهر عبد الحق بالسلوك الامثل ، وبالفضائل السامية التى جعلته محبوبا لدى الخاص والعام ، وقد أحبه طلابه ، واعجبوا بسلوكه كثيرا ، فكان كما يقول ابن فرحون والذهبى وابن شاكر « موصوفا بالخير والصلاح والزهد والورع ولزوم السنة ، والتقلل من الدنيا » (23) •

وكان شديد الرغبة فى نشر العلم ، وافادة الطلاب • فكان كما يقول ابن الزبير « عاكفا على الاشتغال بالعالم جادا فى نشره واذاعته ، حسن النية فيه ولذلك اشتهر ذكره » (24) •

ويلاحظ الضبى فى بغية الملتمس ، وقد مر ببجاية وقرأ على عبد الحق ، واجازه كتبه انه « كان لا يدخل احد من الطلبة الا سأل عنه ، ومشى اليه ، وآنسه بما يقدر عليه » (25) •

وقد حدثنا الضبى أن شيخه عبد الحق كان يقسم يومه الى اقسام ، فكان بعد صلاة الصبح يقرىء طلابه الى وقت الضحى ، ثم يصلى نافلته ويذهب الى منزله للتاليف حتى يدخل وقت الظهر فيؤدى صلاة الظهر ، ثم يقرىء الى العصر وبعد ذلك يخرج لقضاء حوائج الناس •

صداقته لعلماء بجاية : كانت بجاية فى القرن السادس الهجرى تزدان بطائفة من العلماء والادباء نذكر منهم ابا مدين الصوفى الكبير ، وابا على المسيلى المتكلم الفقيه ، وابا الطاهر عمارة بن يحيى وبنته عائشة الشاعرة المشهورة ، وابا عبد الله محمد بن عمر القرشى المشتغل بالمباحث النظرية والعقلية وابا زكرياء الزواوى وغيرهم ممن ذكرهم الغبرينى فى عنوانه (26) •

وقد حدثنا الغبرينى عن مظاهر الصداقة التى كانت تجمع بين عبد الحق وهؤلاء الاعلام •

---

21) عنوان الدراية ص 21 •
22) صلة الصلة ص 6 •
23) الديباج ص 175 ـ تذكرة الحفاظ : ج 4 ص 1350 ـ فوات الوفيات ج 1 ص 518 •
24) صلة الصلة ص 5 •
25) بغية الملتمس رقم الترجمة 1104 ص 378 •
26) عنوان الدراية ص 6 ـ 25 •

ومن ذلك ما حكاه الغبريني من ان عبد الحق كان يجتمع مع صديقه ابى على المسيلى ، وابى عبد الله محمد بن عمر القرشى « بالحانوت الذى هو بطرف حارة المقدسى ، وهو المقابل للطالع للحارة المذكورة ، وكان الحانوت يسمى مدينة العلم لاجتماع هؤلاء الثلاثة فيه ، وكان القرشى هذا من اهل النظر فى المعقولات » (27) ·

وكان عبد الحق صديقا حميما لابى على المسيلى ، وذكر الغبرينى عنـــه انه كثيرا ما كان يجلس معـــه ·

ولما اشتهر ابو مدين فى بجاية ، وانتشرت عنه غرائب عزم عبد الحق ، وابو على المسيلى علي الذهاب اليه لاختباره ، وسارا اليه وسالاه فاجابهما عن اسئلتهما ثم خاطبهما باشارة صوفية ملتفتا عن يمينه ويساره قائلا : بى قل ، وعلي دل فانا الكل ، (28) فبهرهما وانصرفا عنه معجبين بـه مقدرين فضله ، وكان سلوكه مع عائلته سلوكا حسنا يتســـم بالسماحة والكرم ، فكان اذا أتته الوصيفة من المنزل تطلب منه قضاء حاجات لاهله ـ يعطيها اكثر مما تطلب ، ويقول لا اجمع على أهل المنزل ثلاث شينات : شيخ ، واشبيلى ، وشحيح بل يكفى ثنتان ، وهذا من خفة روحه ، وكرم طبعه كما يقول الغبرينى (29) ·

موقفه من ثورة بنى غانية ببجاية : كان بنو غانية الذين استبدوا بامر جزائر ميورقة ومنورقة ولم يذعنوا لطاعة الموحدين ينتظرون الفرصة ليثوروا على الموحدين ، ويستردوا امـلاك الدولة المرابطية التى انتزعوها منها ، وقد اختاروا الهجوم على بجاية عقب وفاة الخليفة يوســـف وهاجموها يوم الجمعة ، والناس فى صلاتهم ، وكان والى البلد السيد ابو الربيع بن عبد المـــؤمن خارج المدينة ، فدخلوها ، ولم يمانعهم أهلها (30)

وكان ذلك فى صفر سنة 581 هـ على ما ذهب اليه ابن خلدون واعتقل بنو غانية السيد ابـا موسى بن عبد المؤمن الذى كان فى طريقه من افريقية الى مراكش ، واحتلوا مدينة الجـــزائر وما زونة ، ومليانة ، واعجزتهم قسنطينة ·

وساق ابن ابى زرع خبر احتلال بنى غانية لمدينة بجاية بتفصيل اوسع فقال دخل على بـن اسحاق مدينة بجاية يوم الجمعة فى 6 شعبان سنة 580 هـ والناس فى صلاة الجمعة فانتظر يحيى

27) عنوان الدراية ص 16 ـ 17 ·
28) المرجع السابق ص 6 ·
29) المرجع السابق ص 22 ·
30) ابن خلدون ، عبد الرحمن : كتاب العبر ج 6 ص 388 ·

ابن اسحاق حتى احـــرم الناس بالصلاة ، واقتحم عليهم المدينة ، وعمد الى الجامـــع الاعظـــم وادار عليه فرسانه ورجاله « فمن بايعه خلى سبيله ، ومن توقف عن بيعته ضرب عنقه » (31) ٠

وجاء فى مجموعة رسائل الموحدين ما يشعر بوجود تواطوء بين بعض سكان المدينة ويحيى ابن اسحاق الميورقى ٠

واجبر يحيى هذا عامة السكان على بيعتـــه وممن اجبره على ذلك ابو على المسيلى الذى لم يقدم بيعته حتى كشف له عن وجهه فبايعه حينئذ (32) ٠

ويبدو أن ابا على المسيلى سالم بنى غانية مدة حكمهم لبجاية ، وترك منصـــب القضاء الذى كان يشغله من قبل لبنى الخطيب الذين تولوه بعده

اما صديقه عبد الحق الاشبيلى فقد كان على العكس من ذلك يناصر ثورة بنى غانية نفوراً من الموحدين الذين نكلوا بشيوخه وأصدقائه فى عهد شبابه ، ويأمل فى اعادة الدولة المرابطية على ايديهم ، وكان الموحدون قبل هجوم بنى غانية على بجاية سنة 581 هـ قد طلبوا منه ان يتولى خطتى القضاء والخطابة فامتنع عن ذلك ، ولما اقبل بنـــو غانية ، وطلبوه للقضاء والخطابة اجابهم اليهما وهذا ما جعل معاصريه من الفقهاء يستغربون ذلك منه ، وحكى ذلك ابن الزبير فى صلة الصلة ولكنه اردف ذلك بقوله قال : « ان جهات الاعتذار فى مثله متسعة » (33) ٠

واقام عبد الحق فى قضائه طيلة حكم بنى غانية لبجاية وهى كما يذكر ابن ابى زرع سبعـــة اشهـــر (34) ٠

ونجد بعض علماء بجاية قد انحازوا ـ مثل عبد الحق الاشبيلى ـ الى بنى غانية ، واسبغوا على حكمهم شرعية وتمجيدا ، ومنهم ابو الطاهر عمارة بن يحيى بن عمارة الشريف الحسنـــى الشاعر ، وقد امتدح بنى غانية بقصائد شعرية (35)

وكان منهم من خطب فى تمجيدهم وقال : الحمد لله الذى اعاد الامر الى نصابه ، وأزاله من أيدى غصابه » (36) ٠

31) الناصرى : الاستقصا (الدار البيضاء ، دار الكتاب 1954 م ج 2 ص 159 ٠
32) عنوان الدراية ص 16 ٠
33) صلة الصلة ص 6 ٠
34) الناصرى : الاستقصا ج 2 ص 159
35) عنوان الدراية ص 23 ٠
36) المرجع السابق ص 23 ٠

وكان ذلك باعثا للموحدين بعد استعادتهم لمدينة بجاية على أن ينكلوا بكل من شايع بنى غانية ومنهم عمارة بن يحيى الشاعر ، وعبد الحق الاشبيلى ، وغيرهما ممن لم يذكـــرهم الغبرينى تفصيلا ، وانما اشار اليهم اشارة مجملة فى قوله : اشتدت وطاتهم « أى الموحدين » على اهـــل العلم ، واعتقلوا أناسا منهم ، وكان فى جملة من اعتقل الشريف ابو الطاهر عمارة » ٠

وكان قد تولى القضاء لبنى غانية « فوجه اليه وجىء به مصفدا فى الحديد ، وبقى معتقـــلا مع اصحابه مدة » (37) ٠

ولا يبعد أن يكون الاعتقال قد شمل عبد الحق ، وصديقه ابا على المسيلى وابا عبد الله محمد بن عمر القرشى وغيرهم واما ابو مدين الصوفى فلعله نجا من الاعتقال ٠

خاتمة عبد الحق الاشبيلى : لما عاد الموحدون الى بجاية تتبعوا انصـــــار على بن اسحاق الميورقى بالتنكيل ، ووقع عبد الحق فى الاعتقال ، ولا ندرى هل خرج من معتقله قبل وفاته ام بقى فيه حتى توفى سنة 582 هـ ٠

اما مترجموه فانهم يجمعون على انه توفـــى بعد محنة نالته من الموحدين على عهد يعقوب المنصـــور (38) ٠

ولكنهم لا يذكرون هل توفى فى المعتقل او بعد خروجه منه كما انهم لم يذكـــروا نوعية هذا الاعتقال ، ولم يتفقوا على تاريخ وفاته ولا تاريخ احتلال بنى غانية لبجاية ٠

فابن خلدون يذكر ان على بن اسحاق دخل بجاية فى صفر سنة 581 هـ ، ويوافقه على ذلك صاحب الاستقصا (39) ٠

وكان ذلك بعد ان توفى ابو يعقوب يوسف ، واتم على بن اسحاق استعداده الحربى ٠

اما ابن ابى زرع فانه يقول ! ان علي بن اسحاق هاجم بجاية ودخلها فى 6 شعبان سنـــة 680 (40) ٠

واخذ بهذه الرواية ابن قنفذ القسنطينى فى الفارسية (41) ٠

37) المرجع السابق ص 23 ـ 24 ٠

38) صلة الصلة ص 6 ـ فوات الوفيات ج 1 ص 518 ـ تحفة الحفاظ ج 4 ص 1351 ـ الديباج ص 185 ٠

39) ابن خلدون : كتاب العبر ـ ج 6 ص 388 ـ ج 6 ص 507 الناصـــرى : الاستقصا ج 2 ص 159 ـ 160 ٠

40) المرجع السابق ص 165 (41) ابن قنفذ : الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية (الـــدار التونسية للنشر 1968 م) ص 108 ـ وجاء فيها ان المنصور تحرك لمحاربة ابن غانية سنة 683 هـ بعد ان مر على ثورته ثلاث سنوات ٠

واذا اخذنا برواية ابن خلدون فان ابن غانية يكون قد حكم بجاية فى شهور (صفر ، ربيع الاول ، ربيع الآخر ، جمادى الاولى ، جمادى الآخرة ، رجب ، شعبان ، من سنة 581 هـ) وهى كمال سبعة اشهر ، ثم خرج منها ودخلها الموحدون

اما اذا اخذنا برواية ابى زرع فان على بن اسحاق الميورقى يكون قد حكمها من شهر شعبان سنة 580 هـ الى صفر من سنة 581 هـ ·

وفيما يخص وفاة عبد الحق الاشبيلى نجد فيها اختلافا بين اصحاب التراجم ، فالغبرينى وابن الزبير وابن قنفذ القسنطينى يذهبون الى ان المترجم توفى سنة 582 هـ (42) ·

وابن فرحون وابن شاكر والذهبى اثبتوا ان وفاته كانت سنة 581 هـ (43) ·

والرواية التى يمكن ترجيحها هى رواية الغبرينى ، لانه كان قريب عهد بالمترجم ، وقد أخذ تاريخ وفاته عن اشياخه الذين عاصروه ·

واذا اخذنا بهذه الرواية الراجحة ، واعتبرنا وفاته كانت سنة 582 هـ فان تاريخ دخول بنى غانية يكون فى صفر سنة 581 هـ كما ذهب الى ذلك ابن خلدون والناصرى (44) ·

وقد اقاموا فى بجاية من صفر سنة 581 هـ الى شعبان من هذه السنة ويكون عبد الحق قد اعتقل بعد دخول الموحدين الى بجاية خلال فترة تمتد من رمضان سنة 581 هـ الى ان توفى فى سنة 582 هـ ·

ولم يذكر ابن الزبير ، ولا الغبرينى الشهر الذى توفى فيه فى سنة 582 هـ · اما ابن فرحون الذى ذكر ان وفاته كانت سنة 581 هـ فقد حدد وفاته بشهر ربيع الاول ·

ولا يبعد ان يكون عبد الحق قد توفى فى اول سنة 582 هـ بعد محنة الاعتقال والمضايقة التى ابتلى بها من قبل ولاة الموحدين ، وكانت سنه عند وفاته 72 سنة ·

وقد استطاع عبد الحق ان يجعل من حياته ببجاية فترة نشاط علمى متواصل ، ومرحلة اعتكاف للتدريس والتاليف حتى ادركه اجله راضيا مرضيا ·

ادبه : كان كثير من علماء المغرب فى العصر الاسلامى الذهبى يجمعون بين علوم الشريعة وعلوم الادب فلم يكن الفقيه يزور عن الدراسات الادبية من نثر وشعر ، ولم يكن يعتبر دراستها

42) عنوان الدراية ص 23 ـ صلة الصلة ص 6 ـ الوفيات ص 45 ·

43) الديباج ص 175 ـ فوات الوفيات ج 1 ص 518 ـ تذكرة الحفاظ ج 4 ص 1351 ·

44) العبر ج 6 ص 388 ـ الاستقصا ج 1 ص 165 ·

لغوا وعبثا بل كان يعدها علوما اساسية تساعده على فهم بلاغة القـرآن والسنة ، وتمكنه من استنباط الاحكام منهما ، ونجد كثيرا من الفقهاء كانوا ادباء منهم القاضى عياض وابن عبد البر ، وابن العربى وغيرهم . ومنهم بالتالى عبد الحق الاشبيلى ، وقد كان عبد الحـق اديبا شاعـرا استطاع ان يزاحم الفحول بشعره كما يقول ابـن الزبير فى صلة الصلة ، غير انه الزم نفسـه بموضوع واحد هو الزهد وما يتصل به (45) .

وقد جمعت قصائده الزهدية فى ديوان اشار اليه الغبرينى فى عنوانه (46) .

وتشهد للمترجم المقطوعات التى رواها من ترجموا لـه او التى ادرجها فى كتابه « كتاب العاقبة » بالفحولة الشعرية ، وبالطبع الموهوب ، ونجد فى قصائده الزهدية قبسا من روح المعرى فى لزومياته ، ومن اسلوب ابى العتاهية فى زهدياته ، ومن ذلك قوله من قصيدة فى الزهد :

واهـا لدنيـا ولمغـروها ... كم شـابت الصفـو بتكديرها
اى امـرىء آمـن فى سـربه ... ولم ينلـه سـوء مقدورها
وكان فى عافيـة من جسـمه ... من مـس بلواها وتغييرها
وعنده بلغـة يـوم فقـد ... حيـزت اليه بحذافيرها (47)

وروى له الضبى فى بغية الملتمس قصيدة دعا فيها الى القناعـة والزهد فى طيبات الحياة والاحتراس من مفاجاة الموت قبل التوبة واعداد الزاد ليوم الرحيل :

وآكـلا كـل الذى يشـتهى ... كانـه فى اكلـه ثـور
وناهضا ان يدع داعى الهـوى ... كانـه من خفـة طيـر
ان كؤوس الموت بين الـورى ... دائـرة قد حثها السـير
وقـد تيقـنت وان أبطـات ... ان سـوف ياتيك بها الـدور
ومن يك فى سـيره جائـرا ... يالله ما فى سيرها جـور (48)

45) صلة الصلة ص 7 .
46) عنوان الدراسة ص 21 ـ وتوجد منه نسخة مخطوطة بخزانة القرويين بفاس .
47) الذهبى : تذكرة الحفاظ ج 6 ص 1351 .
48) بغية الملتمس ص 378 .

وروى له ابن الزبير قصيدة حلل فيها الشاعر فلسفته فى الحياة والموت والمصير ، وابان أن الحياة ظل زائل ، وحلم خادع ، ولذلك ينبغى للانسان ان يكون على حذر من الموت الذى يتربص به ، وان يكون متزودا ليوم رحيله ، وفيها يقول :

يا آمن الساحة لا يذعر	بين يديك الفزع الاكبر
والمرء منصوب له حتفه	لو أنه من عمه يبصر
وهذه النفس لها حاجة	والعمر عن تحصيلها يقصر
وكلما تزجر عن مطلب	كانت به أهيم اذ تزجر
وربما ألقت معاذيرها	لو انها ياويحها تعذر
وناظر لها ناظر	لو انها تنظر اذ ينظر
ورائد الموت له طلعة	يبصرها الاكمه والمبصر
وروعة الموت لها سكرة	ومثلها من روعة يسكر
وبين اطباق الثرى منزل	ينزله الاعظم والاحقر
يترك بهذوالفخر فخره	وصاحب الكبر به يصغر
قد ملأت ارجاءه روعة	نكيره المعروف والمنكر
وبعد ما بعد ؟ واعظم به	من مشهد ما قدره يقدر

وسار عبد الحق الاشبيلى فى قصائده الاخرى على اسلوبه الزهدى هذا مذكرا واعظا ، وموضوع الزهد وان كان موضوعا جافا بالنسبة لمن لم تكن تجربة شعورية فان عبد الحق قد استطاع ان يسبغ على قصائده الزهدية نفحات ادبية ، ونبضات شعورية قوية جعلت منها قصائد خفيفة الروح ، رفافة التعبير ، وهكذا كان عبد الحق شيخا جليلا فى علوم الفقه والحديث ، وكان اديبا مطبوعا يزاحم الشعراء فى مجال الادب والشعر .

عبقرية المشذاليين العلمية في بجاية

على عهدها الإسلامي الزاهر

رابح بونار
باحث بالمكتبة الوطنية

لقد حظيت بجاية بازدهار علمي ملحوظ فى القرن السادس الهجرى ، ولمع فى هذا القرن من اعلام الفكر والادب والعلوم الشرعية والعقلية جماعة كبيرة من اشهرهم عبد الحق الاشبيلى ، وابو على المسيلى ، والقرشى ، وابو مدين الصوفى وعمارة الشريف ، وابنته عائشة وغيرهم ونشطت دراسات علوم الحديث والفقه والكلام والتصوف والادب على يد هؤلاء الاعلام ٠

اما فى القرن السابع الهجرى فان هذه الدراسات المتنوعة ، قد اتسعت آفاقها ، وتعددت فروعها ، وكثر النبغاء فيها ، ولكن الظاهرة التى كانت تلاحظ فى اساليب التعليم ومناهجه حينئذ ببجاية وقسنطينة وتلمسان والجزائر هي عقم الطرق التدريسية التى كان ينتهجها الاشياخ فى محاضراتهم ودروسهم على الرغم من ان هذه الفترة كانت تتسم بالحيوية والاقبال على الدراسة ، والرغبة فى استيعاب العلوم الشرعية والادبية والعقلية ٠

ولذلك فقد كانت هذه الاساليب التعليمية فى حاجة اكيدة الى ثورة منهجية تعيد للتفكير الشخصى اعتباره ، وللروح المنطقية فى تناول المباحث اثرها الايجابى الفعال ٠ وهذا ما قامت به الاسرة المشذالية فى اواخر القرن السابع الهجرى وما بعده وهو ما تجلت فيه عبقريتهم العلمية رائعة خلاقة ٠

وقد حاولنا فى هذه الدراسة ان نعرف بمشاهير هذه الاسرة ، وبالعبقرية العلمية التى امتاز بها كل واحد منهم ٠

وهؤلاء المشذاليون ينتسبون الى قبيلة مشذالة وهى كما يذكر السخاوى قبيلة من زواوة وقد ضبطها بفتح الميم وتشديد الذال (1) وهى عند التنبكتى بفتح الميم وتشديد الدال المهملة (2) .

والواقع ان هذين الوجهين فى كلمة مشذالة مستعملان معا ، وهذا هو ما نص عليه ابن قنفذ فى الوفيات (3) ومشذالة الآن تندرج فى منطقة ما بين البويرة وبنى منصور ، وهى تقع فى سفح جبل جرجرة من جهته الشرقية الجنوبية ، وتغمرها غابات الزياتين الجميلة التى تسبغ عليها روعة خلابة ، وفى زمن الشتاء تغمر سفوحها الجبلية ، الثلوج البيضاء .

ومن اشهر القرى التى يشملها اسم مشذالة : قرية الشرفاء ، وقرية اولاد ابراهيم ، وقرية بنى وليان ، وقرية بوحرب ، وغيرها من القرى وقد سألت بعض اصدقائى من مشذالة عن قرية ملالة التى ينسب اليها الشيخ الجليل ناصر الدين منصور المشذالى ، والتى زارة فيها الرحالة العبدرى (4) فقال لي ان هذا الاسم غير معروف الآن ، وقرية ملالة تدل على اسم مشتق يطلق على ما فيه بياض . ولعل هذا الاطلاق تنوسى وحل محله اطلاق آخر ، وهل يمكن ان تكون قرية ملالة هي بعض القرى التى ذكرناها من قبل ام هي قرية أخرى عفت ؟ وكلا الاحتمالين لا يمكن الجزم بهما أو باحدهما ، والذى يهمنا هنا هو ان نذكر ان طائفة من العلماء المشاهير فى العصر الاسلامى ببجاية نبغوا فى هذه القبيلة ، واشهر من نبغ منهم فى القرن السابع الهجرى وما بعده :

1 - منصور بن احمد بن عبد الحق المشذالى ناصر الدين (731 هـ) .

2 - وعمران بن موسى المشذالى نزيل تلمسان وصهر ناصر الدين (توفى سنة 745 هـ) .

3 - ومنصور بن علي بن عبد الله المشذالى نزيل تلمسان (توفى بعد سنة 770 هـ) .

4 - ومحمد بن ابى القاسم بن عبد الصمد المشذالى (866 هـ)

5 - وولده ابو الفضل محمد بن محمد بن ابى القاسم المشذالى (865 هـ) .

6 - واخوه محمد بن محمد بن ابى القاسم المشذالى (859 هـ) .

وهؤلاء الاعلام المشذاليون قد ساهموا فى الحركة العلمية ، وتطوير اساليب التعليم مساهمة فعالة على اختلاف بينهم فى مدى تأثير كل واحد منهم فى الوسط العلمى الذى عاش فيه ولذلك نرى

---

1) السخاوى محمد : الضوء اللامع (بيروت) منشورات مكتبة (الحياة ج 9 ص 180 .
2) احمد بابا التنبكتي : نيل الابتهاج ص 345.
3) ابن قنفذ القسنطينى : الوفيات تصحيح بريس ص 54 .
4) العبدرى محمد : رحلته تحقيق محمد الفاسى (الرباط 1968 م) 277 .

من الضرورى ان نخص كل واحد منهم بترجمة تكشف عن عبقريته فيما برع فيه من علوم ، وتمكن من التعرف على آثاره وقيمته العلمية وبذلك نستطيع ان نلم بمدى المساهمة التى قدمتها هذه الاسرة المشذالية ٠

1) منصور بن احمد بن عبد الحق المشذالى ناصر الدين (731 هـ)

وهو يعد قطب هذه الاسرة المشذالية ، واول نابغة فيها ، وقد كان نبوغه فيها منطلق حركة علمية مباركة انتشرت بين ابناء هذه القبيلة ٠ والامام منصـــور المشذالى ترجم له الغبرينى فى عنوانـــه (5) ٠

وابن قنفذ القسنطينى فى وفياته (6) والتنبكتى فى نيل ابتهاجه (7) ٠

وابن خلدون فى مقدمته (8) والعبدرى فى رحلته (9) ٠

والسيوطى فى بغية الوعاة (10) ٠

وقد ولد المترجم فى مشذالة سنة 631 هـ او سنة 632 هـ واخذ عن شيوخ بلده ببجاية وغيرها ثم ارتحل الى المشرق واستكمل تحصيله هناك ثم عاد الى بجاية عالما جليلا كما ذكر التجيبى فى رحلته ونقله التنبكتى عنه (11) ويذكر الغبرينى : ان ناصر الدين المشذالى اخذ بالمشرق عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام وصدر الدين سليمان الحنفى ، وشـــرف الدين السبكى وشمس الديـــن الاصفهانى وغيرهم ٠

وحصل الفقه واصول الدين ، واصول الفقه والمنطق والعربية والتفسير والحديث ، وامتاز بطريقته الجيدة فى التدريس والبحث وبفصاحة اللسان فى الالقاء ، وشغل منصب الشورى والافتاء ببجاية (12) ٠

اما العبدرى فانه يقول فى ترجمته له وقد مر عليه بقريته مـــلالة فى آخر القرن السابـــع الهجرى انه درس الاصول والفروع دراسة تفقه وله منهما حظ وافر ، ولكنـــه لا يعتنى بالرواية وليس له حظ فيها (13) ٠

---

5) الغبرينى : عنوان الدراية ص 134 6) ابن قنفذ : الوفيات ص 54 7) التنبكتى : نـــيل الابتهاج ص 345 8) ابن خلدون : المقدمة (مصر : المطبعة البهية) ص 302 9) العبدرى محمد : رحلته ص 277 10) السيوطى ، عبد الرحمن : بغية الوعاة (مصر : مطبعة السعادة (1326 هـ) ص 398 11) التنبكتى : نيل الابتهاج ص 345 ٠

12) عنوان الدراية 134 ـ 135 ٠

13) العبدرى : رحلته ص 277 ٠

اما الرحالة التجيبى الذى مر ببجاية فى هذه الفترة فانه يذكر عن المترجم معلومات قيمة فيقول انه رحل مع ابيه صغيرا الى المشرق ، وسمع بالشام ومصر على شيوخهما ، ولازم استاذه العز بن عبد السلام كثيرا ، وانتفع به ، واهتدى بهديه ، واخذ عن الشرف المرسى ، والرضى الواسطى المجتهد وغيرهم ، ودامت رحلته العلمية نيفا وعشرين سنة ، ثم عاد الى بلده عالما جليلا واستحق لدى الفقهاء بان يعد آخر رجالات الكمال بافريقية والمغرب الاقصى ممن جمع بين معرفة الفقه واصوله ، واحكم حظا وافرا من العربية ، وحصل المنطق والجدل وغيرها ، وتفوق فى علوم كثيرة (استبحر فيها وتكلم فى انواعها ، وناظر فى جميعها ، وتفنن فى المعارف) (14) .

ولا حظ التجيبى دون غيره ممن ترجم له ان الشيخ ناصر الدين المشذالى لم يقتصر فى دراسته للفقه على مذهب الامام مالك ، بل درس مذاهب الائمة الآخرين ، واختصر بمذهب مالك وتبسيطه وايضاحه ، والدفاع عنه ، مع ما كان يمتاز به من جودة الذهن ، وصحة الاستنباط والفهم (15) .

واما ابن مرزوق الخطيب فانه نقل عن شيوخه من تلامذة المترجم كالمسفر وعمران المشذالى ان المترجم وصل الى درجة الاجتهاد فى الفقه (16) ويذكر الشيخ منصور الزواوى المشاذلى مواطنه أن المترجم كان اماما مجتهدا ، وكان قدوة النظار ، وامام الامصار ، ملا اقطار بجاية بالعلوم النظرية ، والفهوم النقلية والعقلية (17) ويشهد لما ذكره منصور الزواوى كثرة الشيوخ الذين أخذوا عنه ، وتخرجوا على يده ، ومنهم الشيخ احمد بن عمران البجائى شارح ابن الحاجب فى ثلاثة اسفار (18) وابو موسى عمران المشذالى صهره وكان فقيها علامة (19) والامام منصور بن على الزواوى المشذالى (20) وابن المسفر محمد بن يحيى الباهلى البجائى العلامة (21) وغيرهم .

والواقع ان شيوخ بجاية الذين ادركوا القرن الثامن كانوا من تلامذته او تلامذة تلامذته وكانوا يتباهون بالدراسة عليه ، والاستفادة منه ، وقد اعجبوا باسلوبه فى التدريس ، وتناول الابحاث الفقهية والاصولية والنحوية والمنطقية وكانوا – بتاثيره – يميلون الى الاجتهاد فى الفروع مثله .

14) التنبكتى : نيل الابتهاج ص 344 – 345 .
15) المرجع السابق ص 345 .
16) المرجع السابق ص 343 – 346 .
17) المرجع السابق ص 346 .
18) المرجع السابق ص 69 .
19) المغرى احمد : نفح الطيب ج 7 ص 148 .
20) التنبكتى : نيل الابتهاج ص 345 .
21) المرجع السابق ص 240 .

واذا كان الغبرينى قد أشار الى ما امتاز به ناصـــر الدين المشذالى من طريقة علمية ذات فعالية فى التدريس والبحث باقتضاب فان ابن خلدون رفع من قيمة المترجم من ذلك واعتبره قائدا لثورة فكرية فى أساليب التعليم وطرق التدريس ، وفى ذلك يقول فى الفصـــل الذى عقده للحديث عن التعليم وصناعته : ثم ارتحل من زواوه فى آخر المائة السابعة ابو علي ناصر الدين المشذالى ، وادرك تلاميذ ابى عمر وابن الحاجب ، واخذ عنهم ، ولقن تعليمهم ، وقرأ مع شهاب الدين القرافى فى مجالس واحدة ، وحذق فى العقليات والنقليات ، ورجع الى المغرب بعلم كثير ، وتعليم مفيد ، ونزل بجاية ، واتصل سند تعليمه فى طلبتها ، وربما انتقل الى تلمسان مـــع عمران المشذالى من تلاميذه ، واوطنها ، وبث طريقته فيها (22) .

والواقع ان ما لاحظه ابن خلدون كان حقا وقد ترك ذلك آثارا فعالة فى دراســـة العلوم الشرعية ، والعقلية فى بجاية ، واحدث ثورة فى فن التدريس .

وتمتاز هذه الطريقة التدريسية باعتمادها على الحـــوار والمناقشة ، والتعمـــق فى البحث والتعليل فى اصول الفقه واصول الدين واستغلال الجدل فى البحث والمناظرات .

وقد انتشرت هذه الطريقة التى تنسب الـــى الفخـــر الرازى فى بجاية ، مزاحمة للطريقة التقليدية التى كانت تنسب لابى المعالى وتزور عن ذلك ، ولكن هذه الطريقة كانت لا تهتـــم كثيرا بالرواية والنقل ، وانما كانت تولى اهتمامها الكبير لجانب الدراية والبحث ومحاولة الاستنباط . وقد انتشرت هذه الطريقة فى تونس على يد ابى عبد الله بن شعيب الدكالى ، وبتلمسان على يدى ابنى الامام ، وتلاميذ ناصر الدين المشذالى .

ونتج عن انتشارها فى اواخر القرن السابـــع والقرنين الثامن والتاسع (هـ) ان نشطت الابحاث الفقهية النظرية ، والدراسات العقلية المنطقية ، واخذ الفقهاء تحت تأثير هذا الاتجاه يميلون الى الاجتهاد فى الفروع وتخريج المسائل .

ولعل الفضل الاكبر فى هذه اليقظة الفكريـــــة انما احدثها المترجـــم بعبقريتـــه التدريسية ومناظراته الرائعة ، وبتلاميذه الكثيرين الذين سلكوا نهجه فى الدراسة والتحليل . ومن المناظرات التى اثرت عن ناصر الدين المشذالى ، مناظرته لا بي موسى ابن الامام التلمسانى حول البيـــــع وشرعية دفع الثمن فيه وقد حاول ابو موسى ابن الامام ان يجيب عن الاشكالات التى وجهها اليه ناصـــر الدين (23) .

22) ابن خلدون : المقدمة : (المطبعة البهية) ص 456 .
23) المغيلى ، ابو زكرياء يحيى : الدرر المكنونة ، مخطوط المكتبة الوطنية ج I الورقة 47I .
ـ الونشرسى احمد : المعيار المعرب ط فاس ج 5 ص 290 .

وهناك فتاوى ومناظرات اخرى تبدو فيهـا عبقرية ناصر الدين المشذالى واهم ما يؤخذ عليه انه كان يتعصب لمختصر ابن الحاجب الفرعي والاصلى ، وقد نقلها الى بجاية واختص بتدريسهما وكان يعجب كثيرا بشرح التوضيح لخليل بن اسحاق على المختصر الفرعى لابن الحاجب ، وكان يقول عند التعارض بين خليل وغيره ، « نحن خليليون ان ضل ضللنا مبالغة منه فى اتباعه » (24) ٠

واما مختصر خليل نفسه فلم تنتشر دراسته فى افريقية والمغرب الاوسط الا فى اواخر القرن الثامن الهجرى بعد وفاة خليل بن اسحاق سنة 776 هـ ٠

مؤلفاتـــه :

ولم يكن ناصر الدين المشذالى يعنى كثيرا بالتاليف بل كان يفرغ جهوده للتدريس والتعليم ٠

ولذلك لم يترك من المؤلفات الا شرحا غير تام على رسالة ابن ابى زيد القيروانى (25) ٠

واذا كان المترجم قد قصر فى ميدان التاليف فانه لم يقصـــر فى ميدان التدريس وتخريج الفقهاء والباحثين الذين نشروا علمه بعد وفاته ٠

وفاتـــه :

وقد توفى ناصر الدين ــ باجماع أصحـاب التراجم ــ سنة 731 هـ بعد ان عمـر نحو مائة سنة ، وبعد أن ملأ اقطار بجاية علما ونشاطا فكـــريا (26) ٠

(2) عمران المشذالى (745 هـ) ٠

وهو كما يقول اصحاب التراجم : عمران بن موسى المشذالى البجائى نزيل تلمسان ، وقد ولد المترجم سنة 670 هـ ودرس على ناصر الديـن المشذالى ، وصاهره فى ابنته واخذ عن غيره من علماء بجاية ، ونبغ فى الحديث والفقه والاصلين ، والنحو والمنطق ، والجدل والفرائض « وكان كثير الاتساع فى الفقه والجدل ، مديد الباع فيما ســـواهما » ، (27) كما يقول المقرى الجد ، ويقول التنبكتى فى ترجمته انه كان حافظا علامــة محققا كبيرا (28) وارتحل الى تلمســـان بعد حصار بجاية حوالى سنة 727 هـ ، واستقبله ابــو تاشفين الزيانى احسن استقبال ، واسند اليه التدريس بمدرسته التاشفينية التى اسسها فى هذه الفترة لينافس بها مدرسة ابن الامام « ودرس

24) التنبكتى : نيل الابتهاج ص 114 ٠
25) المرجع السابق ص 344 ٠
26) المرجع السابق ص 345 ــ الغبرينى : عنوان الدراية ص 135 ــ ا بن قنفذ : الوفيات ص 39٠
27) المقرى احمد : نفح الطيب ج 7 ص 148 ٠
28) التنبكتى : نيل الابتهاج ص 215 ٠

بها عمران المشذالى الحديث والفقه والاصلين والنحو والمنطق والجدل والفرائض » (29) وقد اخذ عنه بتلمسان كثير من شيوخها منهم العلامة المقرى الجد وغيره .

وروى المقرى الجد انه شهد مجلس ابى تاشفين سلطان بنى زيـــان (718 – 737 هـ) الذى عقده لعلماء حضرته ، وكان فيمن حضره ابنا الامام ، وعمران المشذالى ، وابو عبد الله بن عمر والمقرى الجد ، وكان لا يزال فى عهد الطلب ، وذكر ابو زيد ابن الامام ان ابى القاسم مقلد لمــالك ، ولم يصـــل الى درجة الاجتهاد ، وخالفه عمـــران المشذالى فى ذلك ، وادعى انه مطلق الاجتهاد واستدل على ذلك بمخالفته لمالك فى كثير من المسائل (30) واخذ ابو زيد يحاجه فى الموضـــوع ويتلمس الحجج لدعم رأيه ، ووجهة نظره وتـدخل المقـــرى على صغر سنه عن سن شيخيـــه المتناظرين ، وأيد وجهة نظر عمران المشذالى .

ويلاحظ التنبكتى ان الاجتهاد المذهبى مرتبة واسعة تتفاوت بقوة التمكين وضعفه ، ولذلك يمكن اعتبار ابن القاسم مجتهدا بهذا المعنى وكان ابن عبد السلام التونسى يذهب الى ما ذهب اليه عمران المشذالى من اعتبار ابن القاسم مجتهدا مذهبيا .

مؤلفاتـــه :

ولم يكن عمران معتنيا بالتاليف مثل شيخه ناصر الدين المشذالى وانما كان متفرغا للتدريس والتعليم والفتوى ، ورويت عنه فتاوى ومناظرات تدل على منزلته العلمية السامية .

ومن ذلك فتياه التى افتى بها السلطان ابا الحسن المرينى حينما وجه سـؤالا الى علماء فاس وتلمسان عن حكم اتخاذ الركاب من الفضة او الذهب ، وأجاب عمران عن المسالة وكان جوابه هو الفيصل فى الموضوع (31) .

ودام عمران فى نشاطه التدريسى بتلمسان حتى توفى بها سنة (745 هـ) (32) .

3) منصور بن على المشذالى ابو على نزيل تلمسان بعد سنة (770) هـ

وقد ولد بمشذالة حوالى سنة 710 هـ كمــا يقول السراج فى فهرسته (33) وابن مخلـــوف فى شجرة النور الزكية (34) ودرس على والده ، وعلى ابن على ناصر الدين المشذالى ، وعلى ابى

29) المقرى احمد نفح الطيب ج 7 ص 198 .
30) التنبكتى : نيل الابتهاج ص 215 .
31) المغيلى يحيى : الدرر المكنونة مخطوط المكتبة الوطنية ، 12 الورقة 144 .
32) التنبكتى : نيل الابتهاج ص 215 .
33) المرجع السابق ص 345 .
34) ابن مخلوف : شجرة النور الزكية ج 2 ص 234 .

عبد الله الزواوى وعبد المهيمن الحضرمى ، وابى عبد الله المســـفر ، وابن النجار ، ولازم هذا الاخير واجازه ، واخذ عن الشريف السبتى ايضا ، وغيره ، ويقول ابن الخطيب فى الاحاطة : انه درس على منصور المشذالى اوائل ابن الحاجب ، واخذ عن ابى حسين البجائى جملة من كتـــاب الحاصل ، وكتابى المعالم الدينية ، والايات البينات ، والجمل فى المنطق للخونجي واخذ عن قاضى بجاية أبى عبد الله بن يوسف الزواوى ، وابـــى العباس بن عمران ، وانتقل الى تلمسان والمغرب واخذ بهما عن عبد المهيمن الحضرمى ، وابى العباس بن يربوع والقاضى ابن اسحاق بن يحى والشريف السبتى وغيرهم (35) ٠

اما السراج تلميذ المترجم فانه يقول فيه :

الفقيه المدرس الاصولى النحوى ابو على منصور ، كانشيخا فاضلا نظارا مشاركا فى العلوم العقلية والنقلية ، وكان حريصا على الافادة والاستفادة ، وقد وصفه ابن الخطيب باستقامة الخلق وحسن العهد ، والطهارة والعفة والاقتصاد والصراحـــة والانقباض عن النـــاس والانصاف فى المذاكرة ، والمثابرة على الافادة والتواضع ٠

وقال فى تحصيله العلمى : انه صدر من الصدور له مشاركة حسنة فى كثير من العلوم العقلية والنقلية واطلاع وتقييد ، ونظر فى الاصول والمنطق والكلام ودعوى فى الحساب والهندسة والآلات٠

وكان اديبا يجيد الكتابة ويقرض الشعر (36)

وقد ذكر ابن الخطيب ان المترجم قدم الاندلس عام 753 هـ ، واستقبل فيها استقبالا حسنا ، واستقر بغرناطة مدرسا بمدرستها تحت جراية نبيهة والقى فيها دروســـا فى الفقه والتفســـير وغيرهما ، وباشر الافتاء ، ونالته محنة حين توقف فى الحكم على عقيدة رجل نال من جانب الله ورسوله ، وكفره الفقهاء وتوقف المترجم عن تكفيره فاتهمه الجماعة ، واضطر الى مغادرة الاندلس سنة 765 هـ ولعله عاد الى المغرب الاسوط ، وتنقل فى حواضره حتى توفاه الله بعد سنة 770 هـ ٠

ومن تلاميذه الذين اخذوا عنه ، واستفادوا من علمه الامام ابراهيم الشاطبى المتوفى سنة 790 هـ ويحى السراج وغيرهما (37) ٠

ومن آرائه الطريفة قولـــه ان العالم لا يسمى عالما حتى تتوفر فيه اربعة شروط وهى :

35) التنبكتى : نيل الابتهاج ص 345 ٠
36) المرجع السابق ص 345 ٠
37) ابن خلدون يحيى : بغية الرواد ، ع الفرديل ج I ص 74 ٠
– نيل الابتهاج ص 343 ٠

1) ان يكون عالما بمعرفة اصول ذلك العلم على الكمال ·

2) وان يكون قادرا على التعبير عن ذلك العلم ·

3) وان يكون عارفا بما يلزم عنه ·

4) وان يكون قادرا على رفع الاشكالات الواردة عليه (38) ·

ولا يبعد ان يكون المترجم قد حقق هذه الشـــروط فى كل علم كان ينتلحه ويتعدى للتدريس فيـــه ·

4) العلامة الفقيه محمد بن ابى القاسم بـن محمد بن عبد الصمد المشذالى البجائى المتوفى سنـــة 866 هـ ·

وقد درس المترجم ببجاية على ابيه ابى القاسم ، وشاركه فى بعض شيوخه ، الى ان بلـــغ درجة كبيرة فى تحصيله للعلوم الشرعية ، وكان كما يقول التنبكتى فيه : فقيـــه بجاية وخطيبها ومفتيها وصالحها ، ومحققها ، وكان علامة محققا نظارا مقدما على اهل عصـــره فى الفقـــه وغيـــره (39) ·

وكان المترجم مقيما ببجاية ، وكثير التـردد على تونس ، وقد نال وجاهـــة عند السلطان الحفصى بتونس ، وتولى الخطابة بالجامع الاعظم ببجاية ، ودرس فيه ، وفى غيره من المساجـد ، وتولى الافتاء ببجاية ، واشتهر بين الناس بالتحصيل الواسع حتى كان يضرب به المثل فيقال :

اتريد ان تكون مثل ابى عبد الله المشذالى (40) ·

وقد اشتهر المترجم بالتاليف والاجادة فى التصنيف والتحقيق وترك من المؤلفات التى تشهد له بالتحصيل والتحقيق ما يلي :

1) تكملة حاشية ابى مهدى عيسى الوانوغى على المدونة فى مجلد واحد ، وهى كما يقـول التنبكتى = فى غاية الحسن والتحقيق تدل عـلى امامته فى العلوم وقد فرغ من تاليفها سنـــة 836

2 ــ ومختصر البيان لابن رشد ، وقد رتبـه على مسائل ابن الحاجب الفرعى (مختصره) وجعله شرحا له ، بعد ان اسقط منه التكرار ورد كل مسالة الى موضعها من الاحالات فى الكتاب ،

38) نيل الابتهاج ص 345 ــ الحفناوى : تعريف الخلف ج 2 ص 570 ·

39) راجع فى ترجمته : السخاوى : الضوء اللامع ج 1 ص 290 التنبكتى : نيل الابتهاج ص 314 ــ الزركلى : الاعلام ج 7 ص 222 ــ الحفناوى : تعريف الخلف ج 2 ص 105 ·

40) السخاوى : الضوء اللامع ج 8 ص 290 ·

فجاء مختصره فى غاية الاتقان والتيسير ، وتـرك من مسائله مالا تعلق له اصلا بكلام ابن الحاجب وهو فى اربعـة اسفار ، وفى نحو 90 كراسا ويقول التنبكتى : اننى وقفت على هذه الكراريس ما عدا الثانى منها ·

3 ــ واختصار ابحاث ابن عرفة من مختصره المتعلقة بكـــلام ابن شاس ، وابن الحاجب وشرحه مع زيادة شىء يسير فى بعض المواضـــع لما لم يطلع عليه ابن عرفة ، وهو يقع فى مجلد ·

4 ــ وفتاوى نقلها صاحب الدرر وصاحب المعيـــار ·

تلاميذه : اخذ عن المترجم تلاميذ كثيرون منهم والده ابو الفضل واخوه ابو الربيع المسناوى ، وابو مهدى عيسى بن الشاط ، وابن مرزوق الكفيف وغيرهم ·

وفاته : وتوفى المترجم كما يقول التنبكتى نقلا عن الونشريس فى وفياته سنة (866 هـ) (41) ·

اما السخاوى فانه لم يحدد تاريخ وفاته بسنـــة معينة بل ذكر انه توفى فى بضع وســـتين وثمانمائة هـ ·

5 ــ محمد بن محمد بن ابى القاسم المشذالى (859 هـ) ·

وقد ذكر التنبكتى انه درس على ابيه واشتهر بالفقه وتوفى سنة 859 هـ (42) ·

6 ــ ابو الفضل محمد بن محمد بن ابى القاسم المشذالى العلامة الشهير (865 هـ) ·

كان المترجم أحد ولدى العلامة الفقيه محمد بن ابى القاسم بن عبد الصمد المشذالى صاحب تكملة حاشية الوانوغى وغيرها من مؤلفاته وقـد سبقت ترجمته ·

وقد نبغ ابو الفضل ، واكتسب شهرة واسعة فى المشرق والمغرب (43) ·

والمترجم كما يقول السيوطى : هو احد اذكياء العالم ، وقد درس بالمغرب على والده وغيره ثم ارتحل الى مصر ، وأبان عن تفنن فى العلوم فقها واصولا وكلاما ونحوا وغير ذلك واخذ عنـه طلبة العصر (44) ·

---

41) التنبكتى : نيل الابتهاج ص 314 ·
42) التنبكتى : نيل الابتهاج ص 315 ·
43) ترجم له السخاوى محمد : الضوء اللامـع ج 9 ص 180 ــ 187 السيوطى ، نظم العقيان ص 160 ــ السيوطى : بغية الوعاة ص 373 ــ التنبكتى : نيل الابتهاج ص 315 ·
44) السيوطى : بغية الوعاة ص 373 ·

وترجم له التنبكتي ترجمة متوسطة ذكر فيها خلاصة ما ذكره السيوطي والسخاوي (45) ·

واهم ترجمة له هي ترجمة الضوء اللامع للسخاوي وهي التي نعتمد عليها للتوسع في تفصيل اخبار ابي الفضل ، وتحليل عبقريته العلمية وقد جاء فيها ان المترجم يعرف في المشرق بأبي الفضل ، وفي المغرب بابي القاسم (46) ·

وذكر السخاوي انه ولد ليلة النصف من رجب سنة 821 هـ او 822 هـ ببجاية وجزم ابن ابي عذيبة بانه ولد سنة 820 هـ ونقل السخاوي عن البقاعي ان المترجم بدأ قراءته بقراءة القرآن وعمره خمس سنوات ، وحفظه في سنتين ونصف وقرأه بالسبع على ابيه ، وعلى ابي عبد الله محمد بن رفاع ، وحفظ الشاطبتين ، ورجز الخراز في الرسم ، والكافية الشافية ، ولامية الافعال لابن مالك ، والتسهيل والالفية في النحو لابن مالك وابي الحاجب الفرعي ، والرسالة لابن ابي زيد القيرواني وارجوزة التلمساني في الفرائض ، ونحو الربع من مدونة سحنون ، وطوابع الانوار في اصول الدين للبيضاوي ، ومختصر ابن الحاجب الاصلي ، وجمل الخونجي في المنطق والخزرجية في العروض ، وتلخيص ابن البناء في الحساب ، وتلخيص المفتاح في البلاغة ودواوين الجاهليين واقبل على الدرس والتحقيق ، ثم ارتحل الى تلمسان اول سنة 840 هـ وعمره لا يتجاوز العشرين ، ودرس بها على الحفيد ابن مرزوق الشهير التفسير والحديث والفقه والاصلين والادب والمنطق والجدل والفلسفيات والطب والهندسة ·

واخذ عن ابي القاسم محمد بن سعيد العقباني الفقه واصول الدين ، واخذ عن ابي الفضل ابن الامام التفسير والحديث والطب والهندسة والعلوم القديمة والتصوف ، واخذ عن ابي العباس احمد بن زاغو اصول الفقه والمعاني والبيان ، ودرس عليه مختصر ابن الحاجب الاصلي الذي كان مرجع الناس في دراسة الاصول بتلمسان واخذ عن ابي عبد الله محمد النجار المعروف لشدة معرفته بالقياس بساطور القياس ، واخذ عن ابي يعقوب يوسف بن اسماعيل الحساب والفرائض ·

واخذ عن ابي الحسن علي بن قاسم الحساب والجبر والمقابلة والهيئة وجر الاثقال واخذ عن ابي عبد الله محمد البوري التقاويم والميقات بانواعه من فنون الاسطرلاب والصفائح والجيوب والهيئة والارتماطيقي والموسيقي والطلسمات وما شاكلها ، وعلم المرايا والمناظرة والاوفاق واخذ عن الطبيب العلامة ابي افشوش الطب ·

45) التنبكتي : نيل الابتهاج ص 315 ·

46) الضوء اللامع ج 9 ص 180 ·

وانتهى ابو الفضل من دراسته بتلمسان فى أربـــع سنوات . وعاد الى بجاية سنة 844 هـ وقد برع فى العلوم التى درسها ببجاية سابقا ، وبتلمسان ، وبرز على اقرانه وسامى بعض شيوخه فيهـــــا .

والواقع ان ابا الفضل قد درس دراسة معلمية مما كان يقـرأ بتلمسان وبجاية من الدراسات العالية ، وقائمة الكتب التى ذكرناها فى ترجمته تدل على ازدهار دراسات جميع فروع المعرفة من نقلية وعقلية ولذلك لا غرابة ان يصل ابو الفضل الى درجة علمية تثير الاعجاب فى المشرق والمغرب وقد ذكر السخاوى نقلا عن البقاعى الذى حكى عن بعض المغاربة ان الامام العلامة ابى مـــرزوق الحفيد كان يقول : ما عرفت العلم حتى قدم على هذا الشاب « يعنى ابا الفضل » فقيل له كيف ذلك ، قال لانى كنت اقول فيسلم كلامى ، فلما جاء هذا الشاب شـــرع ينازعنى فاخذت اتحـــرز « وانفتحت لي ابواب من المعارف » (47) .

ونقل القلصادى البسطى — وكان زميلا لابى الفضل فى الدراسة بتلمسان — عن ابى مرزوق انه قال فى المترجم «ان عاش ليكونن عالم المسلمين»

وقد اشتهر ابو الفضل بالمناظرة والجدل مع زملائه من طلبة العلامة ابن مرزوق فى مجلسه وغيره ، وكان ينافسه فى ذلك الشريف احمد بن ابى يحيى .

وبعد عودته الى بجاية انتصب للتدريس بها مدة ثم رحل عنها مغاضبا لابيه ، وبغير رضاه الى تونس التى اقام بها مدة ثم واصل سيره الـــى المشرق وسار فى سفينة جنوية ارســـت به فى قبرص فنزل اليها وناظر اساقفتها وافحمهم ثم انتقل منها الى بيروت ، وطوف فى بلاد الشام وشاع ذكـــره هناك .

وحج عام 849 هـ وقصد بعد الحج الى مصر حيث اقام بها ، ونال حظوة عند رجال الدولـة فيها ، ودرس فيها عدة فنون فبهر العقول ، وادهش الالباب .

وكانت طريقة تدريسه كما يصورها السخاوى هي : ان يقرأ القارىء بين يديه ورقة او اكثر ثم يسرد ما تتضمنه من المسائل بأسلوب فصيح وتحقيق تام ، وكان الطلبة يعجزون عن متابعته فى ابحاثه فطلبوا منه ان يتنازل لهم فى بحثه واسلوبه ، فقال لهم لا تنزلوني اليكم ، ودعونى ارقيكم الى.

وبعد مدة (حددها لهم) تصيرون الى فهم كلامي ، وكان الامر كما قال لهم . على ما يذكر السخاوى ، ويذكر البقاعى انه حضر احد دروسه بجامع الازهر فى ذى القعدة من عـــام 852 هـ

47) المرجع السابق ج 9 ص 182 .

فاعجب به كثيرا ، وقال فى درسه رغم ما فيه من مبالغة : « ان من لم يحضر درسه لم يحضر العلم ولا سمع كلام العرب ، ولا رأى الناس ولا خرج الى الوجود ، قال ومن سمع كلامه فى العلم علم انه يخبر عن مشاهدة ، وأن غيره يخبر عن غيبة ، وليس المخبر عن مشاهدة كالمخبر عن معاينة » ثم يقول : « انني لم ار أعظم تحريكا للهمم من حاله، ولا أشد فعلا للقلوب من مقاله» (45) ·

سلوكه : ورغم ما كان عليه ابو الفضل المشذالى من عبقرية علمية ، وتحصيل فائق فان اخلاقه لم تكن مرضية ولا مناسبة لجلاله العلمى ، فكان كما يذكر بعض مرتجميه : كثير الترفع على اصحابه ، ولا سيما فى الملأ عظيم التهاون بهم ، عديم النفع لهم مداهنا لخصومه واعدائه ·

وكانت بينه وبين ابن حجر المحدث الكبير نفرة ، ومرض ابن حجر فعالجه المشذالى وشكره على ذلك ·

وقال ابن الهمام فيه : « هذا الرجل لا ينتفع بكلامه وينبغى أن لا يحضر دروسه الا حذاق العلماء ، وسئل عن النسبة بينه وبين ابى القاسم النويرى ، فقال جهد ابى القاسم ان يفهم عنه » (46)

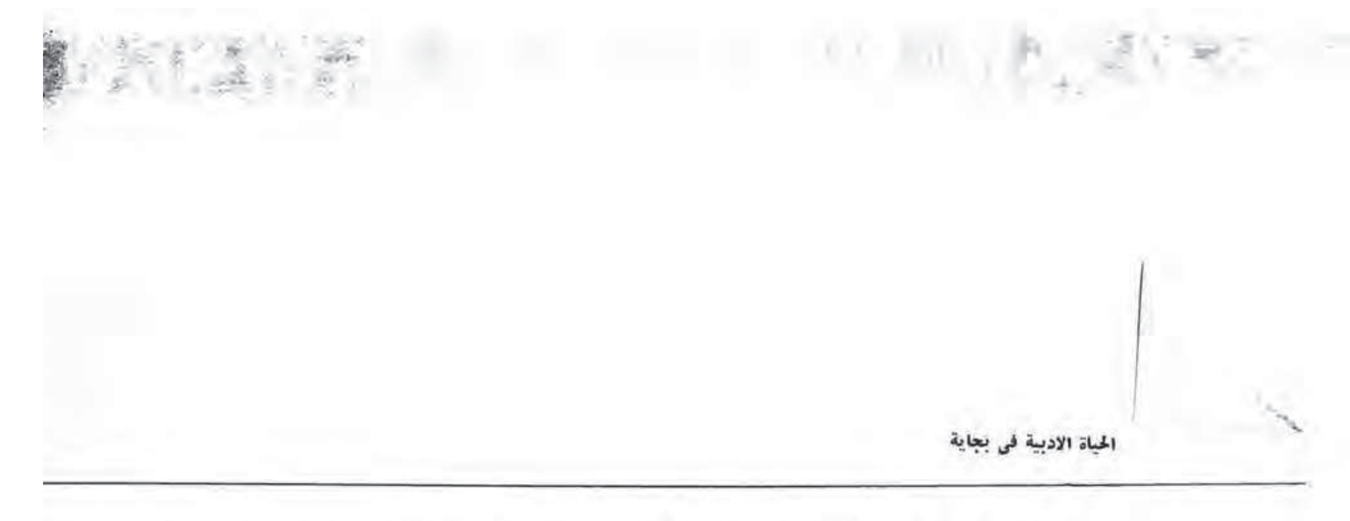
ويذكر ابن الهمام انه سأله مرة عن مسألة فى أواخر الاصول فاجابه عنها باجوبة لا يجيب عنها غيره ولو اقام فى تحرير جوابها ثلاثة اشهر ·

اما السخاوى فانه رغم عدم تقديره كثيرا لابى الفضل المشذالى نظرا لما كان بينه وبين شيخه ابى حجر من نفرة فانه قال فيه : « كان ابو الفضل غاية فى جودة الذهن وسرعة الادراك ، وقوة الحافظة ، الا انه كان سريع النسيان ، قليل الاستحضار ، ولهذا لم يكن يتكلم فى المجالس الا نادرا خوفا من الاستظهار عليه بالنقول ، واذا طالع محلا اتى فيه بما يبهر السامع » (47) ·

ومعنى ما ذكره السخاوى ان المترجم كان من علماء الدراية ولم يهتم كثيرا بالرواية وحفظ النصوص ، وهذا الاتجاه الذى سار عليه ابو الفضل هو الذى كان يسير عليه ابو على ناصر الدين المشذالى شيخ المشذاليين فى القرن السابع واول الثامن ·

منهج تدريسه : وهو كما يصفه البقاعى يعتمد على اعمال العقل فى فهم النصوص ولم يكن يطالع من الشروح عند اعداد موضوع الدرس شيئا وانما كان يعتمد على قراءة المتن وحده ، ثم يستلقى على قفاه ويستغرق فى تأمل عميق فيأتى (بصواعق لا ينهض بها غيره وانه كان يفعل ذلك فى كل علم يقرأه او يقرئه ، لا يزيد على نظر المتن) (48) ·

48) المرجع السابق ج 9 ص 184 ·



وهذا يدل على عبقرية فذة كان يمتاز بها ابو الفضل ، وعلى ذكاء خارق كان يساعده على التحليل العميق ، والاستنباط البديع ، حتى كان معاصروه يصفونه معجبين بانه « نادرة العصر واعجوبة الزمان » .

تلامذته : وقد اخذ عن المترجم طائفة من العلماء منهج احمد بن زكرى بتلمسان وقد كان يأخذ عنه وهو لا يزال طالبا يحضر حلقات العلامة ابن مرزوق الحفيد وغيره .

واخذ عنه بمكة البرهان بن ظهيرة ، وبالشام ابن قاضى عجلون ، وبالقدس الكامل بن ابى شريف وبالقاهرة الشهاب البيجورى والديسطى وابن الغرز وغيرهم .

وفاته : اختلف اصحاب التراجم حول تاريخ وفاة ابى الفضل ، فالسيوطى يقول فى نظم العقيان انه توفى سنة 865 (49) .

ويقول فى بغية الوعاة انه توفى بحلب حوالى سنة 863 هـ (50) .

والسخاوى يذكر ان وفاته كانت فى عينتاب اواخر سنة 864 هـ (51) .

ونقل التنبكتى عن السخاوى انه ولد فى 15 رجب سنة 821 هـ وانه توفى سنة 865 هـ ولعل هذه الرواية نقلها من بعض نسخ الضوء اللامع .

ولا يبعد ان تكون سنة وفاة ابى الفضل المشذالى هى سنة 865 هـ .

مؤلفاته : لم يترك ابو الفضل من المؤلفات الا كتابا واحدا هو شرح جمل الخونجى فى المنطق ، وهذا غريب بالنسبة الى رجل عبقرى مثله ، ولكن ابا الفضل على ما يبدو كان مثل شيخ مشذالة ابى على ناصر الدين لا يميل الى التاليف ، وانما كان يميل الى التدريس ونشر العلم بواسطة التحاضر والالقاء ولهذا لم ينشط للتاليف والتصنيف .

وكان ابو الفضل رغم تفرغه للعلوم الشرعية ، والدراسات العقلية يميل الى الادب ، ويتذوق الشعر وقد رويت له مقطوعة شعرية شكا فيها من الم الفراق ، ووحشة الاهل والاقارب لما كان بتلمسان ، وقد ذكر السخاوى منها بيتين هما :

1) **برق الفــــراق بدا بافق بعادنا**	**فتضعضعت اركاننــــا لرعــــوده**
2) **كيف الفـــراق وقد تبدد شملنا**	**والبين شــــق قلوبنا بعمــــوده**

49) المرجع السابق ج 9 ص 185 .
50) المرجع السابق ج 9 ص 188 .
51) المرجع السابق ج 9 ص 185 .
52) نظم العقيان ص 160 .
53) بغية الوعاة ص 373 .
54) الضوء اللامع ج 9 ص 188 .



نظام الحكم في إمارة الأمير عبد القادر

للمرحوم
رابح بونار

ان الامير عبد القادر الجزائرى الذى ولد فى القيطنة من نواحي معسكر سنة 1807 ومات بدمشق سنة 1883 م قد سجل صفحات لامعة فى تاريخ الجهاد بالجزائر بعد الاحتلال الفرنسي لها سنة 1830 وقد لفت جهاده المرير انظار السياسيين الاوربيين اليه وانظار المسلمين التى كانت تتابع باهتمام جميع انتصاراته الحربية فى مختلف معاركه مع جيوش الاحتلال الفرنسي .

ودامت حروبه للمستعمرين الفرنسيين من سنة 1832 الى سنة 1847 م حيث اضطر الى التسليم لاسباب مختلفة . بعضها يعود الى كثرة الجيوش الفرنسية التى كانت تحاربه والى تدهور الاوضاع الاقتصادية للمنطقة الوهرانية التى خلفتها الحرب ونتج عنها ضعف الفلاحين وحدوث المجاعات وقلة تموين الجيش الشعبى وبعضها الآخر يعود الى أسباب أخرى .

فجعت الجزائر يوم الجمعة 25 اكتوبر 1974 بوفاة احد رجالها العاملين المخلصين فى الميدان الثقافى وهو الاستاذ رابح بونار .

وكان الاستاذ الفقيد من كتاب « الاصالة » منذ نشأتها حتى وفاته . وهذه الدراسة عن نظام الحكم فى امارة عبد القادر آخر ما خص به « الاصالة » .

رحم الله الفقيد رحمة واسعة « **الاصالة** »

ونقل الامير بعد تسليمه الى فرنسا وسجن بها الى أن اطلق سراحه سنة 1852 م ثم انتقل منها الى الاستانة التى أقام بها مدة ثم غادرها الى دمشق حيث أمضى فيها بقية حياته .

اننا ذكرنا هذه اللمحة لنمهد بها الحديث عن نظام الحكم فى امارة الامير عبد القادر .

وهذا الجانب من نشاط الامير عبد القادر قد لا يعيره كثير من الباحثين السياسيين ما يستحقه من عناية وتقدير على ما فيه من عبقرية ادارية ونشاط اجتماعى خلاق ولكن الباحث الاجتماعى والقانونى قد يقف عنده كثيرا ونحن هنا نريد ان نذكر صورة موجزة عن هذا النظام الذى تعوزنا مراجع كثيرة للحديث عن اجهزته المختلفة مكتفين ببعضها مما امكننا الاستفادة منه مثل تحفة الزائر (1) وطرس الاخبار (2) وكتاب الجزائر (3) وتاريخ افريقية الشمالية لا ندرى جوليان وغيرها .

ولما كان نظام الامير عبد القادر الجزائرى يقوم على نظام البيعة الاسلامى فينبغى ان نذكر اجراءات بيعته والجو الذى وقعت فيه وصك هذه البيعة .

بيعة الامير : بويع الامير عبد القادر ببيعتين كانت الاولى منهما سنة 1832 م وقد بايعه فيها بمعسكر قبائل غريس واعراب المنطقة كلها وذكرلنا صاحب التحفة ان الناس بايعوا الامير البيعة الاولى وجاء فى صك هذه البيعة . ان الله يحمى بالسلطان ما لا يحمى بالقرآن وان الوطن فى حاجة الى الدفاع عن حماه وان أهل الحل والعقد وزعماء القبائل والاعيان والعلماء والصالحين قد توجهوا الى الامير وقالوا ان قبول الولاية قد تعين عليك وقد توفرت فيك شروطها من عدل وشجاعة وعزم وعصبية من غير طلب منك لها . فرضى بالترشيح لها وبايعوه على ان ينصروه فى السراء والضراء .

ولما تمت هذه البيعة أرسل علماء غريس منشورات الى القبائل يدعونهم فيها الى طاعة الامير وبيعه (4) .

---

1) محمد عبد القادر الجزائرى : تحفة الزائر فى تاريخ الجزائر تعليق ممدوح حقى (بيروت دار اليقظ العربية) ص 155 .

2) المرقى محمد : طرس الاخبار - مخطوط الخزانة الملكية بالرباط تحت رقم 5496 ص 21

3) توفيق المدنى : كتاب الجزائر .

4) اندرى جوليان : تاريخ افريقية الشمالية بدون تاريخ ص 597 .

البيعــة الثانيــة :

ثم وقعت البيعة الثانية ـ وكانت اعم من الاولى سنة 1833 م وجاء فيها ان بيعة الامــير تستوجب لزوم الطاعة له فى القول والفعل لاقامة العدل وجمع الشمل ومحاربة العدو وتمت فى 13 رمضان سنة 1248 هـ (4 فبراير سنة 1833 م)وهكذا تمت بيعة الامير نهائيا وقد برزت بهــا دولة شعبية تحكم باسم الشعب ولفائدة الشعب فكانت دولة ديمقراطية بحق فترة كان فيه قيام الدول الديمقراطية فى العالم العربى قليـــلا أو منعدما ٠

وقد حقق الامير فى فترته القليلة ما التزم به أمام الشعب فكان اميرا عادلا فى احكامه وكان قائدا حربيا مجليا فى جهاده وكان شعبيا فى جميع تصرفاته ٠

وقد حدثنا كاتب المانى زار الجزائر فى ايام حروبه سنة 1837 م فقال فيه (6) كان الامــير يسوس رعيته بالعدل ولم تقل عمليات الاعدام مثلما قلت فى ايامه والجدير بالذكر انه لم تقع محاولة لاغتياله حتى فى أيام محنته وهزيمته . فى حين ان اغلب الدايات كانت لهم نهاية دموية» .

تشكيل حكومتــه :

قامت حكومة الامير عبد القادر بمدينة معسكر على انتخاب عام له كرئيس أعلى للدولة ولــم ينتخب الناس معه من سيكونون اعوانه فى الحكم وهذا اهم فارق يفرق بين حكومة الامير والحكومات العصرية ، بل تركوا أمر تعيينهم له وقد اختار اعضاء حكومته من رجالات القبائل وذوى العصبية فيهم لتولى مسؤوليات الحكم كما اختار العلماء أيضا ٠

واذا حاولنا ان نميز بين السلطات الثلاث : التشريعية والتنفيذية والقضائية فى جهاز امارة الامير فاننا نجد بعض الصعوبة لايجاد معالــم واضحة لكل سلطة على حدة ٠

---

5) طرس الاخبار ص 21 ٠

6) مورتير ماغنر : الامير عبد القادر ترجمة ابن العيد دودو بالمجاهد الاسبوعى العدد 509 ـ 24 ماى سنة 1970 ص 30 ـ 31 ٠

السلطـــة التنفيذيـــة :

تعتبر السلطة التنفيذية هى أهم السلطات ونجد قمتها الامير عبد القادر الذى كان رئيس الحكومة الاعلى والقائد الحربى ثم يليه جملة من الوزراء وهم (7) ·

1 ـ الوزير الاول وهو **محمد بن العربى** ومعه كاتبان هما احمد بن على بن ابى طالب ، والحاج مصطفى بن الهاشمى ·

وكان ينوب الامير فى كثير من المهام المدنية والعسكرية ·

2 ـ وصاحب الامير وهو محمد بن على الرحاوى وكان يقوم بدور الوساطة بين الامـــير والموظفين والرعية والاجانب ·

3 ـ وناظر الخزينة أو وزير المال هو الحاج الجيلالى بن فريحة ·

4 ـ وناظر الخزينة الخاصة بالامير والمقتصد الخاص بالامير وهو محمد بن فاخة ·

5 ـ ناظر الاوقاف وهو **الحاج الطاهر ابوزيد** وهو يتولى العناية بكل ما يتصل بالاوقاف والمساجد والتعليم على ما يبدو ·

6 ـ ناظر الاعشار والزكوات وهو الحاج الجيلالى العلوى وكان كمدير للجباية ·

7 ـ وناظر الخارجية الحاج بن الميلود بن عراش وكان ـ كوزير الخارجية ـ

ان هذه التشكيلة هى التى تتكون منها السلطة التنفيذية للامير ·

السلطة التشريعية والقضائية :

اما السلطة التشريعية والقضائية فان كليهما لم تكن معالمهما فى امارة الامير ودولته واضحة السمات ولا متمايزة الصلاحيات . بل اننا نجد هاتين السلطتين متداخلتين فى كثير من اعمالهما .

فالسلطة التشريعية لم يكن تشريعها مطلقا فى كل الامور بـــل كان خاصا ببعض اللوائح الادارية أو ببعض القوانين الادارية وما يلحق بهما من كل ما له صلة بالسياسة الشرعية التى يذكرها فقهاء القانون الاسلامى وكان دستـــور الدولة هو القرآن الكريم والسنة النبوية وكانت

---

7) تحفة الزائر ص 162 ·

المدونة الفقهية التى يعتمدها الفقهاء هى مدونة الامام مالك وما تفرع عنها من كتب المذهب المالكى كمختصر خليل وغيره ٠

وقد تالف مجلس السلطة التشريعية للامير من مجلس سماه « مجلس الشورى » (8) وهو يتكون من احد عشر عضوا من جلة العلماء ورئيسه هو احمد بن الهاشمى المراحى وهو الى جانب رئاسته للمجلس كان قاضى القضاة ٠ وهذا ما يوضح لنا تداخل السلطتين معا فى حكومة الامير٠

واهم ما قام به المجلس من نشاط هو نشره لمدونة عسكرية فيها قوانين واجراءات عسكرية وغيرها كتبها عبد القادر بن رويلة فى كتاب سماه« وشائح الكتائب » واورد صاحب التحفة فصولا منـــه ٠

وقام المجلس أيضا بارسال المناشر الى القبائل وكان يتعقبا القضايا والنوازل التى تصدرها المحاكم الاولية ويفصل فيها كما تفصل المحاكم العليا فى الدول الحديثة فى مثل هذه القضايا ٠

وكان مقر المجلس بحاضره معسكر وله مجالس أخرى فرعية فى انحاء القطر تتبعه وتقع تحت اشرافه وكانت هذه المجالس الشورية الفرعيـة تتولى أيضا معالجة الامور التى تقع بين الرعيـــة وتفصل فى الاحداث التى تقع فى المقاطعة وكان تعيين اعضائها يقع على يد خلفـــاء الامـير فى المقاطعات ٠

وكانت كل قضية يقع فيها الفصل تكتب فى سجل ويوقع عليه رجال الشورى واذ وردت نازلة خطيرة على مجلس فرعى صرفها رئيسه الى المجلس الاعلى بالحاضرة معسكر ويستدعى الامير بحضور جلسات المجلس وينعقد تحت رئاسته ثم يقع البت فيها .

السلطة القضائية :

ان قاضى القضاة ــ كما قلنا ــ هو رئيس مجلس الشورى الاعـلى بمعسكـر وأما القضاة الفرعيون فهم ينقسمون الى قضاة الجند والى القضاة المدنيين . وهؤلاء القضاة المدنيون كـانوا منبثين فى مختلف المقاطعات الادارية ففى كل مقاطعـة قاض (9) يفصل فى النوازل الشرعية على مذهب

---

8) تحفة الزائر ــ ص 162 ٠

9) التحفة ــ ص 309 ٠

الامام مالك . وكان الامير يشرط في القاضي ان يكون عالما نزيها متحريا للحق وجعل لكل قاض كاتبين أكبرهما يقوم بدور المفتى حيث يتولى مطالعة الفتاوى ودراستها على مقتضى ما جاء في المذهب المالكي ثم يقدمها الى القاضي ليحكم بها اذا كان موضوعها يتعلق بنازلة من النوازل الصغيرة .

اما النوازل الكبيرة فكانت تحال على المجلس الكبير بالحضارة (معسكر) .

ادارة الامير :

أما ادارة الامير ونعني بها سير حكومته في شتى مجالاتها فقد كانت ادارة محكمة تبدأ من رئيس الدولة وهو الامير الى آخر موظف في أجهزتها المختلفة .

وكان تعيين الحكام والخلفاء والقواد يتم بمراسيم يقررها كاتب الديوان الخاص ويختم على كل سطر منها بخاتم الامارة وهو خاتم كبير الحجم نقش على دائرته بيت للبوصيرى وهو قوله : (ومن تكن برسول الله نصرته ـ ان تلقه الاسد في آجامها تجم) وتعثر على جوانبه (الله ـ محمد ابوبكر ـ عمر ـ عثمان ـ على)ونقش في وسط الدائرة : الواثق بالقوى المتين ، ناصر الدين عبد القادر بن محى الدين بتاريخ سنة 1248 هـ وكان عامل الناحية ويدعى الخليفة ايضا يتم تعيينه داخل ديوان الامير وعند تسليمه لمرسوم التقليد يعطى له خاتم عليه اسمه ولقبه، ويخلع عليه برنس جوخ على حسب رتبته ثم يحلف على صحيح البخارى على ان يحسن السيرة والعدل في أعماله وأحكامه واذا مات العامل رجع الخاتم الى دار الامارة بمعسكر ـ ولم يكن الامير يكتفي بسلوك عماله الظاهرى بل كان يستعلم عن جميع اعمالهم وسلوكهم حتى لا يقع منهم جور . مقتديا بفعل عمر ابن الخطاب وكان لتشدده في اقامة العدل لا يستعمل موظفى الدولة التركية « لما اشتهروا به من ظلم وسوء سياسة » (10) .

التقسيم الادارى لامارته :

وقسم الامير امارته الى مقاطعات وكان عددها في أول حكمه قليلا حيث كان لا يتجاوز مقاطعتي تلمسان ومعسكر ثم زاد عددها فصارت تشمل مقاطعات تلمسان ومعسكر وتيطرى ومليانة وبرج حمزة ومجانة وغيرها . وكان على رأس كل مقاطعة عامل وخليفة . ثم قسم الامير المقاطعة الى

10) التحفة ـ ص 307 .

دوائر ووضع فى كل دائرة آغا وهو رجل عسكرى يحكم تلك الدائرة وكان فى كل دائرة قبائل تشتمل على بطون وعشائر • وقد جعل على كل قبيلة قائدا وعلى كل بطن وعشيرة شيخا .

وكانت الاوامر الاميرية اذا صدرت من معسكر توجه الى العمال والخلفاء ثم تنتقل منهم الى الاغوات فالقواد فالمشايخ .

واذا نزلت أحداث هامة فى الدوائر فان المشايخ يرفعونها الى القواد وهؤلاء الى الاغوات واولئك يبلغونها الى الخلفاء ليعرضوها على حضرة الامير بمعسكر فيفصل فيها بالعدل اما اذا كانت النوازل ثانوية فان خليفة الناحية يكفى للفصل فيها كما ذكرنا سابقا • وهنا نلاحظ ان الامير قد استعمل النظام الادارى التركى ثم حاول ان يزيد عليه ويحسنه .

انشاء المستشفيات :

وانشأ مستشفيات لجنوده فى كل مقاطعة لما تقتضيه وضعيته الحربية التى كان يخوضها مع الجنود الفرنسيين من انشاء مستشفيات لعلاج جنوده ومرضى شعبه وقد عين عليها أربعة اطباء يرجع امرهم الى طبيب حضرته وهو ابو عبد الله الرزوالى • (11)

بناء الحصون ومعامل السلاح وغيرها :

وعنى الامير أيضا ببناء حصون كثيرة ليستعين بها على مواقعة الجنود الفرنسيين فانشأ حصونا سعيدة وسبدو وتاقدامت وكان حصن تاقامت اعظمها ، وقد استعان على بنائها بعمال من اسبانيا وغيرهم •

كما عنى ببناء مصانع للسلاح ليصنع فيها البارود والسيوف والبنادق والرصاص . وكانت مصانعه منتشرة بمعسكر ومليانة وغيرها •

وكان عند اللزوم يشترى السلاح من تونس ومراكش كما يشترى الملح والكبريت من البحارة الفرنسيين واما المدافع فكانت تصنع بمعامل تلمسان تحت اشراف مهندس اسبانى وكان صناعها من يسمون قرداحية وبعضهم كان يرافق الجيش لاصلاح اسلحته عند اللزم • كما كان يرافقه صناع السروج والخياطون •

---

11) التحفة ــ ص 313 • 12) المصدر السابق 315 •



جيش الامير وحرسه :

لم يكن جيش الامير الذى كان يحارب به الفرنسيين كبيرا بل كان عدده لا يتجاوز 15 الف وثلثمائة جندى وكان ينقسم الى 12 الف جندى من المشاة والفين وخمسمائة خيالة ومائة وخمسين جنديا مدفعيا كانوا يديرون عشرين مدفعا فى السفر ٠

وكان للامير جيش خاص به يحرسه وهو يتألف من خمسمائة عبد تحت رئاسة سالم آغا الزنجى ٠

وأما لباس الجنود فكان ـ غالبا ـ من الجوخ وسلاحهم كان محلى بالذهب ومرصعا بالمرجان وهكذا كان الامير يعتنى بجنوده عناية بالغة وقد دربهم على الحرب وعودهم لقاء الشدائد حتى كان يضرب بهم المثل فى شجاعتهم وضرهم على ميثاق الحرب وفى اقدامهم على منازلة الاعداء فى ميادين الوغى لم تشغل الحروب العنيفة الامير عن العناية بالتعليم بل كان يوليه عناية كبيرة .

التعليم :

وكان يعده اساسا للنهضة الوطنية وهذا ما جعله يرتب المعلمين فى سائر المدن لتدريس فنون العلم المختلفة وقد عين لهم مرتبات مختلفة على حسب درجاتهم العملية ، وحثا الناس على طلب العلم واحترام أهله واتخذ اجراء شديدا ازاء الطلبة فاعفاهم من المطالب الاميرية وكان اذا حضر لديه طالب علم امتحنه فى مادته فاذا وجده محصلا لها وناجحا فيها اكرمه والا اعرض عنه وقد نتج عن ذلك نتائج فعالة فى انتشار الحركة العلمية ولاحظ صاحب التحفة انه « انتشر العلم فى جميع المقاطعات واقبل الناس على تعليم أولادهم الامور الابتدائية فكثرت بذلك الفائدة واجتهد الامير فى حفظ الكتب فى كل جهة وأمر جنوده أن يأتوه بكل كتاب يعثرون عليه وتشدد فى حيازة الكتب التى كانت بين أيدى الطلبة أيام حكمه وعزم على تأسيس مكتبة عامة فى تاقدمت . ثم اضطرته الظروف الحربية ان يجعل هذه المكتبة متنقلة بتنقل الزمالة ولما وقعت حادثة طاكين بهجوم الدوك على الزمالة تبعثرت تلك الكتب واستولى عليها الفرنسيون ٠

العناية بالاخلاق والمواسم الاسلامية :

لم يكن يعنى الامير بالتعليم وحده بل كان يعنى كثيرا بتربية الشعب وتهذيب اخلاقه حتى يكون شعبا قويا صالحا للحياة ·

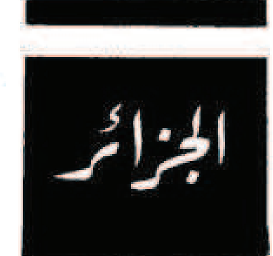
فكان يمنع أفراد الشعب من معاقرة الخمور وتعاطى القمار ، وخصوصا جنوده وكان يحظر على الناس استعمال التبغ لانه كان يعده اسرافا والاسراف يحرمه الشرع وكان يحظر على الرجال ان يستعملوا الذهب والفضة للزينة الا فى الاسلحة · عملا بما تقتضيه الشريعة الاسلامية من تحريم استعمال الذهب الا فى دائرة محدودة ·

وكان يلزم الناس بحضور الصلوات الخمس فى المساجد والرجل التاجر كان اذا بقى فى دكانه وقت الصلاة اخذته الشرطة وجلدته حتى لا يعود الى تركها واهمالها واما النساء فانه كان يمنعهن من دخول المساجد وقد وضع حراسا على ابوابها ليحولوا بينهن وبين دخول المساجد نظرا لحياة الجد التى كانت وضعيته الحربية تتطلبها وكان أيضا يعنى بالاحتفال بيوم المولد النبوى الشريف ويعده يوما رسميا يخرج فيه بخاصته الى أرض واسعة ويجرى تمارين عسكرية احتفالا به ، واكراما لجلاله ان هذه الصورة التى أوردناها للامير - على ايجازها - تطلعنا على شخصية عبقرية بحق فى سلوكها السياسى وفى سلوكها الحربى وفى روحها الشعبية ·

كما تطلعنا على عبقرية الامير الادارية والنظامية وعلى سمو فكره السياسى والعلمى أيضا ·

وقد صدق الامير فيما انشده مفتخرا بأعماله اذ قال مخاطبا .

لئن كان هذا الرسم يعطيك ظاهرى	فليس يريك الرسم صورتنا العظمى
فثم وراء الرسم شخص محجب	له همة تعلو باخمصها النجما



الشيخ جمعه

بقلم : رابح بونار

أف من هذه المهنة التي تجهد فكري ، وتحطم أعصابي ، قال ذلك بزفرة حارة ، ونفس متقطع، وأخذ يذرع ساحة المنزل جيئة وذهوبا ، ويلتفت يمينا وشمالا ، وفي الفينة بعد الفينة يحدق في الحجرة الدانية منه ليرى مبلغ نشاط العم شعبان في غسل الفقيد المتوفى وكانت الحجرات المصاقبة لها تموج بحركة غير عادية في هذا اليوم •

هناك صبيان وصبايا يتصايحون ونساء يتباكين ويتأوهن على وفاة العزيز الفقيد : عمي السعيد ، كان الشيخ يسير في الساحة بغير انقطاع وأثر الاجهاد والسهر تبدو عليه ، وأمارات الضجر والقلق تخترم اوصاله •

انه بات ليلة كاملة يقرأ القرآن ، ويدعو للمرحوم بالغفران وحسن المثوبة ، ولم يكن يني عن القراءة هو وطائفة من زملائه طلبة القريه طول الليل الا حينما تقدم اليهم القهوة والشاي وبعض المرطبات ليتناولوها ، ويستعينوا بها على طرد الخمول والنوم عن أجفانهم ، أو حينما يتقدم عمي شعبان لانشاد أماديحه ، وتحزين القلوب بعظاته، في ذكر الموت وتصوير أهوال القبر ، وضروب ما يتلقاه المؤمنون من مبرات وحسن مجازاة •

كان الشيخ جمعة في هذه القرية ناجحا كل النجاح ، مبجلا من أهاليها جميعا وكان مرجعهم في خلافاتهم ، وامامهم في صلواتهم وكان الى ذلك كله واعظا مؤذنا ، ومشيع جنازات ، وهل يسعه أن يتخلف عن دعوة أحدهم ؟ ان جرايته السنوية تتوقف على كل فرد من أهاليها ، فليكن الشيخ مرنا مطواعا ، وليلب رغائب الجميع •

كان الشيخ جمعة يناهز الخمسين من عمره ، ربعة أسمر اللون كث اللحية ، وقد علت فوديه بعض شعرات بيض كنذير شؤم وادبار ، رغم ان عضلاته مازالت مفتولة ورغم أن جثمانه يبدو لعين المتوسم كأنه جثمان فتى لا يتجاوز الثلاثين •

ولم يكن يساوره الشك بان عهد شبابه قد فات فهو لا يفتأ يستقبل المرآة كل صباح مصوبا ومصعدا في ملاحظة لحيته ، وانسجام شواربه واستقامة عمامته ، ونظافة ثيابه وكيف يتيسر له ان يغفل عن الاحتفال بهندامه ، وهو محط انظار أهل القرية جميعا ، وقد آلى على نفسه أن لايخرج من منزله صباحا حتى يكون مظهره عقلة الأنظار، لحية مقصوصة ممشوطة ، وشارب محفي مقوس، وعمامة بيضاء مكورة بنظام على رأسه ، وقميص أبيض فضفاض ونعل رفيع خفيف ، وعصا معقوفة تداعبها أصابعه •

ولكنه في هذا اليوم يبدو مربد الوجه ، منفوش الشعر •

وكيف يتأتى له أن يزين نفسه وقد واصل ليله بنهاره في توديع المرحوم الى مقره الأخير ؟

أكثر الشيخ جمعة من الدوران ، ولم يستطع البقاء ازاء حجرة المتوفى ليساعد الغاسلين كما جرت عادة من قبله ، وكيف يصبر الشيخ على الوقوف بالحجرة في أمواج الروائح الكريهة التي تنبعث منها ، وكيف يعتذر عن الفرار من الحجرة ان لم يجد علة مقبولة تبيح تخلفه ؟ ••• أطل على الغاسلين وقد كاد يغشى عليه ثم صاح في وجوههم عجلوا ، ان من السنة الاسراع في غسل الميت ودفنه •

ـ لقد عملنا جهد المستطاع يا شيخ ! وسوف نتم غسله بعد قليل •

ـ عجلوا واذكروا الله عند الغسل وتناسوا مشاغل الدنيا ، وعاد الى سبحته واستند الى الجدار القريب •

ـ كلامك طيب وسديد • أجابه «عمي شعبان»

وهو يهوى بيديه على جثمان الميت في حركات متوالية ، وكانت الستون سنة التي جاوزها لم تؤثر في عضلاته وقواه وحينما يشعر بالتعب يزعق في وجوه أعوانه : ناولوني الصابون أعدوا نصيبا من العطور أحضروا الكفن ، وكأن الروائح التي تعكر الهواء في الحجرة ولا تفتأ تداعب مسامه ومسام أصدقائه لا تعنيهم في شيء وأي ضير عليهم في مثل ذلك ، وقد تخدرت حواسهم الشمية ، حتى أصبحت كأنها عديمة الاحساس وكان عمي شعبان يرطب لسانه بذكر الله في بعض الفترات ، ولكنه وهو أمام زميل صباه كيف ينسى ذكرياته معه في مختلف الجهات ؟ حدق في وجوه أعوانه والأسى يعلو محياه ، والذهن قد شرد به الى أعماق الماضي ثم صاح بتنهد :

ان أنسى يا اخواني فلا أنسى ما وقع لي مع المرحوم في (متيجة) أيام كان الفقر يكسونا جميعا ، أذكر يا سادة ان المرحوم قد ذهب بنا الى المعمر « جاك » في نواحي العفرون فعملنا عنده أياما عديدة ، وكنا نتحين غفلاته ونسرق عنبه لنبيعه للسابلة ، أو للأهالي الدانين منا ٠

ـ نذكر ذلك يا عمي شعبان وقد وقع لكل واحد منا مثله ، يا لها من ذكريات حلوة لا يمكن أن تعود ! واسترسل عمي شعبان في حديثه :

اننا كنا نفوض جميع أمورنا الى المرحوم لمهارته ، وحسن حيلته مع الكافر أواه أواه على تلك الأيام ، ونظر الى رجله وضربها بيده مغرورق العينين صائحا : يالك من رجل لطيفة طالما مشيت بجانب رجلي هذه في قطع هذا الوادي الذي ترونه صباح مساء ٠٠ في الليالي الحالكة لسرقة عنب ذلك المعمر البغيض السيد « روجير » ، وكنا ننجح بحمد الله في السرقة ، ونعود دائما غانمين سالمين، أواه أواه على تلك الأيام ، لقد مضت ومضى أهلها الأخيار ٠

ـ نعم يا عمي شعبان ٠ ان ذلك الزمان لايمكن أن يعود ٠

ـ هل تذكرون يا سادة يوم ذهبنا أنا والمرحوم وعمي مسعود بستة بغال وملأناها من ثمار مسيو « جاك » ولما عدنا الى القرية اعترضنا كثير من حراس البيادر فأعطيناهم وأشركناهم في غنائمنا، أليس ذلك نهاية التسامح والاشتراكية ؟ ورفع رأسه باعجاب ، وتطلع يمنة ويسرة ٠ والزهو يهز نفسه هزا وهتف فيهم ابدوا رأيكم ٠ فقال الجميع : لا يجاريكم أحد في أعمالكم هذه ؟ ان الطيبين لا يصدر منهم الا الطيب وكان الشيخ جمعة قد اقترب من الباب بعد أن زم أنفه وتسرب الى سمعه ما يخوض فيه عمي شعبان فأجال نظره فيهم ثم صاح :

ـ لا شك أن شيطانا ينطق عن لسانك في هذا اليوم يا عمي شعبان ؟ اعرض عما فات من الذنوب واستقبل هذا اليوم بالذكر الحميد ، عجل اسرع ٠

ـ ان التشديد في الدين مذموم ؟ ، ونحن نذكر ذنوبنا ، ونستغفر منها لتغفر لنا ، هلا تفضلت يا شيخ لترشدنا ؟ فهمس الشيخ غاضبا :

ـ يا له من خبيث ماكر ، لقد صدعنا بثقله ، وأرهق المرحوم بهذيانه انني أعاني برحاء من ثقله ، وابتعد قليلا ثم صاح اعذرني ياعمي شعبان، فاني مريض ومزكوم بأشد زكام ، وسمع صراخ الصبيان والصبايا وبكاء النساء في الحجرات الصاقبة فهرول اليهم ليسكتهم ويسليهم وقال

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مطاطىء الرأس، خفيض الطرف، اصبروا وفوضوا أمركم الى الله سبحانه ، فانه يجير المصابين ، ويداوى المكلومين ، ان المرحوم عزيز علينا جميعاً رحمه الله ولكن أى انسان يبقى فى هذه الحياة ؟ استعيضوا عن الفقيد برحمة الله ولطفه ... وعاد مهرولا وهو يسبح ويحمد الله ، وينتظر لحظة التشييع بشوق لافح ... وكم كان يعتلج فى نفسه من غيظ على الغاسل المتثاقل الذى ربطه بحبال من حديد ، الى هذا الجو الخانق .

استند قليلا الى الجدار وهو يهمس بكلمات مبهمة ، وعيناه تطرفان لمداعبة النعاس لهما ، وأذناه تتحسسان حركات الغاسلين والمارة بجانب المنزل فى الطريق ، وأغفى اغفاءة خفيفة ثم استيقظ فوجد عمى شعبان مازال فى دورانه لم يتم تكفين المرحوم فصاح فى وجهه : الى متى نبقى هنا ؟ ان الوقت لا ينتظرنا يا عمى شعبان ، أرقدت أم ماذا أصابك ؟

ـ ان الاسراع مطلوب فى كل شىء .

ـ أجل كما أن الاتقان مطلوب منا فى كل شىء والمرحوم يستحق منا أكثر من هذا رحمه الله وتغمده بفضله ولطفه .

ـ لقد استرحمنا له مرات عديدة وأرهف الشيخ أذنيه فسمع طلقات نارية آتية من بعيد فقال على اثرها : يا سادة ان هذه طلقات نارية تتبعها تحركات الجيش من المركز هنا ، وسنقع تحت طائلة اعناتهم ان بقينا فى هذا الدوران احذروا .

ـ لا خوف يا شيخ اننا فى عمل انسانى لاشبهة فيه وهل خرجنا من الغابة مدججين بالسلاح حتى يشك فينا ؟ هذه أوهام وخيالات جبناء !

فزم الشيخ جمعة شفتيه ، ووضع يده على انفه وفر هاربا من الباب مزمزما بخفوت : اخزاك الله يا ثقيل ، اننا سنتحمل منك اليوم أكثر من آلام الموت واننى أرى أن نذر الشر تحوم حولنا فى هذا اليوم ، لا حول ولا قوة الا بالله وعاد الى سبحته واستند الى الجدار فى انتظار نهاية عمى شعبان ، وكانت الوساوس تراود ذهن الشيخ ، وألوان من صور العقاب تتراءى أمام عينيه لنتائج هذا الحادث وطوحت به المخيلة الى أيام العذاب التى قاساها فى المعتقل وفى مركز الجيش ، انه يستذكر جيدا صور التعذيب بالكهرباء ، والغطس فى أحواض الماء ، ويتذكر ضروب الكتاف للرجلين واليدين ، وجلد السياط وركل الأقدام وغيرها من وسائل تدمير الشخصية ، فهلع لذلك أشد الهلع وتلبد بالجدار قليلا ، وأفزعته جلبة وحركات سريعة فى الطريق ، فخطا على أصابعه بخفة ، وهمس فى أذن الغاسلين : حذار من الحديث ، أو اثارة الضجيج فان الجنود قد مروا بنا ولعلهم يريدون تطويقنا ، كونوا على احتراس ، ودلف بحذر الى الحجرات الأخرى وهمس فى صفوف النساء والصبيان ان اسكتوا فان الجنود فى حركات مريبة حولنا .

وعاد الى مقره بالجدار ، ورفع عينيه الى السماء كأنه يدعو ، وكانت الحرارة شديدة والعرق يتنزى من جسمه ، والسحب القليلة المتقطعة تذهب وتؤوب ناشرة ظلالا كالحة ، تبذر الغم ، وتثير الكآبة ، وتقدم هذه المرة زاعقا بقوة : ان لم تسرعوا فى تجهيز المرحوم أدبرت عنكم وتركتكم وحدكم تتخبطون فى تيه .

ـ لقد انتهينا من الغسل والكفن ، وما بقى الا أن نخبر الجيران ليحملوا المرحوم الى مقره الأخير ....

وانطلق الشيخ جمعة وهو يحدق فى كل جهة حتى يتقى كل محذور ، ينادى فلان أقبل وأخبر كل الجيران بأوان التشييع ، هيا بادروا ياسادة .

وعاد الى الميت وحضر اخراجه من منزله ، وأشار الى الحاضرين أن يخرجوا بتؤدة ويشرعوا فى ذكر لا اله الا الله وقراءة البردة وأوصى النساء وافراد العائلة بحسن التسليم ، وعدم الاكثار من البكاء ، وتسامع الجيران ، فأقبلوا مشيعين يتزاحمون على حمل نعش المرحوم ، وتقدم الشيخ ورفاقه من النعش وهم يتلون البردة وكان الشيخ غير متحمس لقراءتها فى هذا اليوم ، كعادته ، فكان يخفض صوته حتى لا تترامى أصداؤه الى جهات بعيدة ، انه يخافت به ما استطاع ، ويلوح مرة بعد أخرى الى زميله المداح بخفض الصوت ، وايثار جانب السكوت ، ولكن عمى شعبان لم يكن يأبه لتحذيره ، وكان يتخاشم ، ويحرك شدقيه فى المديح ويهيب بالرفاق أن يعاضدوه ، ولم يسع الشيخ جمعة الا أن يكظم غيظه ويبلع ريقه ، وأن يحتسب يومه بجانب عمى شعبان ،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ووصل النعش الى المقبرة وأقيمت الصلاة عليه وأخذ اللاحدون يهيلون التراب على جثمانه ، وطفق الشيخ يتلو سورا من القرآن بمعونة زمرة من طلبة القرية وشاركهم عمي شعبان الذى كان يحفظ الآيات التى تتلى على الموتى رغم أميته ، لطول سماعها وكثرة تكرارها ٠

وانتهى الدافنون من عملهم وتأهب المشيعون للعودة الى منازلهم وهم خاشعون من مثل هذا الموقف الرهيب ، وانتصب الشيخ جمعة وبازائه عمي شعبان وباقى الطلبة ، وأقبل اليهم أخو المتوفى فى خفة ودس فى جيب كل واحد منهم كمشة من النقود ، فتهللت وجوههم ، وافترت ثغورهم ، ورفع الشيخ جمعة يديه الى السماء وهو يقول بصوت حزين : اللهم اغفر للمرحوم واغفر لجميع موتانا وواس أهله بالصبر والسلوان ، واغفر لنا جميعا يا مولانا وأخيرا يا سادة :

الحمد لله الذى أنجانا من هؤلاء الجنود بعد الحادث الذى سمعتم وقع طلقاته النارية ، الحمد لله ! ان من كانت النية الخالصة رائدة فى أعماله فلابد أن يكون مستورا محفوظا ، وهرول هو والجماعة ليخرجوا من أشجار المقبرة مطمئنين وما ابتعدوا قليلا عن المقابر الأولى حتى فوجئوا بصفوف متراصة من الجند وهم يصيحون فى وجوههم بأصوات مزعجة : ارفعوا أيديكم ، وسيروا أمامنا، فان الفلاقة قد اندست فى صفوفكم أو كنتم متواطئين معهم ، واستسلم الشيخ وهو مبهوت ومضطرب وقال : لتكن مشيئة الله ٠

فهرس الموضوعات

ترقيم الصفحات في هذا الفهرس خاص بهذا المجموع لا بأرقامها في المجلات التي نشرت فيها هذه المقالات

1- **الأمير عبد القادر حياته وأدبه (1807-1883م)** 03

2- **عبد الرحمن الثعالبي** 20

3- **أبو بكر محمد بن داوود كاتب يغمراسن بن زيان بتلمسان** 31

4- **أزهار الأحجار، لأحمد بن يوسف التيفاشي** 38

5- **القاضي سعيد العقباني التلمساني** 41

6- **علي بن أبي الرجال التاهرتي القيرواني** 49

7- **مدينة الجزائر تاريخها وحياتها الثقافية** 53

8- **أبو راس المعسكري وتاريخ مدينة الجزائر** 66

9- **إبراهيم بن أحمد الفجيجي وقصيدته المطردة "روضة السلوان"** 76

10- **بجاية من خلال بعض الرحالة المسلمين** 82

11- **مخطوط يُنشر لأول مرة: تاريخ بني حماد للسان الدين بن الخطيب (ت 776 هـ)** 91

12- **عبد الحق الإشبيلي البجائي محدث القرن السادس الهجري** 98

13- **عبقرية المشداليين العلمية في بجاية على عهدها الإسلامي الزاهر** 111

14- **نظام الحكم في إمارة الأمير عبد القادر** 125

15- **الشيخ جمعة "قصة"** 134

فهرس الموضوعات 138